الدروس الذهبية

في شرح العقيدة الإسلامية - أهل السنة والجماعة

جمع وإعداد

المستشار أحمد الدين عبد الله الحسين

الطبعة الثالثة

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

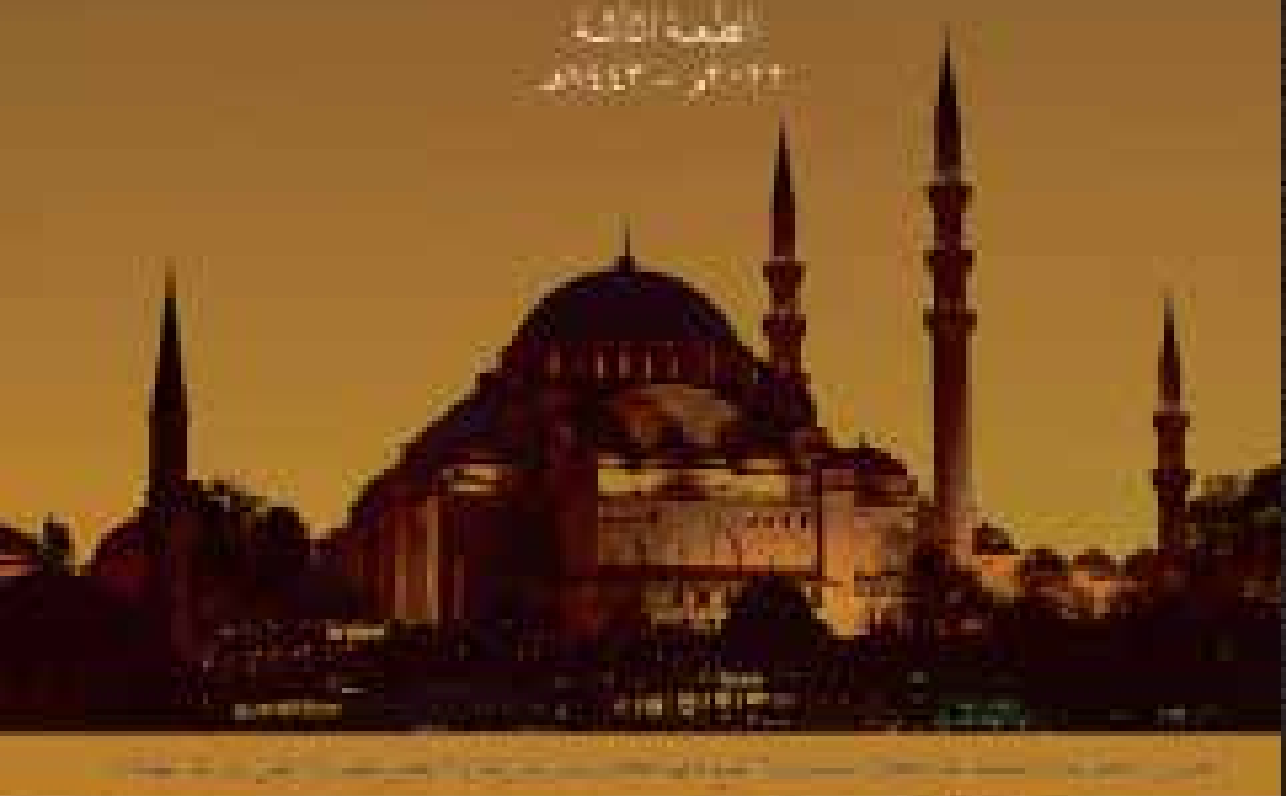

الدروس الذهبية

في شرح العقيدة الإسلامية – أهل السنة والجماعة

(الطبعة الثالثة – نسخة للنشر الرقمي)

جمع وإعداد

المستشار/ حسام الدين عبد الله محيسن

حُقُوقُ الطَّبْعِ لَيْسَتْ مَحْفُوظَةً لِلْمُؤَلِّفِ ولا لِلْمُعْتَنِي ولا لِلْنَّاشِرِ دُونَ غَيْرِهِم.

لا يُمنع مالِكُ هذِهِ النُّسْخَةِ مِنْ إعادَةِ طَبْعِها أو اسْتِنْساخِها بِأيَّةِ كَمْيَّةٍ ولَوْ لِأَغْراضٍ تِجارِيَّةٍ

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية

رقم الإيداع: ١٧٥٣/ ٢٠٢٢

فُهرِس في ٢١/ شوال/ ١٤٤٣ هـ الموافق ٢٢/٥/٢٠٢٢ م

الإدارة العامة للمعارض والفنون والتراث

الهيئة العامة للشباب والثقافة

دولة فلسطين

ملتزم الطباعة

المدرب الفلسطيني

PALTRAINER.COM

المحتويات

تقديم	٣
الدرس الأول – أهميةُ تعلمِ علمِ الدين	٥
الدرس الثاني – أهميةُ عِلْمِ العقيدة	١٢
الدرس الثالث – الإسلام والإيمان	١٦
الدرس الرابع – معنى أشهد أن لا إله إلا الله	١٩
الدرس الخامس – المحكم والمتشابه من القرآن والسنة	٤٩
الدرس السادس – معنى شهادة أن محمدًا رسول الله	٦٥
الدرس السابع – الإسلام دين جميع الأنبياء	٩٩
الدرس الثامن – باب تبيان الردة وأنواع الكفر وحكم المرتد	١٠٨
الدرس التاسع – مَن هم أهل السُنَّة والجماعة	١١٣
الدرس العاشر – حكم التوسل والتبرك والاستغاثة في الإسلام	١٢٧
الدرس الحادي عشر – بيان البدعة وأقسامها	١٣٨
الدرس الثاني عشر – حكم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف	١٤٥
الدرس الثالث عشر– معجزة الإسراء والمعراج	١٥٢
الدرس الرابع عشر– الهجرة النبوية الشريفة	١٦٩
الدرس الخامس عشر– أشراط الساعة	١٨٧
أذكار الصباح والمساء	١٩٦

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين المُنَزَّهِ عن النظير والشبيه، الذي لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان، الذي لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد.

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد:

يقول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران [١١٠]

أتشرَّفُ أن أقدم لهذه المحاضرات القيّمة النافعة الجليلة، ننشُد من خلالها نشر الحق والهدى والعلم النافع النقيّ الصافي والذي راعينا في هذه المحاضرات وضوح المادة والموضوع وسلامة العبارات ووضوح المعاني لنصل إلى المراد في تبيان الأحكام والمفاهيم الشرعية الواردة فيها من عقائد وشرائع للدين الحنيف، وعمدة ما ضُمِّنت به هذه المحاضرات هو النقل الصحيح بالتلقي من أهل المعرفة الثقات حيث إن هذا هو طريق العلم والتعلم كما قال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم» رواه البخاري. وكما قرر ذلك علماء الإسلام فقد قال التابعيُّ الجليل محمد بن سيرين: «إنَّ هذا العلمَ دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم» رواه مسلم.

ومطيّة ذلك قولُ التابعي الجليل عبد الله بنُ المبارك: «إنَّ الإسنادَ من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» رواه مسلم.

وذلك حرصًا منا على نقل العلم الصحيح الصافي بعيدًا عن أهل البدع والأهواء وتبيانًا ونصرةً لمذهبِ أهلِ السنة والجماعة من الأشاعرة والماتردية وأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة وأهل العلم الثقات من فقهاء وأصوليّين ومُحدّثين ومفسرين ولغويّين من أهل الفضل في العقيدة والأحكام والشرائع والأخبار وتعاليم الدين، وأولينا اهتمامًا كبيرًا بأمور العقيدة والإيمان وتوحيد الله لأنها أهمُّ أمورِ الدين وأولاها وأعلاها وأجلها لقوله ﷺ: «أفضلُ الأعمالِ إيمانٌ باللهِ ورسولِهِ» رواه البخاري.

وكل ما حوته هذه المحاضرات من نشرٍ للخير ونصرةٍ للدين وتبيانٍ للحق ودفعٍ للضلالِ وأهلِه إنما هو عملٌ بحديث رسول الله ﷺ: «من أحيا سُنَّتي عند فسادِ أُمَّتي له أجرُ شهيد»، والسُّنة هنا الدين والشريعة عقيدةً وأحكامًا.

سآلين اللهَ أن يكونَ هذا العمل خالصًا لوجهِهِ الكريم، راجيًا أن يكون هذا العمل عظيمَ الفائدةِ جليلَ النفعِ لعموم المسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير إلى ربه

الشيخ / أنور عبد الله محيسن

الدرس الأول – أهميةُ تعلمِ علمِ الدين

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهَم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد: -

قالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر [٩]

اعلم أخي المسلم أنَّ الأعمالَ لا تُقبَلُ إلا أنْ تُوافِقَ الشّرع، وموافَقةُ الشّرع وعدَمُ موافقَتِه لا تُعرَفُ إلا بالعِلم، فَلأَجل هذا يَنْبَغِي صَرْفُ أَكْثَرِ الوَقتِ في العِلم، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ التحريم [٦]

فقد جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تعالى يَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلَهُمُ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ بِتَعَلُّمِ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، وَتَعْلِيمِ أَهْلِيهِمْ ذَلِكَ أَيْ مَعْرِفَةِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ.

ذكر القشيري أن سيدنا عمر - رضي الله عنه - قال: لَمَّا نزلت هذه الآية: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَقِي أَنْفُسَنَا، فَكَيْفَ لَنَا بِأَهْلِينَا؟ فَقَالَ: تَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاكُمُ اللَّهُ وَتَأْمُرُونَهُمْ بِمَا أَمَرَ. اهـ

وروى الحاكم في المستدرك بإسناد قوي عن سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال في تفسير هذه الآية: علموا أنفسكم وأهليكم الخير.اهـ

وقال رسول الله ﷺ «طلب العلم فريضةٌ على كل مسلمٍ» رواه البيهقي في شُعَبِ الإيمان والحافِظُ المُنذري وحَسَّنه.

طلب العلم: أي ما عُرِفَ بِضروريّات علم الدين ويَحتَاجُه كلُّ مُكَلَّف لنفسه، ومعنى فريضةٌ على كلّ مسلم: أي فرضٌ وهو الواجب على كل مسلم ومسلمة تعلمه (اللَفظُ للذكرِ لكنّه شَامِلٌ للأنثى أيضًا).

ما هو الفرض العيني من علم الدين؟

الفرض العينيّ من علم الدين هو القَدْرُ الذي يجب تَعلمُه من علم الاعتقاد ومن المسائل الفقهية ومن أحكام المعاملات لمن يتعاطاها وغيرها، كمعرفة معاصي القلب والجوارح كاللسان وغيره، ومعرفةِ الظاهر من أحكام الزكاة لمن تجب عليه، والحج للمستطيع.

من هو المُكَلَّفُ المُلزَمُ بالدخول في دين الإسلام والعمل بشريعته؟

المُكَلَّف هو البالغ العاقل الذي بلغته دعوة الإسلام، ويكون البلوغ بالنسبة للذكر بحصول أمر من اثنين: رؤية المني أو بلوغُ خمس عشرة سنة قمرية، وللأنثى بحصول أمر من ثلاثة: رؤية المني أو دم الحيض أو بلوغُ خمس عشرة سنة قمرية. فمن مات دون البلوغ فليس مُكلَّفًا، ومن اتصل جنونه من قبل البلوغ إلى ما بعده ومات وهو مجنون فليس مكلفًا، ومن عاش بالغًا ولم يبلغه أصل الدعوة أي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فليس مكلفًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء [١٥].

وقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل» رواه الإمام أحمد.

ما هو الطريق المُعتَبَر لتلقي العلم؟

العِلْمُ لا يُؤخَذُ إلا مِن أفواهِ العُلماء، ولا تكفِي مُطالَعةُ الكتُب بغَيرِ تَلَقٍّ، بل كثيرٌ منَ النّاس الذين يَضِلُّونَ، سبب ذلك أنهم لا يَتَلَقَّونَ عِلمَ الدِين مِن أفواهِ العُلماء بل يَعتَمدُون على المطالعَةِ في مؤلَّفَاتِ العلماء وطريقةُ تلقي العلم أخذه من أهل المعرفة الثقات الذين تَلَقَّوا عن أمثالهم بالسلسلة المتصلة بأصحاب النبي ﷺ وهذا هو الطريق المُعتَبَر بتلقي العلم عند أهل السنة والجماعة عملًا بقوله ﷺ : «يا أيُّها الناس تعلَّموا فإنَّما العِلم بالتعلُّمِ والفِقهُ بالتفقُّهِ فمَن يردِ الله بهِ خيرًا يُفَقِّهه في الدِّينِ» رواه البخاري ومسلم وغيره

قال ابن المبارك: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» وكما أنه لا يصح من العاقل أن يتداوى عند جاهل بالطب، كذلك لا يجوز للمرء أن يطلب العلم من غير أهله الذين تلقوا العلم عن غيرهم بالسند إلى رسول الله ﷺ، وكل من درس الوضع العلمي في الماضي يعرف قيمة الإجازة من العلماء وأهمية التلقي عندهم، حتى إنهم أطلقوا على من لم يأخذ علمه من العلماء اسم «الصُّحُفِي»، لأنه أخذ علمه من الصُّحُف والمُطالعة الخاصة. قال ابن سيرين : «إن هذا العِلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم» رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

إن الأمانة في العلم أهم من الأمانة في المال فينبغي للإنسان أن يكون محتاطًا في كلامه، وينبغي أن يعمل بما قال سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب «العلم ثلاثة كتاب ناطق، وسنة ماضية ولا أدري»، كتاب ناطق أي القرآن، وسنة ماضية أي حديث ثابت، فعليكم بفَهم السؤال على وجهه وعدم الاستعجال في إصدار حُكمٍ، كما قال الإمام سيدنا عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- «أفهموني ما تقولون وافهموا عني ما أقول» وعليكم بكلمة من عمل بها أحسن الإفادة ألا وهي «زَينُ العلم الحِلم».

وكثير من المصائب في الكلام في أمور الدين تأتي من تجاوز الشخص حدّه فيفتي بلا علم

بعض ما جاء في فضل تعلم علم الدين

- قالَ الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة [١١]

- قال رسول الله ﷺ لأبي ذَرّ: «يا أبَا ذَرّ لأن تَغدُوَ فتتعلّمَ آيةً مِن كتابِ الله خَيرٌ لكَ مِن أنْ تُصلِّيَ مِائةَ رَكعة، ولأنْ تَغدُوَ فتتَعلّم بابًا مِنَ العِلم خَيرٌ لكَ مِن أن تُصَلِّيَ ألفَ رَكعة» حديث ثابتٌ حسَنٌ رواه ابنُ ماجَه وغيره.

أي منَ النّفل، فهذا الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ غُدُوَّ الشّخصِ أي ذهابَه إلى عالِمٍ فيَتعلَّم بابًا مِنَ العِلم أفضلُ مِن رَكعاتِ التَّراويح في رمضانَ كُلِّه، لأنَّ عَددَها في ثلاثينَ ليلة سِتُمائةٍ وتِسعينَ، فيكون معنى الحديثِ أنَّ الذي يَغْدُو إلى عالِمٍ فيتَعلمُ بابَ الاستِنجاء أو بابَ التيمّم أو باب الأذان أو باب غُسل الجنابة أو باب الوضوء أو غيرَ ذلك أفْضَلُ مِن هذه الرَّكَعاتِ السِتّمائة والتِسعين رَكْعَة التي هي ركَعاتُ التّراويح، وفَضْلُ الاشتغالِ بالعِلم دَرَجةٌ عَالية.

- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ التوبة [١٢٢]

- وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»، رواه الترمذي، والدَارِمِي.

- قال ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة» رواه مسلم، وأصحاب السنن عن أبي هريرة.

- وروى أبو داوود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء مرفوعًا: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سَهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علمٍ يُنتَفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» أخرجه مسلم.

- أخرج ابن ماجة في سننه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ«سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاقْنُوهُمْ» قُلْتُ لِلْحَكَمِ: مَا اقْنُوهُمْ؟ قَالَ: عَلِّمُوهُمْ أخرجه ابن ماجه بسند حسن.

- قال ﷺ: «نَضَّرَ الله امرأً سَمِعَ مقالتي فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه» أخرجه ابن ماجه بسند صحيح.

- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جاءَ مَسجِدي هذا لم يَأتِهِ إلَّا لِخيرٍ يتعلَّمُهُ أو يعلِّمُهُ فَهوَ بمنزلةِ المجاهِدِ في سبيلِ اللَّهِ ومن جاءَ لغيرِ ذلِكَ فَهوَ بمنزلةِ الرَّجُلِ ينظرُ إلى متاعِ غيرِهِ» أخرجه ابن ماجه بسند صحيح.

- وفي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» إلى آخر الحديث.

عَنْ كُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ ، قَالَ : أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي إِلَى نَاحِيَةِ الْجَبَّانِ، فَلَمَّا أَصْحَرْنَا جَلَسَ ثُمَّ تَنَفَّسَ، ثُمَّ قَالَ: يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، « الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ، وَاحْفَظْ مَا أَقُولُ لَكَ : النَّاسُ ثَلاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ..... إلى آخر الحديث) أبو نُعَيم في حلية الأولياء.

إنَّ عِلْمَ الدِّينِ هوَ حياةُ الإسلامِ مَنْ أهملَهُ فهوَ تائهٌ ضائعٌ يميلُ معَ كُلِّ رِيحٍ. الجاهلُ كالتائهِ في وسَطِ الصحراءِ بلا دليلٍ لا يدري هلْ يقتربُ مِنْ مقصودِهِ أمْ يبتعدُ، وهكذَا الجاهلُ لا يضمنُ صِحَّةَ صلاتِه ولا صحةَ صيامِه ولا صحةَ حَجِّهِ.

فبعِلْمِ الدِّينِ تميزُ الكفرَ مِنَ الإيمانِ والحلالَ مِنَ الحرامِ، بعِلْمِ الدِّينِ تميزُ الحقَّ مِنَ الباطلِ والحسنَ مِنَ القبيحِ، وبعِلْمِ الدِّينِ تعرفُ كيفَ تتكلَّمُ وماذَا تتكلَّمُ ولماذَا تتكلَّمُ وإذَا سَكَتَّ لماذا تسْكُتُ، بعِلْمِ الدِّينِ تعرفُ كيفَ تَبيعُ وكيفَ تشترِيْ وكيفَ تُجريْ عقدَ النكاحِ لكَ أوْ لابنتِكَ أوْ لولدِكَ، بعِلْمِ الدِّينِ تعرفُ كيفَ تكونُ بارًّا بوالدَيْكَ وكيفَ تحسنُ لأرحامِكَ ولجيرانِكَ، فتأمَّلْ معِي أخِي المؤمنَ لوْ أنَّ شريحةَ المجتمعِ التي تعيشُ بينَها تعرفُ هذَا وعندَها هذَا الميزانُ الشرعيُّ الذي اكتسبْتَهُ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ كيفَ سيكونُ الحالُ، فبعدَ هذَا كلِّهِ أقبِلْ إلى مجالسِ عِلْمِ الدِّينِ ولا تكنْ مِنَ المستمعينَ فقطْ بلْ كُنْ مِنَ المستمعينَ النقَلَةِ الذينَ يستمعونَ ويتعلَّمونَ ويغترفونَ ويضبطونَ ويحرّرونَ وينقلونَ بضبطٍ تامٍّ هذِه الدررَ والجواهرَ إلى غيرِهِمْ بدونِ زيادةٍ أوْ نقصانٍ

فلنتعلَّمْ عِلْمَ الدِّينِ الصَّافيَ لأنَّهُ الطريقُ إلى السعادةِ الأبديَّةِ فطلبُهُ عبادةٌ وتعليمُه صدقةٌ وأيُّ صدقةٍ وهوَ الأنيسُ في الوَحدةِ والصاحبُ في الخلْوَةِ ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ، يرفعُ اللهُ بهِ أقوامًا فيجعلُهُمْ في الخيرِ قادةً وَسادةً هداةً يُقتدَى بِهِمْ أدلَّةً في الخيرِ تُتَّبعُ آثارهمْ وتُرمَقُ أفعالهُمْ وتضعُ الملائكةُ لهمْ أجنحتَها تواضعًا لهمْ وتستغفرُ لهمْ حيتانُ البحرِ وطيرُ البَرِّ لأنَّ عِلْمَ الدِّينِ حياةُ القلوبِ ونورُ الأبصارِ وقوةُ الأبدانِ فيَبلُغُ بهِ العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجاتِ العُلَى، بهِ يُطاعُ اللهُ عزَّ وجَلَّ وبهِ يُعبدُ وبهِ يُوَحَّدُ وبهِ يُمَجَّدُ وبهِ يُتورَّعُ وبهِ توصَلُ الأرحامُ وبهِ يُعرَفُ الحلالُ والحرامُ وهوَ إمامٌ والعملُ تابعُه وأشرف علوم الدين هو علم العقيدة أو التوحيد لأنه متعلقٌ بأشرف المعلومات التي هي أصول الدين، قال الإمام أبو حامد الغزاليّ: «لا تَصِح العبادةُ إلا بَعْدَ مَعْرِفَة المَعْبُود».

والحمد لله ربِّ العالمين

الدرس الثاني – أهميةُ عِلْمِ العقيدة

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النيّة والقول والعمل، أما بعد: -

قال الله تعالى:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ محمد [١٩]، هذه الآية من القرآن فيها إشارة إلى عِلمين: علم التوحيد بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وعلم الفروع بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وقد قَدَّم الله تعالى ما فيه إشارة إلى علم التوحيد على ما فيه إشارة إلى علم الفروع؛ فعَلِمْنَا من ذلك أنه أولى من علم الفروع وهو أفضل العلوم وأعلاها وأشرفها وأولاها، وقد خصّ رسول الله ﷺ نفسه بالترقّي في هذا العلم فقال: «فوالله إني لأعلمكم بالله وأشدّكم له خشية» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سُئِلَ أيُّ العمل أفضل فقال: «إيمانٌ بالله ورسوله» لأنَّ الأعمال الصالحة لا تُقبل بدون الإيمان بالله ورسوله.

وروى ابن ماجه عن جُندُبِ بن عبد الله قال: «كُنَّا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا».

وقال أبو حنيفة في الفقه الأبسط: «اعلم أن الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام»، **وقال أيضًا:** «أصل التوحيد وما يصحُّ الاعتقاد عليه وما يتعلق بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر».

وقال الشافعي - رضي الله عنه -: «أحكمنا ذاكَ قبلَ هذا»، أي أتقنَّا علم التوحيد قبل فروع الفقه.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري: «أول ما يجب على العبد العلم بالله ورسوله ودينه».

وقال الغزالي: «لا تصح العبادةُ إلا بعد معرفة المعبود»، أي أن من لم يعرف الله تعالى، بل يشبّهه بخلقه بالضوء أو غيره، أو اعتقد أنه ساكن في السماء أو أنه جالس على العرش أو وصفه بصفة من صفات البشر، فهذا عبادته تكون لشيء توهَّمه في مخيلته فيكون مُشركًا بالله، فلا تصح عبادته.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» رواه مسلم.

قال الإمام النووي -رحمه الله- في شرحه على صحيح مسلم: قوله ﷺ (فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ ...) إلى آخره قال القاضي عياض -رحمه الله-: هذا يدل على أنهم ليسوا بعارفين الله تعالى، وهو مذهب حُذَّاقِ المتكلمين في اليهود والنصارى أنهم غير عارفين الله تعالى، وإن كانوا يعبدونه ويُظهرون معرفته لدلالة السمع عندهم على هذا، وإن كان العقل لا يمنع أن يعرف الله تعالى من كذب رسولًا.

قال القاضي عياض -رحمه الله-: ما عرف الله تعالى من شبّهَه وجسّمَه من اليهود أو أجاز عليه الْبِدَاءَ ، أو أضاف إليه الولد منهم، أو أضاف إليه الصحابة والولد، وأجاز الحُلولَ عليه والانتقالَ والامتزاج من النصارى، أو وصفه بما لا يليق به، أو أضاف إليه الشريك والمُعاند في خلقه من المجوس وَالثَّنَوِيَّةِ، فمعبودُهُم الذي عبدوه ليس هو الله وإنْ سمَّوه به إذ ليس موصوفًا بصفات الإله الواجبةِ له، فإذا ما عرفوا الله سبحانه، فَتَحَقَّقْ هَذِهِ النُّكْتَةَ وَاعْتَمِدْ عَلَيْهَا.

الملخص: إن أول ما يجب على العبد معرفة الله ورسوله وهو متضمن في معنى الشهادتين، وهي أَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وأَشهُد أنَّ محمدًا رسولُ الله، ومعنى أشهد أن لا إله إلا الله: أعلم وأعتقد وأعترف أن لا معبود بحقٍّ إلا الله، ومعنى العلم: هو معرفة الشئ على ما هو عليه، ومعرفة الله ليست على سبيل الإحاطة، بل معرفة ما يجوز في حق الله من صفات الكمال التي تليق به وما يستحيل عليه من صفات النقصان، لأنه لا يعلم الله على الحقيقة إلا الله لذلك قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فيما نقله الزركشي ورواه الرفاعي في البرهان المؤيد:

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ ..... والبحثُ عن ذاتِهِ كفرٌ وإشراكُ

المعنى أنَّ الإنسانَ إذا عرفَ اللهَ تعالى بأنه موجودٌ لا كالموجوداتِ، موجودٌ بلا مكانٍ ولا كيفيّةٍ واقتصرَ على هذا ولم يبحثْ عن ذات الله تعالى للوصولِ إلى حقيقة الله فهذا رُشْدٌ وإيمانٌ وصوابٌ، الذي يكتفي بأن الله تعالى موجودٌ لا يُشبه الموجودات لا يتصوَّرُ في حقِّه مكانٌ ولا هيئةٌ ولا كَيفيَّةٌ واقتصرَ على هذا وقَنِعَ ورضيَ بذلك هذا يُقال: عرَفَ اللهَ.

ومعنى «البحثُ عن ذاته كفرٌ وإشراكٌ»: هو الذي يُريدُ أن يعرفَ حقيقة الله -بزعمه- فيتصوَّرُه كإنسانٍ أو ككُتلَةٍ نورانيَّةٍ أو نحوِ ذلكَ أو يتصوَّرُه جِسمًا قاعدًا على العرشِ فهذا كفرَ بالله تباركَ وتعالى.

والحمد لله ربِّ العالمين

الدرس الثالث – الإسلام والإيمان

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد،

عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال : بينما نحن جلوسٌ عند رسولِ الله ﷺ ذاتَ يومٍ إذْ طَلَعَ عَلينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرَى عليهِ أَثَرُ السفرِ، ولا يَعرفُهُ مِنا أحد؛ حتى جلسَ إلى النبي ﷺ فأسنَدَ رُكْبَتيهِ إلى رُكْبَتيهِ، ووضعَ كفيهِ على فخذيهِ، وقال: يا محمَّدُ، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيمَ الصلاة وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا قال :صدقت، فَعَجِبْنَا له يسأَلُهُ ويُصَدِّقُهُ، قال : أخبرني عن الإيمان، قال : أن تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخر، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِهِ .. إلى آخر الحديث. رواه مسلم.

ما هو الإيمان؟

لغةً: هو التصديق وقد ورد في القرآن بهذا المعنى قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ يوسف [١٧]

شرعاً: هو التصديق القلبي المخصوص الجازم بكل ما جاء عن الله وما جاء عن رسول الله فمن شك بركنٍ من أركان الإيمان كَفَر قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الحجرات [١٥]

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ الفتح [١٣]

ما هو الإسلام؟

لغةً: الانقياد والاستسلام وقد ورد في القرآن بهذا المعنى قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤﴾ الحجرات [١٤]

شرعاً: هو الأعمال الشرعية الظاهرة من الإنسان كالنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج للمستطيع وهي أعظم أمور الاسلام.

فلا يُقال فلان مؤمن وليس مسلمًا أو فلان مسلم ولكن ليس مؤمنًا، قال الإمام أبو حنيفة النعمان -رضي الله عنه- في الفقه الأكبر « لا يكون إيمان بلا إسلام ولا إسلام بلا إيمان فهما كالظهر مع البطن»، فمن آمن بالله ووحده ونزَّهه عن مشابهة المخلوقات بأي وجه من الوجوه وآمن برسول الله وبكل ما جاء عن رسول الله وأيقن وأذعن قلبه بذلك واعترف بلسانه فهو مسلم مؤمن، فلا يصح إسلام بلا إيمان ولا يصح إيمان بلا إسلام.

قال الله تعالى:

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ الذاريات [٣٥، ٣٦]

أما عن قوله تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤﴾ الحجرات [١٤]

الله سبحانه وتعالى أخبرنا عن أعراب بني أسد بأنهم قالوا لرسول الله إنهم أسلموا، ولكن الله يعلم ما في قلوبهم بأنها لم تكن مؤمنة، لذلك الذي يُظهِر الإسلام (الأعمال الظاهرة) ويُبطِن الكفر في قلبه يُقال عنه: منافق ولا يقال عنه مسلم.

فهؤلاء استسلموا خوفًا من السيف ولم يؤمنوا بأن دخلوا في دين الإسلام فهذا معنى ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فاللهُ تعالى أعلمَ نبيَّه بحالِهم.

وهنا تنبيه مهم: من أظهرَ الإسلام وأبطن الكفر هو عندنا مسلم لأننا لا نعلم ما في قلبِه، بل نحكم بما أظهره لنا لكن عند اللهِ هو كافر لأنّ اللهَ يعلمُ حالَه، إلا إن صرَّحَ المنافق عن اعتقادِه الفاسد كما في قصةِ أصحابِ الجنتين عندما صرَّحَ أحدُهما بإنكارِ اليومِ الآخر قال الله تعالى إخبارًا عنهم في سورة الكهف:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ الكهف

وتذكّر أننا نتكلمُ عن أصلِ الإيمان الذي هو فرضٌ على كلّ مكلفٍ، والإيمان يزيدُ بالطاعات وينقُصُ بالمعاصي، أما ما ورد عن رسولِ الله ﷺ من أحاديث تتكلم عن الإيمان مثل «**من غشنا فليس منا**» أو «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه**» أو «**لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه**» ومثل هذه الأحاديث المقصودُ منها الإيمانُ الكامل وليس أصلَ الإيمان، فلا يكفر المسلم بمجرد أنّه غشَّ في البيع أو قال فُحشًا أو قطعَ رحِمَه أو آذى جارَه وإنما معناه لا يصلُ المسلمُ إلى درجةِ الإيمانِ الكامل معَ فعلِه لتلكَ المعاصي فيكونُ مؤمنًا ناقصًا مالم يُكذِّب أو يُنكر أيَّ أصلٍ من أصول الإيمان أو الإسلام التي ذكرناها في أول الدرس.

والحمد لله رب العالمين

الدرس الرابع – معنى أشهد أن لا إله إلا الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد:

معنى أشهد أن لا إله إلا الله إجمالًا: **أعترف بلساني وأعتقد بقلبي أن لا معبود بحق إلا الله**، أي لا أحد يستحق أن يُتذلل له نهاية التذلل إلا الله، وهذه هي العبادة التي من صرفها لغير الله تعالى صار مشركًا، وليس معناها مجرد النداء أو الاستعانة أو الاستغاثة كما زعم بعض الناس، قال الإمام تقيُّ الدين السُبكيّ: «**العبادة أقصى غاية الخشوع والخضوع**».

اعلم أن النداء أو التوسل أو التبرك ليس عبادة لغير الله فالمسلمون يعتقدون أن النافع والضار على الحقيقة هو الله تعالى وأن الأنبياء أو الصالحين هم مُجرَّد أسباب خلقها الله تعالى ويُجري الخير على أيديهم، فمن اعتقد أن النبي أو الولي هو الذي يخلق الضُرَّ والنفع يكفر، أما من اعتقد أنهم سبب يُجري الله الخير على أيديهم أحياءَ كانوا أم أمواتًا فهذا اعتقادٌ صحيحٌ لا بأس به ودلت على ذلك الآثار.

وسيأتي تفصيل ذلك في درس العاشر (حكم التوسل والتبرك والاستغاثة في الإسلام) من هذا الكتاب.

ولفظ الجلالة الله: هو اسم عَلَم يدل على الذات المقدس وسنشرح في هذا الدرس صفات الله تعالى:

الله موجود

اعلَم رَحِمَك الله أنَّ الله تعالى مَوجُود أزَلًا وأبدًا فَلَيْسَ وجُودُه تَعالى بإيجاد موجِد. وقَد اسْتَنكَرَ بَعضُ النّاسِ قَولَ: (الله مَوجُودٌ) لِكَونِهِ علَى وَزْنِ مَفْعولٍ والجَوابُ أَنَّ مَفْعُولًا قَد يُطلَقُ علَى مَنْ لم يَقعْ علَيه فِعْلُ الغَيْرِ كَما نَقُولُ: الله مَعْبُودٌ. قال اللُّغويُّ الكَبِير شَارِحُ القَامُوسِ الزَّبيديُّ في شرح الإحْياءِ ما نَصُّه (والبَارِئ تَعالى مَوجودٌ فصَحَّ أن يُرَى)، وقال الفَيُّومِيُّ اللُّغَوِيُّ صَاحِبُ المِصْبَاحِ: الموجودُ خِلافُ المعدومِ.

الأصلُ الذي تُبنى عليه العقيدةُ الإسلاميةُ معرفةُ الله ومعرفةُ رسولِهِ، فمعرفةُ الله هو العلمُ بأنه تعالى موجودٌ،

فيجب اعتقادُ أنه تعالى موجودٌ في الأزلِ أي لا ابتداءَ لوجودِهِ، قال الله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إبراهيم [١٠]

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الحديد [٣]

أي هو الذي لا ابتداءَ لوجودِهِ، روى البخاريُّ في الصحيحِ والبيهقيُّ وأبو بكرِ بن الجارودِ عن عمرانَ بنِ الحُصينِ أن رسولَ الله ﷺ جاءَه قومٌ من أهلِ اليمنِ فقالوا: يا رسولَ الله جئناك لنَتَفَقَّهَ في الدينِ ولنسألَكَ عن بدءِ هذا الأمرِ ما كانَ، وفي لفظٍ «عن أولِ هذا الأمر»، قال:«كان الله ولم يكن شيءٌ غيرُهُ وكان عرشُهُ على الماءِ وكتَبَ في الذّكرِ كُلَّ شيءٍ». كانَ سؤالُهُم عن أولِ العالمِ ثم الرسولُ أجابَهُم بما هو أهَمُّ من ذلِك وهو قولهُ «كان الله ولم يكن شيءٌ غيرُهُ»

أي أن الله موجودٌ في الأزلِ لا ابتداءَ لوجودِهِ ولم يكن في الأزلِ معه شيءٌ أي لا زمانٌ ولا مكانٌ ولا أجرامٌ. وأتبَعَ ذلك جوابَهُم بأن الماءَ والعرشَ وُجِدا قبلَ غيرِهما من المخلوقاتِ فأعلمهُم أن الماء قبل العرشِ لأنه لما قال لهم «وكان عرشُهُ على الماءِ» أفهمَهُم أن الماءَ خُلق قبل العرشِ. وأما معرفةُ الرسولِ فهو العِلمُ بأنهُ مُبلِّغٌ عن الله صادقٌ فيما جاءَ به في الإيجابِ والتحريمِ والإخبارِ عمَّا مضى وعمَّا سيَحدُثُ في الدنيا والبرزخِ والآخرةِ، فمن جزَمَ بذلك بلا شكٍّ ولا ارتيابٍ فهو عارفٌ بالله ورسولِهِ ومؤمِنٌ بالله ورسولِهِ سواءٌ عرَفَ الدليلَ العقليّ على ذلك أو لم يَعرِف. ثم بعد معرفةِ وجودِ الله تعالى وتفردِه باستحقاقِ العبادةِ أي نهاية التذللِ يجبُ عليه معرفة بقيةِ الثلاث عَشرَةَ صفة من صفاتِ الله وهي: القِدَمُ، والبقاءُ، والمخالفةُ للحوادثِ، وقيامُهُ بنفسِهِ، والوحدانيَّةُ، والحياةُ، والقدرةُ، والإرادةُ، والعلمُ، والسمعُ، والبصرُ، والكلامُ.

والدليلُ الإجماليُّ لهذه الصفات هو أن يقالَ: لو لم يكُن الله تعالى متصفًا بهذه الصفاتِ لم يكنِ العالمُ موجودًا، فهذا الاستدلالُ الإجماليُّ كافٍ للاستدلالِ الواجبِ. وأما الأدلةُ التفصيليَّةُ فمعرفتها ليست من فروضِ العينِ بل هي من فروضِ الكفاية، وذلك لأنَّه يُحتاجُ إلى ذلك لردّ شُبَهِ الملاحِدَةِ والمبتدِعَةِ في الاعتقادِ. فلو جاءَ مُلحدٌ وقال للمسلمينَ أعطوني دليلًا عقليًّا على وجودِ الله تعالى فلا بد أن يكون في المسلمين من يَدْحَضُ شُبَهَهُ وتشكيكاتَهُ بإيرادِ الأدلَّة التفصيلية من البراهينِ العقليةِ لأن هذا الملحدَ إذا قيل له قال الله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ ابراهيم [١٠]

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٢٠﴾ المائدة [١٢٠]

وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾ البقرة [٢٩]

وقال: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ الحديد [٣] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ العنكبوت [٦]

ونحو ذلك، قال الملحدُ أنا لا أؤمنُ بكتابِكُم، أنا لا أريدُ أن تذكرَ لي من كتابِكم شيئًا، فكيفَ تدفَعُ شُبَهَهُ وتشكيكاتِه؟ مثالٌ لذلك لو قال عابدُ الشمسِ: إن معبودي محسوسٌ ظاهرٌ نافعٌ للإنسانِ ولسائرِ الحيوانِ والنباتِ والماءِ والهواءِ كيف لا يكونُ ديني هذا حقًّا ونحنُ وأنتُم نعلم أنَّها موجودةٌ وهي محسوسةٌ بحاسةِ البصرِ، فكيف تقولون إنَّ دينيَ هذا باطلٌ، فإن هذا إن

قيل له (قال تعالى) يقول أنا لا أؤمنُ بكتابِكُم أُريدُ منكُم دليلًا عقليًّا، إن وجدتُم ذلك وأقمتُم لي فأنا أُسَلّم لكم وإلا فَكيفَ تطلبونَ مني أن أؤمنَ بدينكُم. فكيف تُقامُ على هذا الحجةُ؟

فهؤلاءِ الذين يظنونَ أن علمَ التوحيدِ لا يشتملُ على بيانِ البراهينِ العقليةِ والبراهينِ النقليةِ مع الحاجةِ الشديدةِ إلى ذلك، لا يستطيعونَ أن يُفحِموا هذا الكافرَ وإنما يستطيعُ إفحامَهُ السُّني الذي يُنَزّهُ اللهَ عن الكيفِ والحدّ والتحيُّزِ بالمكانِ والجهةِ، فيقول له: معبودُك هذا له حدٌّ وشكلٌ فيحتاجُ إلى من جعلَهُ على هذا الحدّ والشكلِ، والمعبودُ الحقُّ هو الموجودُ الذي ليس له حدٌّ ولا شكلٌ فلا يحتاجُ إلى غيرِه، أما معبودُك الذي هو الشمسُ فلا يصحُّ في العقلِ أن يكونَ هو أَوجَدَ نفسَهُ على هذا الحدّ وهذا الشكلِ، إنما الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ هو معبودُنا الذي هو موجودٌ لا كالموجوداتِ، فهنا ينقطع عابِدُ الشمسِ.

والقرآنُ أرشَدَ إلى الاستدلالِ العقليّ بعِدّةِ آياتٍ كقوله تعالى:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ الذاريات [٢١]

أي أنَّ في أنفُسِكُم دليلًا على وجودِ الله. وذكر لذلك بعضُ عُلماءِ العقيدَةِ مثالًا وهو أن يقالَ أنا كنتُ بعد أن لم أكن وما كان بعد أن لم يكُن فلا بدَّ له من مُكوِّنٍ فأنا لا بُدَّ لي من مُكوِّنٍ. ويُستنتَجُ من هذا القولِ أنّ ذلك المُكَوِّنَ لا يكون شبيهًا لي ولا لشيءٍ ما من الحادثاتِ (المخلوقات) التي هي مشارِكةٌ لي في الحدوثِ، وهذا المُكَوِّنُ هو الله.

ثم وقع في كلام بعض المُتأخرين من المتصوِّفَة ما لم يتكلم به أحد من السلف وهو قولهم بوحدة الوجود وأن الوجود واحد وهو وجود الحق تعالى، وهذه العبارة كفرٌ فلذا وجب الإعراض عن القول بها ولا يُتمسك بمن قالها لأنا مقتدون به ﷺ وبأصحابه، ولا يقال فلانٌ مُعتبَرٌ وقد تكلم بها، لأنا نقول لم نُؤمر بالاقتداء به وإنما أُمِرنا بالاقتداء بالسلف بعد رسول الله ﷺ، فالرجوع لما عليه السلف سلامة والخوضُ في قول غيرهم سببٌ للندامة. ثم هذا القول المذكور المعَبَّر عنه بوحدة الوجود أُريدَ به اتحاد الحق بالخلق وأنه لا شيء سواه ويقولون: الكل هو وأنا من أهوى ومَن أهوى أنا وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه. فهذا القول كفر وقد غلب أهلَهُ النصارى فإنهم خصّوا الحلول بعيسى وهؤلاء عمَّموا في كل شيء. دفع اللهُ شرَّهم عن الأمة وهداهم إلى الصراط المستقيم.

إذا فهمت ما تقرر لك من ذلك فاعلم أنه تعالى منزَّهٌ عن الحلول والاتحاد بشيء من الكون وأن الخالق تعالى مُخالف للخليقة.

الله الواحد:

معنى الواحد أنَّ الله لا شريك له في الألوهية ولا معبود بحقّ سواه، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ البقرة [١٦٣]. وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر: «**والله واحد لا من طريق العَدَد، ولكن من طريق أنه لا شريك له**».

الله الأحد:

قال بعض العلماء هو بمعنى الواحد، وقال بعضهم: الأحد هو الذي لا يقبل الانقسام، أي ليس جسمًا لأن الجسم يقبل الانقسام عقلًا، والله ليس جسمًا. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الإخلاص [١]

وقال تعالى في ذمّ الكفار: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ الزخرف [١٥]

وقال الإمام علي -رضي الله عنه- «**من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود**»، رواه أبو نعيم في حلية الأولياء. وقال -رضي الله عنه- «**سيرجع قوم من هذه الأمة عند اقتراب الساعة كفارًا ينكرون خالقهم فيصفونه بالجسم والأعضاء**» رواه ابن المعلم القرشي في نجم المهتدي ورجم المعتدي، وقال الإمام الشافعي -رضي الله عنه- «**المجُسِّم كافر**» رواه السيوطي في الأشباه والنظائر، وقال الإمام أبو فضل التميمي رئيس الحنابلة في بغداد «**و أنكر – أي الإمام أحمد – على من يقول بالجسم**» كتاب اعتقاد الإمام أحمد، وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتاب النوادر : «**من اعتقد أنَّ الله جسم فهو غير عارف بربه و إنه كافر به**». والأدلة على ذلك كثيرة جدًا بل وفيه إجماع أهل الحق قاطبةً وسأكتفي بالأدلة السابقة.

الله الأول والقديم:

معنى الأول الذي لا ابتداء لوجوده فهو وحده الأول بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡآخِرُ﴾ الحديد [٣]. وبمعناه القديم إذا أُطلق على الله تعالى، وأجمعت الأمة على جواز إطلاق القديم على الله، قال ذلك الزبيدي في شرح إحياء علوم الدين، ومعنى ذلك أن الله موجود قبل كل الموجودات وذلك من حديث رسول الله ﷺ «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» رواه البخاري، أي أن الله موجود في الأزل ولا شيء غيره لا أرض ولا إنس ولا جن ولا ملائكة ولا ظلام ولا نور ولا عرش ولا كرسي ولا زمان ولا مكان، والله لم يتغير عما كان، هو الذي يُغير في خلقه ما يشاء ولا يتغير عمّا كان، كان ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان.

الله الدائم :

معنى الدائم الذي لا يلحقه فناء، والفناء مستحيل عقلًا في حقّ الله، فلا دائم بهذا المعنى إلاّ الله، ولا شريك لله تعالى في الدّيمُومية لأن الله دائمٌ بذاته لا شيء غيره أوجبَ له ذلك، وأما دَيْمومية غيره كالجنة والنار فهي ليست ذاتية، بل هُما شاء الله لهما البقاء.

الله القيوم:

القيوم هو الدائم الذي لا يزول، وقال بعضهم: القيوم أي القائمُ بنفسه الذي لا يحتاج إلى غيره. أي الاستغناءُ عن كلّ شيءٍ، فالله تبارك وتعالى مستغنٍ عن كل شيءٍ ومحتاجٌ إليه كلُّ شيءٍ سِواهُ، فلا يحتاجُ إلى مُخصّصٍ له بالوجودِ لأنَّ الاحتياجَ إلى الغيرِ ينافي قِدَمَهُ، إذ الاحتياجُ للغيرِ علامةُ الحدوثِ والله تبارك وتعالى منزهٌ عن ذلك، وقد ثبتَ وجوبُ قِدَمِهِ وبقائِهِ فالله تبارك وتعالى لا ينتفعُ بطاعةِ الطَّائعينَ ولا يُضَرُّ بعصيانِ العصاةِ، وكلُّ شيءٍ سوى الله محتاجٌ إلى الله لا يَستغني عن الله طرفةَ عينٍ، قال الله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ آل عمران [٩٧]

الله القدير:

المتَّصفُ بالقدرة، وهي صفة أزليَّة أبديَّة يؤثر الله بها في الممكنات (المخلوقات) أي في كلِّ ما يجوز في العقل وجودُه وعدمُه، فقدرة الله لا تتعلق بالواجب الوجود ولا بالمستحيل الوجود، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ آل عمران [٢٩]

وهنا نُحذِّر من سؤالٍ كُفريّ يقوله الملحدون وبعض المشككين في وجود الله تعالى ونذكر كيفية الرد على مثل هذه الأسئلة بما يوافق النقل والعقل، بحيث لو قال لك أحدٌ من هؤلاء الضالين «هل يستطيع ربك أن يخلق مثله؟» الإجابة الصحيحة لا تكون بنعم أو لا، لأنه لو كان الرد «بنعم» لجاز على الله الشريك وهذا مستحيل، ولو كان الرد «لا» لجاز على الله العجز والعجزُ عنه مستحيل، ولكن الرد على هذا السؤال الكفري يكون كالتالي: **قدرة الله لا تتعلق بالواجب العقلي ولا بالمستحيل العقلي ولكن تتعلق بالممكنات العقلية التي يجوز في العقل وجودها تارة وعدمها تارة أخرى**، ففي السؤال السابق مستحيلٌ أن يكون هناك خالقين لهذا العالم ومستحيلٌ أيضًا أن يكون هناك إله مخلوق والآخر خالقًا إذ إن المخلوق لا يكون إلهًا أبدًا، فهذا عقلًا مستحيل.

وأيضًا إن قال لك أحد المشوشين في العقيدة «إن الله قادر على الظلم ولكن لا يَظلم» فهذا خطأ ولا يُقال ذلك، لأن تعريف «الظلم» عند علماء اللغة العربية هو «مُخالفةُ من له الأمر والنهي أو التصرفُ في مِلك الغير» والله سبحانه هو الآمر والناهي المطلق ولا أحد يُوجِبُ على الله شيئًا، وكل ما في العالم مِلكُه فيستحيل على الله أن يتصرف في مِلكٍ غير مِلكه، لذلك يستحيل على الله الظلم، ولا يُقال الله قادر على الظلم لأن الظلم في حق الله مُحال كما بيّنا، وقدرة الله لا تتعلق بالمستحيلات.

بيان أقسام حكم العقل الثلاثة:

أقسام حكم العقل لا مَحالة = هي **الوجوب** ثم **الاستحالة**

ثم **الجواز** ثالث الأقسام = فافهم مُنحت لذَّة الأفهام

الواجب العقلي: ما لا يُتصوّر في العقل عَدَمُهُ، وهو الله تعالى وصفاته.

المستحيل العقلي: ما لا يتصور في العقل وجوده، كوجودِ الشَّريك لله.

الجائز العقلي: ما يتصور في العقل وجوده تارة وعدمه تارة أخرى كسائر المخلوقات.

الله الفعّال لِما يريد

معنى الفعّالِ لما يريد أنّ الله قادرٌ على تكوين ما سبقت به إرادته، لا يُعجزه عن ذلك شيء، ولَا يمانعه أحد، ولا يحتاج إلى استعانة بغيره. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ البقرة [٢٥٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ هود [١٠٧]

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

معناها أنّ كلَّ ما أراد اللهُ وجودَه لا بدّ أن يوجد في الوقت الذي شاء اللهُ وجودَه فيه، سواء في ذلك الخيرُ والشر والطاعة والمعصية والكفر والإيمان. وما لم يُرِدْ اللهُ وجودَه لا يدخلُ في الوجود، فلا يوجدُ ولا يكون.

ومشيئة الله أزلية أبدية لا تتغير، وهذا اللفظُ مأخوذٌ عن رسول الله ﷺ، روى ذلك أبو داود في سننه أنه ﷺ علّم بعض بناته: «**ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن**».

والمشيئة هي: تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه دون بعض.

الدليل على أن الأمرَ غيرُ المشيئة:

الدَّليلُ على أن الأمرَ غيرُ المشيئة أنَّ اللهَ أمرَ سيدنا إبراهيم -عليهِ السلام- بالوحي المنامي أن يذبحَ ولده إسماعيل، ورُؤيا الأنبياءِ في المنام حَقٌّ ووحيٌ من الله، فهنا نقولُ أمرَ الله نبيهُ إبراهيم أن يذبحَ ولدهُ إسماعيل ولم يشأ لإسماعيلَ أن يُذبَح.

فَمِن هنا يُعلَمُ فسادُ قولُ بعض الناس: «كله بأمره» لأنَّ معنى قولِهم هذا كُلُّ ما يقعُ من العبادِ من خيرٍ أو شرٍّ فهو بأمرِ الله، والصّوابُ أن نقول كُلّ ما يحصُلُ بمشيئةِ الله وعِلمِهِ وتقديره. وأما قولُ الله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ الإسراء [١٦]

فقد فسَّرَ أهل العِلمِ قولَ اللهِ ﴿أَمَرْنَا﴾ في هذه الآية كثَّرْنا أي نُكَثِّرهُم فيصيروا أقوياء فيفسُقونَ ويكفرونَ ويخرُجونَ عن طاعةِ اللهِ فَيُهْلِكَهُم، هذا حصلَ في الأمَمِ الماضِيَةِ ظهرَ تأويلُهُ بقومِ لوطٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالِحٍ وغيرهم، أما بعدَ بِعثَةِ النبيّ محمدٍ ﷺ فإنَّهُ لا ينقَطِعُ الإسلامُ في أمَّتِهِ مهما حصلَ لا بُدَّ أن يوجَدَ صالِحونَ، اللهُ تعالى برحمَتِهِ مهما كَثُرَ الفسادُ يُثَبِّتُ الصالحينَ على الحقِ فلا يُنزِلُ هلاكًا عامًّا كهلاكِ أولئكَ الأمم السابقة وهذا من جُملَةِ ما أخبرَ عنه الرسول ﷺ وذلكَ لَمّا دعا ربَّهُ قائلًا «وسألتُهُ أن لا يُهلِكَ أمَّتي جُملَةً فأعطانيها».

ولزيادة إيضاح التفرقةِ بين الأمر والمشيئة نذكر النقاط الآتية:

١ شيءٌ أمر الله به ولم يشأه: الله تعالى أمر إبليس أن يسجد لآدم ولم يشأ الله تعالى حصول ذلك فلم يحصل.

٢ شيءٌ أمر الله به وشاءه: الله تعالى أمر الملائكة أن تسجد لآدم وشاء الله حصول ذلك فحصل.

٣ شيءٌ لم يأمر به الله ولم يشأه: الله تعالى لم يأمر الأنبياء بالكفر ولم يشأ حصول الكفر منهم فلم يحصل

٤ شيءٌ لم يأمر الله به وشاءه: الله تعالى لم يأمر بالكفر وشاء أن يحصل من بعض الخلق فحصل

وسيأتي تفصيل الإيمان بالقدر خيره وشره لاحقًا في درس معنى شهادة أن محمدًا رسولُ الله.

الله العالِم:

معنى العالِم أن الله موصوفٌ بعلم أزليّ أبديّ لا يتغير، فهو عالمٌ بكل شيء قبل حصوله، قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام [٥٩]

الله الخالق:

الذي أبدع وكوَّن جميع الحادثات، أي أبرزها من العدم إلى الوجود، فلا خلق بهذا المعنى إلاّ لله، قال الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فاطر [٣]،

أي لا خالق إلاّ الله، والخلق في اللغة تأتي على خمسة معانٍ وهي:

١ إبراز الأشياء من العدم إلى الوجود وهذه لا تكون إلا لله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الصافات [٩٦] معناه أن الله خالقُ العبادَ وأعمال العباد.

٢ التشكيل – قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ المائدة [١١٠] – أي تُشكّل لهم من الطين.

٣ الخلق بمعنى التدبير، قال الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المؤمنون [١٤] – أي تبارك الله أحسن المدبرين وفي تفسير القرطبي: تبارك الله أتقن الصانعين. والعبد يمكن أن يوصف بالتدبير أو بالصنع أمَّا تدبيرُ الله أزلي أبدي لا يشبه تدبيرَ المخلوقين، فليس معنى الآية أن هناك خالقين غيرُ الله يُبرزون الأشياء من العدم إلى الوجود، لأن هذا لا يكون إلا لله كما ذكرنا.

٤ افتراء الكذب – قال الله تعالى﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ العنكبوت [١٧]، أي تفترون الكذب.

٥ تسوية الخشب – إن قال قائل: خلقتُ الخشب كرسيًا معناه: سوّيتُه كرسيًّا وهذا المعنى خاصٌ بالخشب فقط.

وانتشر في هذا الزمان بعض المصطلحات الخاطئة التي يتداولها العوام وبعض وسائل الإعلام من غير علم والتي لا يصح إطلاقها، مثل(الفوضى الخلّاقة) فلا يقال ذلك لأن الخلّاق هو الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ يس [٨١]، والقول الصحيح (الفوضى المُفتعلة) أو (الفوضى المخلوقة)، و يقول البعض (خلق فرص عمل) والأفضل من هذا أن يُقال (توفير فرص عمل) وليس خلقًا، وأيضًا من الأخطاء الشنيعة قول البعض(فلان خلق جيلًا) والصحيح أن يُقال (فلان رَبَّى جيلًا).

الله الرزّاق:

الذي يوصل الأرزاق إلى عباده، والرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواءٌ كان من طريقٍ حلال أو من طريقٍ حرام فكله من عند الله، فكلاهما يُسمَّى رزقًا كما يُقال عن المال الحلال والمال الحرام مال، ولكن العبد مُطالبٌ بطلبِ الرزق الحلال واجتناب الرزق الحرام،

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ هود [٦].

لا حول ولا قوة إلاّ بالله:

لا حول عن معصية الله إلاّ بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلاّ بعون الله، جاء تفسير هذا الذِكْرُ في حديثٍ رواه أبو يَعلى بإسنادٍ حسن عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ، وقد ثبت أنّه ﷺ رَغَّب فيه.

الله تعالى موصوف بكلّ كمال يليق به:

قُيدت هذه العبارةُ بلفظ «يليق به» لأنّ الكمال إمَّا أن يكون كمالًا في حقّ الله وفي حقّ غيره كالعلم، وإمَّا أن يكون كمالًا في حقّ غيره وليس كمالًا في حقّه كالوصف برجاحة العقل، وقد يكون الوصفُ مدحًا لله تعالى وذمًا في حقّ الإنسان وذلك كالوصف بالجبّار هو مدحٌ في حقّ الله وذمٌّ في حقّ الإنسان، ومعنى الجبار إذا أُطلق على الله الذي لا تناله الأيدي ولا يقعُ في مِلكه غير ما أراد.

الله مُنزَّه عن النَّقائص:

الله تعالى مُتَّصفٌ بكل كمال في حقه، وهو منزَّه عن كل نقص أي ما لا يليق به تعالى كالجهل والعجز والمكان والحيّز واللون والحد.

يَجْدُرُ بنا هنا أن نَذْكُرَ بأن اللهَ تعالى هو خالقُ السمواتِ السبعِ وخالقُ الأماكنِ كلّها، وأنَّ اللهَ كان موجودًا قبلَ خلقِ الأماكنِ بلا هذه الأماكنِ كلّها، فلا يجوزُ أن يُعْتَقَدَ أنَّ اللهَ تعالى موجودٌ في مكانٍ أو في كلّ الأمكنةِ، أو أنهُ موجودٌ في السماءِ بذاتِهِ، أو متمكنٌ على العَرْشِ، أو حالٌّ في الفضاءِ، أو أنه قَرِيبٌ مِنّا أو بعيدٌ عَنا بالمسافةِ، تعالى اللهُ وتَنَزَّهَ عن ذلكَ.

قال الإمامُ عليٌّ -رضيَ اللهُ عنهُ-: «كانَ اللهُ ولا مكانَ وهو الآن على ما عليه كان». رواه أبو منصور البغداديُّ. وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ: «تعالى -يعني الله- عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات».

- ومعنى (تعالى): تنزه الله.
- عن الحدود: الحدّ هو الحجم فالله لا يوصف بأنه حجمٌ لا كبير ولا صغير.
- والغايات: النهايات وهذا من صفات الأجسام والله مُنَزَّهٌ عنها.
- والأركان: الجوانب وهذا أيضًا من صفات الخلق.
- والأعضاء: الأجزاء الكبيرة كالرأس واليد الجارحة والرِّجل فكل ذلك الله مُنَزَّهٌ عنه.
- والأدوات: الأجزاء الصغيرة كاللسان والأضراس والأسنان.
- ولا تحويهِ الجهاتُ الستُّ كسائرِ المبتَدعاتِ: والجهاتُ الستُّ هي فوقُ وتحتُ ويَمِينُ وشِمالُ وأمامُ وخلفُ.

وهذا تنزيه صريح صرَّح به إمامٌ من أئمة السلف أئمة أهل السنة والجماعة الإمام أبو جعفرٍ الطحاوي الذي كان أدرك جزءًا من القرن الرابع وعشرات من السنين من القرن الثالث الهجري، في عقيدته التي هي عقيدة أهل السنة أي الذين هم على ما عليه الرسول والجماعة أي الذين هم مع جمهور الأمة العاملين بحديث الرسول: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة». وبقوله: «فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» ويكون من خالف ذلك شاذًّا ومن شذ شذ في النار.

وقال الإمام علي -رضي الله عنه- «إن الله خلق العرش إظهارًا لقدرته ولم يتخذه مكانًا لذاته». ذكره الإمام أبو منصور البغدادي في كتاب الفَرْق بين الفِرَق بعد أن نقل الإجماع على تنزيه الله عن المكان والحدّ.

فالعرش المجيد لا مناسبةَ بينه وبين الله عزَّ وجلَّ إنما خلقه الله تعالى ليكون كالكعبة بالنسبة للملائكة الحافين حوله وهم أكثر خلق الله عددًا، هؤلاء يطوفون حول العرش ويتوجهون إليه كما أننا نحن المؤمنون من أهل الأرض نتوجه إلى الكعبة في صلاتنا ونطوف حولها ونعظمها ولا مناسبة بين الكعبة وبين الله عزَّ وجلَّ كما أنه لا مناسبة بين الله وبين العرش، وما أقبح قول المُشَبِّهة : إنَّ جِهَةَ فوق تليق بالله لأنها جهةٌ يتشرف بها الله حيث جعل هؤلاء المشبهةُ اللهَ عزَّ وجلَّ متشرفًا بشيء من خلقه، إذ الجهات كُلها من خلق الله تعالى، والله تعالى كان موجودًا قبل الجهات وقبل كل شيء فكيف يكون متشرفًا بشيء من خلقه، سبحانك هذا بهتان عظيم.

الله السميع البصير: -

قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى [١١]

فالله تعالى وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء وأنه سميعٌ بصير، نفى أولًا أن يكون مُشابهًا للحوادث (المخلوقات) بِوجهٍ من الوجوه، ثم وصف نفسه بأنَّه سميع بصير، فهذا يدل على أن سمع الله لا يشبه سمع المخلوقات وبصره لا يشبه بصر المخلوقات، وكذلك سائر صفات الله لا تشبه صفات خلقه، فالله تعالى يسمع كل المسموعات من غير حاجة إلى أذنٍ أو آلة أخرى، وهو سبحانه يرى كلّ المبصَرات من غير حاجة إلى حدقةٍ ولا إلى شعاعِ ضوء

الله الحي:

الحياةُ في حقّ الله تعالى صفةٌ أزليةٌ أبديةٌ ليست كحياةِ غيرِهِ بروحٍ ولحمٍ ودمٍ. والبرهانُ العقلي على كونِهِ تعالى حيًّا أنه لو لم يكن حيًّا لَمْ يتصف بالقدرةِ والإرادةِ والعلمِ، ولو كان الله تعالى غير متصفٍ بهذه الصفاتِ لكانَ متصفًا بالضّدِ وذلك نقصٌ والله منزهٌ عن النقصِ، ومما يدلُّ على وجوبِ حياتِهِ تعالى وجودُ هذا العالم، فلو لم يكن حيًّا لم يُوجَد شيءٌ من العالمِ، لكنّ وجودَ العالمِ ثابتٌ بالحِسّ والضرورةِ بلا شك، والبرهانُ النقليُّ على صفة الحياةِ لله تعالى آياتٌ عديدةٌ منها قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ البقرة [٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ الفرقان [٥٨].

الله المُتكلم:

اعْلَمْ أَنَّهُ ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ النَّقْلِيِّ وَالْعَقْلِيِّ صِفَةُ الْكَلَامِ للهِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ النساء [١٦٤]

وَفِي لُغَةِ الْعَرَبِ إِذَا أُكِّدَ الْفِعْلُ بِالْمَصْدَرِ أَفَادَ تَأْكِيدَ ثُبُوتِ ذَلِكَ، وَتَكْلِيمًا مَصْدَرُ كَلَّمَ لأَنَّ الْمَصْدَرَ هُوَ الَّذِي يأتي ثَالِثًا في تَصْرِيفِ الْفِعْلِ.

وَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى ثُبُوتِ الْكَلَامِ للهِ تعالى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا لَكَانَ أَبْكَمَ وَالْبَكَمُ نَقْصٌ وَالنَّقْصُ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللهِ.

وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى وَحْدَةِ كَلام اللهِ تعالى أَيْ أَنَّ كَلامَ اللهِ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ كَلامٌ وَاحِدٌ لَيْسَ حَرْفًا وَلا صَوْتًا وَلا لُغَةً وَلا مُبَعَّضًا، وَقَدْ قَالَ إِنَّ كَلامَ اللهِ وَاحِدٌ الإِمَامُ أَبُو عَلِيّ السَّكُونِيُّ الإِشْبِيلِيُّ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ وَحْدَةَ الْكَلامِ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابَيْنِ مِنْ كُتُبِهِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللهَ تعالى صِفَاتُهُ لا تُشْبِهُ صِفَاتِ خَلْقِهِ فَاللهُ مُتَكَلِّمٌ بِكَلامٍ لَيْسَ حَرْفًا وَلا صَوْتًا وَلا لُغَةً لأَنَّ الْكَلامَ الَّذِي يَكُونُ بِالْحَرْفِ والصَّوْتِ وَاللُّغَةِ مَخْلُوقٌ وَاللهُ لا يَتَّصِفُ بِحَادِثٍ، وَالدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الْحَرْفِ أَنَّ الْحَرْفَ يَدْخُلُهُ التَّعَاقُبُ وَهُوَ حُدُوثُ شَيْءٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ حَادِثًا وَعَدَمُهُ بَعْدَ حُدُوثِهِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي الْحُرُوفِ فَإِنَّ مَنْ نَطَقَ بِـ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» إِذَا نَطَقَ بِالسِّينِ انْتَفَتِ الْبَاءُ وَهَكَذَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ اللُّغَاتِ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً ثُمَّ صَارَتْ مَوْجُودَةً، وَالدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الصَّوْتِ أَنَّهُ يَكُونُ مِن اصْطِكَاكِ الأَجْرَامِ وَانْسِلالِ الْهَوَاءِ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِي كِتَابِهِ الْفِقْهُ الأَكْبَرُ «نَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِالآلاتِ وَالْحُرُوفِ وَاللهُ يَتَكَلَّمُ بِلا آلَةٍ وَلا حَرْفٍ» اهـ وَالآلاتُ هِيَ مَخَارِجُ الْحُرُوفِ كَالشَّفَتَيْنِ.

وَلا يَجُوزُ على اللهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ ثُمَّ يَسْكُتَ، فَالْكَلامُ الْقَائِمُ بِذَاتِ الله -أَيِ الثَّابِتُ لَهُ- لَيْسَ حَرْفًا وَصَوْتًا وَلُغَةً، هَذَا الْكَلامُ يَسْمَعُهُ الإِنْسُ وَالْجِنُّ فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَلامُ الَّذِي هُوَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ وَلُغَةٌ كَالْقُرْآنِ الَّذِي نَقْرَأُهُ بِالْحُرُوفِ وَالتَّوْرَاةِ الأَصْلِيَّةِ وَالإِنْجِيلِ الأَصْلِيِّ وَالزَّبُورِ الأَصْلِيِّ هَؤُلاءِ عِبَارَاتٌ عَنْ كَلامِ اللهِ تعالى لَيْسَتْ عَيْنَ الْكَلامِ الذَّاتِيِّ.

وَلِفَهْمِ هَذَا الْمَوْضُوعِ كَمَا يَنْبَغِي لا بُدَّ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ كَلامَ اللهِ لَهُ إِطْلاقَانِ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الصِّفَةُ الثَّابِتَةُ للهِ فَهُوَ كَلامٌ وَاحِدٌ وَهَذَا الْكَلامُ الْوَاحِدُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ وَخَبَرٌ وَاسْتِخْبَارٌ وَتَبْشِيرٌ وَهَذَا لَيْسَ كَكَلامِ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا الْكَلامُ الَّذِي سَمِعَهُ مُوسى -عَلَيْهِ السَّلامُ- حِينَ كَانَ فِي طُورِ سَيْنَاءَ وَذَلِكَ بِأَنْ أَزَالَ اللهُ عَنْ سَمْعِهِ الْحِجَابَ الْمَعْنَوِيَّ الْمَانِعَ مِنْ سَمَاعِ كَلامِ اللهِ فَسَمِعَ كَلامَ اللهِ الَّذِي لَيْسَ كَكَلامِ غَيْرِهِ، فَهَذَا الْكَلامُ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ مَوْجُودٌ دَائِمًا أَمَّا سَمَاعُ مُوسى فَحَادِثٌ (مخلوق).

وَيُطْلَقُ كَلامُ اللهِ عَلَى مَعْنَى اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَهَذَا اللَّفْظُ أَخَذَهُ جِبْرِيلُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَخَلَقَ اللهُ صَوْتًا بِحُرُوفِ هَذَا اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ سَمِعَهُ جِبْرِيلُ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ تَأْلِيفِ بَشَرٍ وَلا مِنْ تَصْنِيفِ مَلَكٍ، وَالدَّلِيلُ على أَنَّهُ يُطْلَقُ كَلامُ اللهِ عَلَى اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ التوبة [٦]

أَيِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الفتح [١٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكُفَّارَ يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ الأَلْفَاظِ الْمُنَزَّلَةِ لا صفة الله.

مِنْ حَيْثُ أَصْلُ اللُّغَةِ كَلِمَةُ «قُرْآن» مَصْدَرٌ مِنْ قَرَأَ يَقْرَأُ، وَمَعْنَاهُ: الْكَلامُ الْقَائِمُ بِالْمُتَكَلِّمِ. فَالْقُرآنُ بِحَسَبِ أَصْلِ اللُّغَةِ يَنْصَرِفُ إِلى كَلامِ اللهِ الذَّاتِيِّ، لِذَلِكَ قَالَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- «الْقُرْآنُ قَوْلُ اللهِ تعالى وَالْقَوْلُ صِفَةُ الْقَائِلِ وَالْقَائِلُ مَوْصُوفٌ بِهِ» اهـ

وَقَالَ الْفَيُّومِيُّ فِي الْمِصْبَاحِ «وَإِذَا أُطْلِقَ انْصَرَفَ شَرْعًا إِلَى الْمَعْنَى الْقَائِمِ بِالنَّفْسِ وَلُغَةً إِلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ لأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُقْرَأُ نَحْوُ كَتَبْتُ الْقُرْآنَ وَمَسِسْتُهُ» اهـ

فَعُلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ عِنْدَ الإِطْلاقِ يَنْصَرِفُ إِلى صِفَةِ اللهِ تعالى، وَصِفَاتُ اللهِ تعالى كُلُّهَا لا تُوصَفُ بِأَنَّهَا مَخْلُوقَة، لِذَلِكَ لَمْ يَرْضَ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنْ يُقَال «الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ»، بَلْ قَالُوا عِنْدَ الإِطْلاقِ لا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، لِذَلِكَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مَا رَضِيَ أَنْ يُطْلَقَ هَذَا اللَّفْظُ «الْقُرآنُ مَخْلُوقٌ» لأَنَّ الْقُرْآنَ بِحَسَبِ أَصْلِ اللُّغَةِ يَنْصَرِفُ إِلى كَلامِ اللهِ الذَّاتِيِّ، وَحَتَّى لا يُتَوَهَّمَ حُدُوثُ الصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِذَاتِ اللهِ.

أَمَّا عِنْدَ التَّقْيِيدِ فَيَجُوزُ، كَأَنْ يقال «الْقُرْآنُ بِمَعْنَى اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ مَخْلُوقٌ» فَهَذَا لا بَأْسَ بِهِ. وَالْحَقُّ أَنْ يُقَالَ كَلامُ اللهِ لَهُ إِطْلاقَانِ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَى الصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِذَاتِ اللهِ وَهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ أَزَلِيٌّ

لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلا صَوْتٍ وَلا لُغَةٍ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَعْنَى اللَّفْظِ الْمُنَزَّلِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ الَّذِي هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَمَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ وَمَتْلُوٌّ بِالأَلْسُنِ فَهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ حَادِثٌ مَخْلُوقٌ، وَلِتَقْرِيبِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِلَى الأَفْهَامِ قَالَ أَهْلُ الْحَقِّ إِنْ كَتَبَ كَاتِبٌ عَلَى لَوْحٍ حُرُوفَ لَفْظِ الْجَلالَةِ (الله) فَسَأَلَ سَائِلٌ مَا هَذَا؟ يَكُونُ الْجَوَابُ اللهُ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ الذَّاتَ الْمُقَدَّسَ حَلَّ فِي اللَّوْحِ إِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ عِبَارَةٌ عَنِ الذَّاتِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَالْعِبَارَةُ شَيْءٌ وَالْمُعَبَّرُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تبارَكَ وَتعالى أَخْبَرَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ بِكَلامِهِ تعالى الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ، كُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ وَمَا سَيَخْلُقُهُ، مَا أَوْجَدَهُ وَمَا سَيُوجِدُهُ، وُجُودُهُ بِكَلامِ اللهِ تعالى، هَذَا مَعْنَى ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس [٨٢]

مَعْنَى الآيَةِ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي أَرَادَ اللهُ وُجُودَهُ يَخْلُقُهُ بِكَلامِهِ الأَزَلِيِّ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ بِـ ﴿كُن﴾

لَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّهُ يَنْطِقُ بِالْكَافِ وَالنُّونِ، النُّطْقُ بِالْكَافِ وَالنُّونِ مِنْ صِفَاتِنَا، ثُمَّ الْقَوْلُ بِأَنَّ اللهَ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ بِالْكَافِ وَالنُّونِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ بَعْدَ النُّطْقِ بِالْكَافِ وَالنُّونِ وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ لأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْحُدُوثِ للهِ لأَنَّهُ جَعَلَ اللهَ نَاطِقًا وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، إِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّهُ يَخْلُقُ الأَشْيَاءَ الَّتِي أَرَادَ وُجُودَهَا بِالْكَلامِ الأَزَلِيِّ الَّذِي لَيْسَ حَرْفًا وَلا صَوْتًا، هَذَا مَعْنَى الآيَةِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس [٨٢].

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ بَعْضُ النَّاسِ (سُبْحَانَ مَنْ أَمْرُهُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّون) فَهُوَ كَلامٌ فَاسِدٌ، لا هُوَ قُرْآنٌ وَلا حَدِيثٌ وَلا هُوَ كَلامُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَبَيْنَهُمَا اخْتِلافٌ، الآيَةُ ظَاهِرُهَا -وَهُوَ لَيْسَ الْمَقْصُودَ- أَنَّهُ بَعْدَ كُنْ يَخْلُقُ الشَّيْءَ وَأَمَّا هَذَا الْقَوْلُ فَمَعْنَاهُ يُخْلَقُ الشَّيْءَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ وَهُوَ مُخْتَلِفٌ مَعَ ظَاهِرِ الآيَةِ. الآيَةُ تُقْرَأُ كَمَا جَاءَتْ وَلا تُفَسَّرُ عَلَى الظَّاهِرِ أَمَّا ذَلِكَ الْكَلامُ الَّذِي لا يُعْرَفُ مَصْدَرُهُ فَلا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ.

بَعْضُ الآياتِ الْقُرْآنِيَّةِ مَنْ يَحْمِلُهَا عَلى الظَّاهِرِ يَهْلِكُ.

اللهُ تعالى لِيَمْتَحِنَ عِبَادَهُ أَيْ لِيَبْتَلِيَهُمْ أَنْزَلَ آياتٍ مَنِ اعْتَقَدَ ظَاهِرَهَا ضَلَّ وَهَلَكَ، وَللهِ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ يُضِلُّ بِهِ بَعْضَ النَّاسِ وَيَهْدِي بِهِ بَعْضًا وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ البقرة [٢٦].

ومِنْ أَقْوَى الأَدِلَّةِ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَهْلِ الْحَقِّ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ عَلى أَنَّ كَلامَ اللهِ الَّذي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ لَيْسَ حَرْفًا وَلا صَوْتًا وَلا لُغَةً لَيْسَ كَكَلامِ الْعَالَمِين أَنَّ اللهَ تعالى هُوَ الَّذي يُحَاسِبُ عِبَادَهُ في الآخِرَةِ وَذَلِكَ بِأَنْ يُزِيلَ عَنْ أَسْمَاعِهِمُ الْحِجَابَ الْمَعْنَوِيَّ الْمَانِعَ مِنْ سَمَاعِ كَلامِهِ الْمَوْجُودِ أَزَلاً وَأَبَدًا وَيَسْمَعُ كُلُّ الإِنْسِ وَالْجِنِّ كَلامَ اللهِ فَيَفْهَمُونَ مِنْهُ السُّؤالَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِم وَأَقْوَالِهِم لِمَ فَعَلْتَ كَذَا لِمَ قُلْتَ كَذَا أَلَمْ أُعْطِكَ كَذَا وَيَفْرُغُ اللهُ مِنْ حِسَابِ الْعِبَادِ في وَقْتٍ قَصِيرٍ جِدًّا قَالَ اللهُ تعالى عَنْ نَفْسِهِ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ البقرة [٢٠٢]

وَقَالَ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ الأنعام [٦٢]

مَعْنَاهُ اللهُ أَسْرَعُ مِنْ كُلِّ حَاسِبٍ، فَلَوْ كانَ كَلامُ اللهِ حَرْفًا وَصَوْتًا وَلُغَةً لأَخَذَ الْحِسَابُ وَقْتًا طَوِيلاً جِدًّا وَلَكَانَ اللهُ أَبْطَأَ الْحَاسِبِينَ وَلَمْ يَكُنْ أَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ كَمَا قالَ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ لأَنَّ كَلامَ اللهِ حَقٌّ.

فَانْظُرْ يَا طَالِبَ الْحَقِّ لَوْ كَانَ حِسَابُ إِبْلِيسَ الَّذي خُلِقَ قَبْلَ آدَمَ وَسَيَعِيشُ إِلى يَوْمِ النَّفْخِ في الصُّورِ بِكَلامٍ هُوَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ وَلُغَةٌ كَمْ يَأْخذ ذَلِكَ مِنَ الْوَقْتِ وَقَدْ وَرَدَ في صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ «أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ -وَهُمْ كُفَّارٌ مِنْ بَنِي آدَمَ- الْبَشَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ كَوَاحِدٍ إِلى أَلْفٍ» وَأَنَّهُ يُوجَدُ خَلْفَهُمْ ثَلاثُ أُمَمٍ مَنْسَك وَتَاوِيل وَتَارِيس كُلُّ هَؤُلاءِ لَوْ كَانَ حِسَابُهُمْ بِالسُّؤالِ بِكَلامٍ هُوَ لُغَةٌ وَحُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ لأَخَذَ الْحِسَابُ زَمَانًا طَوِيلًا جِدًا وَلَكَانَ ذَلِكَ ضِدّ قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ البقرة [٢٠٢] الَّذي مَعْنَاهُ اللهُ أَسْرَعُ مِنْ كُلِّ حَاسِبٍ. وَالدَّلِيلُ عَلى أَنَّ كُلَّ الْعِبَادِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ في الآخِرَةِ لِلْحِسَابِ مَا جَاءَ في صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ وَلا حَاجِبٌ».

أَمَّا مَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ «ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فَلَيْسَ فِيهِ مُعَارَضَةٌ لِذلِكَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ لأَنَّ مَعْنَى «لا يُكَلِّمُهُمْ» هُنَا لا يَسْمَعُونَ كَلامًا يُفْرِحُهُم لا أَنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ بالمرَّة، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ التَّقِيَّ في الآخِرَةِ إِذَا سَمِعَ كَلامَ اللهِ يَفْرَحُ وَالْكَافِرَ يَغْتَمُّ وَيَحْزَنُ وَمَعْنى قَوْلِهِ ﷺ «وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» أَيْ لا يُكْرِمُهُم، فَاللهُ تعالى لَهُ صِفَةُ الْبَصَرِ بَصَرُهُ وَاحِدٌ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لَيْسَ بِآلَةٍ وَلَيْسَ كَبَصَرِ غَيْرِهِ يَرى بِبَصَرِهِ كُلَّ مَا يُرَى.

أَمَّا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ القيامة [١٦]

فَمَعْنَاهُ يَا مُحَمَّدُ لا تَقْرَأِ الْقُرْآنَ أَثْنَاءَ تِلاوَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْكَ خَشْيَةَ أَنْ يَنْفَلِتَ مِنْكَ نَحْنُ ضَمِنَّا لَكَ أَنْ لا يَنْفَلِتَ مِنْكَ فَإِذَا جَمَعْنَاهُ لَكَ في صَدْرِكَ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ القيامة [١٨] أَيْ فاعْمَلْ بِهِ، وَفَسَّرَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ القيامة [١٨] أَيْ فَإِذَا قَرَأَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْكَ بِأَمْرِنَا فَاتَّبِعْ قِرَاءَتَهُ، كَمَا في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ التحريم [١٢] أَيْ أَمَرْنَا الْمَلَكَ جِبْرِيلَ فَنَفَخَ في فَمِ مَرْيَمَ رُوحَ عِيسى بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ التكوير [١٩] فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ هُوَ مَقْرُوءُ جِبْرِيلَ لأَنَّ اللهَ لا يُسَمِّي رَسُولًا كَرِيمًا وَالدَّلِيلُ على أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ جِبْرِيلُ قَوْلُهُ تعالى بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ التكوير [٢٠] أَيْ جِبْرِيلُ قَوِيٌّ وَلَهُ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ عِنْدَ خَالِقِ الْعَرْشِ أَيِ الله ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ التكوير [٢١] أَيْ يُطِيعُهُ الْمَلائِكَةُ في السَّمَاوَاتِ فَهُوَ رَئِيسُهُم وَهُوَ رَسُولُ الْمَلائِكَةِ وَأَفْضَلُهُم.

فَتَبَيَّنَ لَكَ يا طَالِبَ الْحَقِّ أَنَّ كَلامَ اللهِ الَّذي هُوَ صِفَتُهُ لَيْسَ كَكَلامِ الْعَالَمِينَ إِنَّمَا هُوَ كَلامٌ وَاحِدٌ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ لا يُوصَفُ بِأَنَّهُ لُغَةٌ أَوْ حَرْفٌ أَوْ صَوْتٌ وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَسَائِرَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلى الأَنْبِيَاءِ هِيَ عِبَارَاتٌ عَنْ ذَلِكَ الْكَلامِ وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللهَ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا يَقْرَأُ الأُسْتَاذُ عَلى التِّلْمِيذِ إِنَّمَا الَّذي قَرَأَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ هُوَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِما السَّلامُ-، وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ عَنِ اللهِ نَاطِقٌ لأَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ إِنَّمَا يُقَالُ اللهُ مُتَكَلِّمٌ.

❤ اهل السنة ❤
هم الوسط بين فرقتين شاذتين المعتزلة والمشبهه

🔥 المعتزلة الذين ينفون صفة الكلام عن الله تعالى فيقولون الله خلق كلاما في الشجرة فسمعه موسى عليه السلام وخالفوا قوله تعالى : ((وكلم الله موسى تكليما))

🔥 والمشبهة القائلين بان الله يتكلم بالحرف والصوت فشبهوا الله بخلقه

❤ اما اهل السنة والجماعة على ان الله يتكلم بكلام لا يشبه كلامنا ليس بصوت وحرف ولغة ولا يبتدإ ولا يختتم وهذه هي العقيدة الحقة

الله مخالف للحوادث (غير مشابه):

والله سبحانه مُباين لجميع المخلوقات في الذات والصفات والأفعال: ومعنى «مُباين» أي غير مُشابه لجميع المخلوقات في الذات أي ذاته لا يشبه ذوات المخلوقات، والصفات أي صفاته لا تشبه صفات المخلوقات، والأفعال أي أفعاله لا تشبه أفعال المخلوقات لأن فعل الله تعالى أزليّ أبديّ والمفعول حادث، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ النحل [٦٠].

أي الوصفُ الذي لا يشبه وصف غيره، وقال الإمام أبو حنيفة -رضي الله عنه- والبخاري -رحمهما الله تعالى- : «**فِعله تعالى صفة له في الأزل والمفعول حادث**» لمّا ثبتت الأزلية لذات الله تعالى وجب أن تكون صفاته أزلية، لأن من كانت صفاته حادثة فذاته لا بُد أن يكون حادثًا، قال الإمام أبو حنيفة -رضي الله عنه- في الفقه الأبسط: «**فصفاته غير مخلوقةٍ ولا مُحدثة، والتغيروالاختلاف في الأحوال يحدث في المخلوقين، ومن قال إنها محدثة أو مخلوقة أو توقف فيها أو شك فيها فهو كافر**».

أسماء الله الحسنى

وأسماء الله الحسنى يقال لها صفات الله ويقال لها أسماء الله إلا لفظَ الجلالة، لفظ الجلالة لا يقال له صفة الله ثم إن أسماء الله تعالى قسمان: قسم لا يُسمى به غيره وقسم يسمى به غيره.

الله والإله والرحمٰن والقدوس والخالق والبارئ والرازق والرزاق ومالك الملك وذو الجلال والإكرام والمحيي والمميت لا يسمى بهذه الأسماء إلا الله. أما أكثر الأسماء فيسمى بها غير الله أيضًا، فيجوز أن يسمي الشخص ابنه رحيمًا وملِكًا وسلامًا ورؤوفًا وكريمًا ومؤمنًا ونحو ذلك.

وأسماء الله الحسنى التسعة والتسعون من حفظها وآمن بها وفهم معناها فالجنة مضمونة له قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة» رواه البخاري ومسلم.

ولله أسماء غير هذه المذكورة في حديث البخاري ومسلم ولكن ليس لها هذه الفضيلة التي هي للأسماء التسعة والتسعين، وأسماء الله الحسنى بأي لغة كتبت يجب احترامها.

تنويه: يقع في مؤلفات بعض العلماء قولهم «رب الأرباب»، يعنون بذلك أن الله هو مالك المُلّاك، وهذا صحيح ولقد ورد في صحيح مسلم ما نصه «باب تحريم التسمي بملِك الأملاك وبملِك الملوك» الرب، باللام، اسم من أسماء الله تعالى ولا يطلق لغير الله عز وجل ولا يقال في غيره إلا بالإضافة فيصح أن يقال فلان رب البيت وفلانة ربة الدار إذا كان المقصود منه صاحب البيت ومالكه، وأما «الرب» من دون إضافةٍ أو «رَبُّ العالمين» فلا يقال إلا لله.

الله سبحانَه وتعالى ذو الطَّول، بفتح الطاء، أي ذو الفضل «يا ذا الطَّول يا الله» معناه يا ذا الفضل يا الله ولا يقال «يا ذا الطُّول يا الله» بضم الطاء، لأن الطُّول بضم الطاء مقابل العَرْضِ والله لا يوصف بالطُّول كما لا يوصف بالعَرْضِ.

ورد في تَعداد أسماء الله الحسنى في غير الرواية المشهورة: الحنّان والمنّان، قولنا لله تعالى «يا حنّان» معناه أي يا ذا الرحمة، الله هو الحنّان أي هو الذي يرحم عباده. وقولنا لله تعالى «يا منّان» فمعناه يا ذا المَن أي يا ذا الإنعام فهو الذي يمُنُّ على عباده أي يُنعِم عليهم.

فائدة:

قال النبي ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس» رواه الإمام مسلم في صحيحه، قول رسول الله ﷺ «إن الله جميل يحِب الجمال» معناه الموصوف بالصفات الجميلة، أي قدرته كاملةٌ وعلمه كامل وإرادته شاملة كاملة وليس المراد أن له شكلًا جميلًا بل يكفُر من يظن ذلك وإنما معناه الموصوف بالصفات التي تدل على الكمال «يحب الجمال» أي يحب من عبده حُسْن الحال وحسْن الخُلُق، ويحب من عبده أيضًا نظافة البدن والثياب، الرسول يقول هذا من باب الوصف يصف الله بأنه جميل ولا يقول هذا من باب تسمية الله بالجميل فلا يقال إن الجميل اسمٌ من أسماء الله، فلا يصح أن يسمي الشخص ابنه عبد الجميل مثلًا، الجميل ليس اسمًا من أسماء الله حتى يصح أن يسمي الرجلُ مولودَه عبد الجميل.

التسمية بالقيوم لا تجوز إلا لله، القيوم معناه الدائم الذي لا يزول وقيل معناه القائم بتدبير خلقه لأن تدبير جميع الأشياء لا يكون إلا لله، وأما الملائكة الذين وصفهم الله بقوله:﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ ﴾ النازعات [٥] فإنما يدبرون في أمور خاصة كالمطر والريح والنبات وأشياء أخرى وليس في كل شيء.

ويجوز أن يقال: «يا عظيمَ الجاه يا الله» الجاه يضاف إلى الله تعالى على المعنى الذي يليق بالله وليس على المعنى الذي يكون للمخلوق، والشَّرَفُ أيضًا يضاف إلى الله على المعنى الذي يليق بالله وليس على المعنى الذي يكون للمخلوق، فالمؤمن إذا قال: «وشرفِ الله» فإنه يعني به: وعظمةِ الله، الشَّرَفُ معناه العظَمة فإذا قال قائل: «أقسم بشرف الله» فليس فيه ضرر لأن معنى شرَف الله عظمة الله أما في لغة أهل بعض البلاد فالشرَف من صفات المخلوق يفهمون منه معنى خاصًّا بالمخلوق فالذي يفهم من كلمة الشرف معنًى خاصًّا بالمخلوق ومع ذلك يقول: «وشرفِ الله» فقد كفر. لكنْ في لغة العرب إذا قيل: «شرفُ الله» فهو كلام صحيح معناه عظَمة الله هكذا هو في أصل اللغة ورد في مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم لك الشَّرَفُ على كل شرف ولك الحمد على كل حمد».

قال الإمام الأشعري «لا يجوز تسمية الله إلا بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة أو الإجماع» وهذا هو المعتمد لا يجوز عند الإمام أبي الحسن الأشعري تسمية الله إلا بما صح وروده شرعًا أي بما ورد في القرآن أو الحديث الصحيح أو بما أجمعت عليه الأمة، وأما بغير ما صح وروده شرعًا فلا يجوز عنده، لكن بعض أتباع أبي الحسن يقولون يجوز تسمية الله بالوصف ولو لم يكن واردًا بشرط أن لا يوهم النقص، فمثلًا يجوز عندهم تسمية الله ب «الطاهر» لأنه لا يوهم النقص «الطاهر» معناه المنزَّه عن الصفات التي لا تليق به فتسمية الأب ابنَه «عبد الطاهر» عندهم يجوز، وهذا فيما كان وصفًا لا فيما كان جامدًا من أسماء الأعيان كالروح، فإنه ممنوع بالاتفاق فإطلاق «الريشة المبدعة» على الله ممنوع بالاتفاق لأنه ليس وصفًا وكذلك إطلاق «القوة» على الله ممنوع أيضًا بالاتفاق لأنه ليس وصفًا فـ «الريشة» اسم من أسماء الأعيان أي الجمادات و«القوة» صفة وليست وصفًا أي ليست لفظًا من ألفاظ الوصف كالطاهر والناصر اللذَين هما على وزن فاعل.

لكن قول الإمام أبي الحسن الأشعري بأن أسماء الله تعالى توقيفية هو المعتمد ووافقه على ذلك الباقلاني وأبو منصور البغدادي، قال الإمام الباقلاني: «ما أطلق الله على نفسه أطلقناه عليه وما لم يطلقه على نفسه لا نطلقه عليه» وقال أبو منصور البغدادي: «لا مجال للقياس في أسماء الله وإنما يراعى فيها الشرع والتوقيف».

فإن قيل: كيف جاز إطلاق الموجود والواجب والقديم والصانع والأزلي ونحو ذلك على الله مما لم يرد به في الشرع نص؟

قلنا: اسم الصانع اشتهر على ألسنة المتكلمين في هذا العلم ولم يرد في الأسماء يقول الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ النمل [٨٨] وقد جاز إطلاق الصانع على الله بطريق الإجماع، وهو دليل شرعي ولعلَّهم أثبتوا هذا الاسم من حديث رسول الله ﷺ «إن الله يصنع كلَّ صانع وصنعتَه» ذكره ابن حجر في فتح الباري من حديث حذيفة مرفوعًا وقال: «هو حديث صحيح»، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «فإن الله صانعُ ما شاء»، قال الإمام أبو منصور البغدادي في كتابه تفسير الأسماء والصفات، وهو كتاب مخطوط ما نصه: «واستدل أصحابنا على أن الصانع لا يشبه شيئًا من خلقه».

ولقد ورد في تَعداد أسماء الله الحسنى لفظ «القديم» وإسناده لم يثبت لكن مع عدم ثبوت إسناد الحديث فقد أجمعت الأمة على جواز إطلاق القديم على الله ذكر ذلك الحافظ الزبيدي في شرح إحياء علوم الدين ويدل على ذلك أيضًا ما ورد من أنه ﷺ كان يقول إذا أراد دخول المسجد: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم» والحديث إسناده حسن فإذا ثبت جواز إطلاق القديم على سلطان الله تعالى جاز إطلاقه على الذات، وقولنا: «إن الله قديمٌ» معناه لا بداية لوجوده، معناه موجودٌ غيرُ مخلوق وليس المراد القِدَم الزماني لأن الله لا يجري عليه زمان.

واليُحذر من تسمية الله بالعلة الكبرى والسبب الأول والواسطة والمصدر والمنبع **فكل هذه التسميات إلحاد** لقوله تعالى ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الأعراف [١٨٠] قال النسفي في تفسيره: «ومن الإلحاد تسمية الله بالجوهر والجسم والعقل والعلة» قال ذلك عند شرحه لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف [١٨٠] وقال الإمام ركن الإسلام علي بن الحسين السُّغْدي: «من سَمَّى الله عِلَّة أو سببًا كفَر».

وأما ما زعمه بعض الجهال حديثًا قدسيًّا «كنت كنزًا مَخْفِيًّا فأردت أن أُعْرَف» فهو موضوع لا أصل له ذكر ذلك الحافظ الزركشي والحافظ العسقلاني والحافظ السيوطي ومُلّا علي القاري والعجلوني والسخاوي ومحمد الحوت، هؤلاء العلماء نصوا على أن هذا الحديث هو من جملة الأحاديث التي لا أصل لها وأن هذا الكلام المنسوب زورًا إلى الله عز وجل يذكره بعض مدعي التصوف تساهلًا منهم، ومعناه فاسد لا يصح، ولفظه موضوع فاسد فمن أراد به الاسم فقد كذّب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف [١٨٠]، و«كنز» اسم جماد، فكيف يتسمى الله به؟! ومن أراد به التشبيه فقد كفر أيضًا لأن الله لا يُشَبَّه بخلقه، و «مَخْفِيًا» اسم مفعول، أي غيره أخفاه والله هو المتصرف في العالم كما يريد ولا أحد يتصرف في الله وليس مقبولًا أن يُتكلَّف له معنى لأنه مخالف للنصوص القرآنية فهذا الكلام المنسوب إلى الله فيه كُفران: زَعْمُ الراوي أن الله يسمي نفسَه بأسماء الجمادات، والثاني زَعْمُ الراوي أن الله يقول بأن غيره أخفاه.

أيضًا لا يُسمَّى الله مسلمًا كما تلفظَ به بعضُ الجهالِ، الله تعالى لا يجوزُ أن يُسمَّى مسلمًا فليسَ من أسمائه تعالى مُسْلم بل اسمه السلامُ أي السالمُ من كلّ نقصٍ وعيبٍ. المسلم معناه المنقادُ، الله لا يَنقادُ بل يُنقادُ له، فلا يقال له مسلم.

فائدة: حكم الحلفِ بغيرِالله:

الله تبارك وتعالى يُقسمُ بما شاء من خلقه، وقد أقسم الله تعالى في القرآن الكريم ببعض مخلوقاته في عدة مواضع مثل قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ الشمس [١] وكذلك بالليل والنجم والتين والزيتون والقمر، وكل ما أقسمَ الله به فيه نفعٌ وفي ذلك إشارة إلى التفكر بمنافع ما أقسمَ به والاستدلالِ أن لهذه المخلوقات خالقًا حكيمًا فينبغي شكرهُ على هذه النعم.

أما نحن البشر فمنهيُّون عن أن نُقسِم بغير الله تعالى وصفاته وذلك لحديث النبيّ ﷺ «ألا إنّ اللهَ يَنهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كانَ حالفًا فليحلِف بالله أو ليصمُت» رواه البخاري ومسلم، وحكم الحلف بغير الله أنه إن لم يكن على معنى التعظيم كتعظيم الله فمكروه بل قالَ الإمامُ الشافعي: «أخشى أنّ يكونَ معصية». ولا تنعقد اليمين بالحلف بغير الله كالذي يَحلف بالكعبة أو بالنبيّ أو نحو ذلك، وقد نُقِلَ عن الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: أن الحلف بغير الله معصية وبعض العلماء ذهب إلى غير ذلك، إلا أنه لا ينبغي تكفير الشخص الحالف بغير الله تعالى لحديث «من حلفَ بغير الله فقد أشرك» بل الحديث معناه أن من عَظَّمَ غير الله كتعظيم الله فقد أشرك، أي كما كان أهلُ الجاهليةِ يعظمون الأصنام ويحلفون بها لتعظيمها. وشذت فرقةٌ فَكفَّرت كل من حلف بغير الله من غير تفصيل، وأغلبُ الناس يتلفظون بهذا لا على وجه تعظيم آبائهم وأولادهم كتعظيم الله تعالى، وقد سمع رسول الله ﷺ رجلًا حلف بغير الله فقال له: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقين» رواه أبو داود والنسائي.

والحمد لله ربِّ العالمين

الدرس الخامس – المحكم والمتشابه من القرآن والسنة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدىً ورحمة، فيه آيات متشابهاتٌ وأُخَرُ مُحكَمَات، فأنارَ به بصائر قومٍ وجعلَ قلوبَ قومٍ مُقْفَلة، فمن هداه الله فبفضلِه وفَّقَه، ومن أضلَّه الله فبعدْلِه خَذَلَه، سبحانه تَنَزَّهَ عن الظلم وما شاء فَعَلَ، وأصلي وأسلّمُ على سيدنا محمدٍ إمامِ البَرَرَة، وعلى آله الطيبين ومَن على الإيمانِ صَحِبَه، وأشهد أن لا إله إلا الله المعبودُ بحقٍّ وَحدَه، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبدهُ ورسولُه صلوات ربي عليه وعلى كل رسولٍ أرسَلَه.

أما بعد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ آل عمران [٧]

بَيَّنَ ربُّنا تبارك وتعالى أنّ القرآن فيه آيات مُحكمات وفيه آيات متشابهات، فأما المحكمات فهي التي دِلالتها على المراد واضحة، فلا تحتمل من التأويل بحسب وضع اللغة إلا وجهًا واحدًا أي معنىً واحدًا كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ الإخلاص [٤]

وقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ الشورى [١١]

وقد سمَّى الله تبارك وتعالى الآيات المُحكماتِ بأُمّ الكتاب أي أمّ القرآن لأنَّها الأصل الذي تُرَدُّ إليه الآيات المتشابهات، وأغلب آي القرآن مُحْكَم.

والمتشَابهُ على معنيين **الأول**: الذي أُريدَ بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ آل عمران [٧]

على قراءةِ الوَقفِ على لفظِ الجَلالةِ فهو ما كانَ مثلَ وجْبَةِ القيامةِ، وخروجِ الدجالِ على التّحديدِ، فلَيسَ مِن قَبيْلِ آيةِ الاستواءِ.

والمعنى الثاني: على قراءة الوصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ آل عمران [٧].

الآيات المتشابهات التي لم تتضح دِلالتها أي أنّ دلالتَها على المراد غيرَ واضحة وتحتمل بحسب وضع اللغة العربية أوْجهًا أي أكثر من معنى، ويُحتاج لمعرفة المعنى المرادِ منها إلى نِظرِ أهل النظرِ والفهمِ الذين لهم دِرايةٌ بالنصوص الشرعية ومعانيها ولهم دِرايةٌ بلغة العرب فلا تخفى عليهم المعاني، إذ ليس لكل إنسانٍ يقرأ القرآن أن يفسّرَهُ، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل[٤٣]

إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل[٤٣]

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ طه [٥]

فإن كلمة استوى في لغة العرب تحتمل خمسة عشر معنىً، فاحتيج إلى نظر العلماء لمعرفة المراد منها في هذه الآية.

ولأهل السنة في تأويل المتشابه مسلكان كلٌّ منهما صحيح، مسلكُ أكثرِ السلف وهم أهل القرون الثلاثةِ الأولى فإنهم يؤولون المتشابهات تأويلًا إجماليًا بِرَدّها إلى الآيات المحكمات وذلك بالإيمان بها واعتقادِ أنَّ لها معنىً يليق بجلال الله وعظمته بلا تعيينِ معنىً ولا يفسرونها على الظاهر المتبادِر منها، فإذا سمعوا الآية

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾

قالوا أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف (ومعنى بلا كيف : أي بلا هيئة وصورة) وردُّوها إلى الآية المُحكمة كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعَلِموا أنّ المعنى الظاهرَ أي المتبادِرَ إلى الذهن من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ وهو الاستقرار أو الجلوس ليس مرادًا ولا هو معنى الآية لكونه من صفات المخلوقات فهو مخالفٌ للآية المحكمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فأوَّلُوْهَا تأويلًا إجماليًّا

فقالوا: استوى استواءً يليق به ليس جلوسًا ولا استقرارًا ولا يُشْبِهُ أيةَ صفة من صفات المخلوقين وذلك كما قال الإمام الشافعي -رضي الله عنه- : «آمنت بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله» اهـ يعني -رضي الله عنه- لا على ما قد تذهب إليه الأوهام والظنون من المعاني الحِسيَّة والجِسميَّة التي لا تجوز في حق الله.

روى الحافظ الزبيدي بسنده إلى الحسن عن أمه عن أم سلمة -رضي الله عنها- في قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به إيمان والجحود به كفر. اهـ

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وأخرج أبو القاسم اللالِكَائي في كتاب السنة من طريق الحسن البصري عن أمه عن أم سَلَمَة أنها قالت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإقرار به إيمان والجحود به كفر.

ومن طريق رَبيعة بن أبي عبد الرحمن أنه سُئل كيف استوى على العرش؟ فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول وعلى الله الرسالة وعلى رسوله البلاغ وعلينا التسليم. اهـ

وأخرج البيهقي بسند جيدٍ عن عبد الله بن وهب: قال كُنَّا عند مالك فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك فأخذته الرُّحَضَاء ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوع وما أراك إلا صاحب بدعة أخرجوه. اهـ

وقال الحافظ ابن حجر ومن طريق يحيى بن يحيى عن مالك نحو المنقول عن أم سلمة: «والكيف غير معقول» لكن قال فيه: «والإقرار به واجب والسؤال عنه بدعة». اهـ

وكذلك أخرج الإمام أحمد الرفاعي في كتابه البرهان المُؤيَّد عن مالك رواية والكيف غير معقول.

ومعنى الكيف غير معقول: أي مستحيل على الله الكيف، والكيْف هو كل ما كان من صفات المخلوقين ولم يقل أحد من السلف الصالح بالكيْف في حق الله ولم يقل أحد منهم بأن هناك كيفًا في حق الله ولكن مجهول كما جاء في رواية مكذوبة على الإمام مالك -رضي الله عنه- أنه قال «والكيف مجهول» فهذه الروايةُ مكذوبة إذ لو كانت صحيحة على زعم البعض وأن الإمام مالك قال «والكيف مجهول» فلماذا إذن غضب الإمام مالك عندما سُئل عن الكيف؟! وإلا لقال له الكيف مجهول من غير أن يأمر بطرده، ولكن الإمام مالكًا غَضِبَ لأن الرجل سأل عن الكيف والكيف في حق الله مستحيل، ولم يقل أحدٌ من السلف أيضًا إن الله جالس على العرش، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا، بل السلف الصالح حكموا بالكفر على كل من اعتقد أنَّ الله جسم جالس على العرش وأن ذلك من عقائد اليهود.

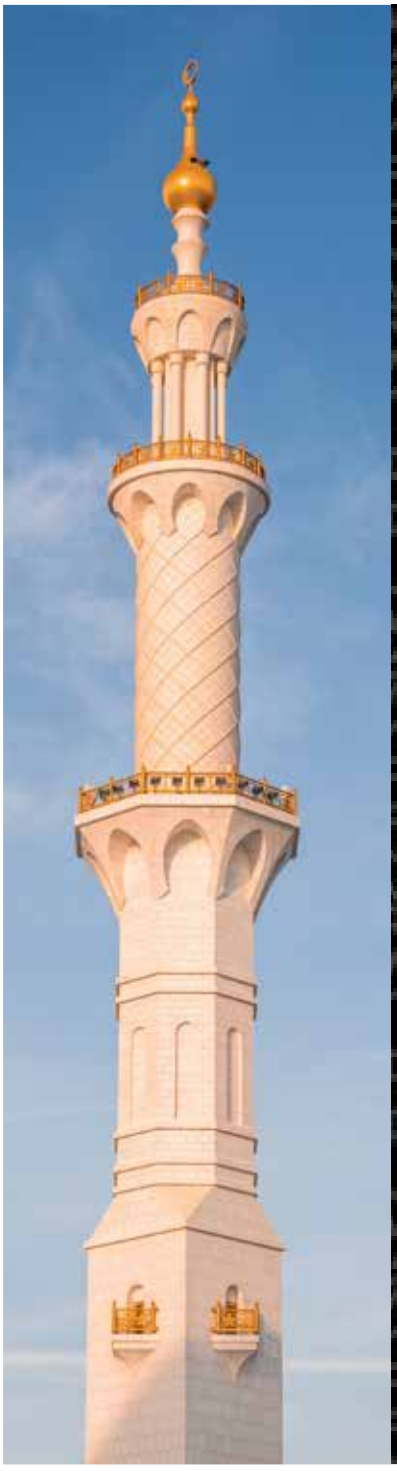

والمسلك الثاني مَسْلَك الخلف فهم يؤوّلون آية الاستواء تفصيلًا بتعيينِ معانٍ لها مما تقتضيه لغةُ العرب ولا يحملونها على ظاهرها أيضًا موافقين للسلف في ذلك، فالسلف والخلف متفقان على عدم حَمْلِ آية الاستواء على الظاهر، قال السلف أي أكثرهم «استوى بلا كيف» أي استواءً يليق بجلال الله وعظمته لا على المعنى الذي يكون من صفات المخلوقات أي لا على معنى الجلوس أو الاستقرار أو علوَّ المكان، وأما أهل المسلك الثاني فقالوا استوى أي «قَهَرَ» وحفظ وأبقى لكون قَهَرَ من معاني استوى في لغة العرب ولكون هذا المعنى موافقًا للآية المحكمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ولقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الأنعام [٦١]

ومعنى قوله تعالى:﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية الغلبة والسلطان لا فوقية المكان والجهة حيث إن الفوقية يمكن أن تأتي بمعنى علو المكانة وتأتي بمعنى فوقية المكان والجهة، وذلك من قول الله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ آل عمران [٥٥]، فوقية المَكَانَة لا فوقية المكان والجهة.

ونحن أهل السنة والجماعة نختار المعنى الذي يليق بجلال الله ويوافق النص المحكم، قال الطحاوي «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر» والمكان والجهات من معاني البشر، وزعم بعض أهل الزيغ إنَّ التأويلَ ممنوعٌ وإنَّ السلف ما استعملوه وهذا كلام باطل ومردود، كيف وقد جاء في الصحيح عن سيد الكَوْنَيْنِ ﷺ أنه قَدَّمَ له ابنُ عباس وَضوءه (أي ماءَ الوُضوء) فقال ﷺ «مَنْ فَعَلَ هذا؟» فقال: قلت أنا يا رسول الله فقال: «اللهمّ فَقِّهْهُ في الدين وعَلِّمْهُ التأويل» اهـ ولو كان التأويل محظورًا مُطلقًا لكان هذا دُعاءً عليه لا له.

بل إنَّ مَنْعَ التأويلِ مطلقًا يُؤدي إلى ضَرْبِ القرآن بعضِهِ ببعض، فلو أخَذَ آخذٌ بظاهر الآية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد [٤]

فاعتقد أن الله مع كل واحدٍ بذاتِهِ أو اعتقد أن الله تعالى مَتحيّز في كل مكان وأخذ بظاهر الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾

فاعتقد أن الله جالسٌ على العرش لأدّى هذا إلى تناقض لأن معناه على الظاهر أن الله في جهة فوق على العرش وأنه مع كل واحد بذاته في كل الجهات ومنها جهة تحت في الأرض فيقعُ التناقض وحاشا أن يكون في القرآن تناقض فقد قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ النساء [٨٢]

أما لو رَدَّ هاتين الآيتين إلى الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فأَوَّلَ الاستواءَ بالقهر أو قال له معنى يليق بالله ونفى عن الله المكان والجلوس والاستقرار على العرش وأوَّلَ قولَهُ تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بالعلم أي أنه محيطٌ بكم عِلمًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ الطلاق [١٢]

لكان في ذلك سلامةٌ ونجاةٌ لكونه موافقًا للآية المحكمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وماذا يقول من يمنع التأويل في قوله تعالى إخبارًا عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ الصافات [٩٩]

وكان إبراهيم -عليه السلام- ذاهبًا إلى فلسطين، هل يقول بزعمه إنَّ الله يسكن فلسطين أم سيؤول هذه الآية ليوافق الآية المحكمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وغيرها من الآيات المحكمات ومُراد سيدنا إبراهيمَ بقوله إني ذاهب إلى ربي أي إلى حيث أمرني ربي.

فيا أخي المسلم إن سمعت أو قرأت آية في القرآن ظاهرُها مخالف للآيات المحكمات فلا تَتَسرَّعَنَّ إن لم تكن سمعتَ تفسيرها ممن هو أهل لذلك وقُلْ لها معنى يليق بالله ورُدَّها إلى الآيات المحكمات ولا تأخذْ بظاهرها الذي قد يتبادر معناه إلى ذهنك ممَّا يُوهِمُ تشبيهَ الله بخلقهِ، ورضي الله عن السيد أحمدَ الرفاعي الكبيرِ القائلِ «صونوا عقائدَكُمْ مِنَ التمسُّكِ بظاهر ما تشابه مِن القرآن والسنة فإن ذلك مِن أصول الكفر» اهـ

وهنا سأنقل لكم بعض الآيات المتشابهة وتفسيرها بطريقة سؤال وجواب:

س ١: ما معنى قوله تعالى:﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فاطر [١٠]؟

ج ١: قَوْلُه تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾، أيْ أَنَّ الكَلِمَ الطَّيّبَ يَصْعَدُ إلى مَحلِّ كَرَامَتِه وهُوَ السَّمَاءُ، فالسماءُ محلُّ كرامةِ الله أي المكان الذي هو مُشرَّفٌ عند الله، لأنها مسكنُ الملائكةِ، والعَمَلُ الصَّالِحُ يرفَعُه أي الكلمُ الطيبُ يرفَعُ العملَ الصالحَ وهذا دليل قبول العمل هَذَا مُنْطَبِقٌ ومُنْسَجِمٌ مَعَ الآيَةِ المُحكَمَةِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾.

س ٢: كيف يُردّ على من نفى التأويل التفصيلي عن السلف؟

ج٢: نفيُ التأويلِ التفصيلي عن السلفِ كما زعمَ بعضٌ مَردُودٌ بما في صَحيحِ البُخَاريّ في كِتابِ تَفْسير القُرآنِ وعِبارتُه هُناكَ: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ القصص [٨٨] «إلا مُلْكَهُ ويقال ما يُتقرب به إليه» اهـ فملكُ الله صفةٌ من صفاتِهِ الأزليةِ أي سلطانه ليس كالملكِ الذي يعطيهِ للمَخلوقينَ. وَفيهِ غَيرُ هَذَا المَوْضِعِ كتَأْوِيلِ الضَّحِكِ الوَارِدِ في الحَدِيثِ بالرَّحْمَةِ.

وصَحَّ أَيْضًا التَّأْويلُ التَّفصيليُّ عَن الإمام أحمَدَ وهُوَ منَ السَّلَفِ فَقد ثبَتَ عنْه أنَّه قالَ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ الفجر [٢٢] «إنما جَاءَتْ قُدْرتُه»، صَحَّحَ سَنَدَهُ الحافِظُ البَيْهَقيُّ الذي قالَ فِيهِ الحافِظُ صَلاحُ الدّينِ العَلائيُّ: «لَم يَأْتِ بَعْدَ البَيْهَقِيّ والدَّارَ قُطنِيّ مِثْلُهمَا ولا من يُقارِبُهُما». أما قولُ البيهقيّ ذلك ففي كتابِ «مَناقبِ أحمدَ»، وأمَّا قَولُ الحافِظِ أبي سَعيدٍ العَلائيّ في البَيهقيّ والدّارَقطنيّ فذلكَ في كِتَابِه «الوَشْيُ المُعْلَمُ»، وأَمَّا الحَافِظُ أَبو سَعِيدٍ فَهُو الذي يَقُولُ فِيه الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ: «شَيْخُ مَشَايخِنا» وكان من أهل القرن الثامن الهجري، وهُنَاكَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنَ العُلَماءِ ذَكَرُوا في تآلِيْفِهم أنَّ أحْمدَ أوَّلَ، مِنْهُمُ الحافِظُ عبدُ الرحمنِ بنُ الجَوزِيّ الذي هُو أحَدُ أسَاطِينِ المَذْهَبِ الحنبليّ لكَثْرةِ اطّلاعِهِ عَلى نُصُوصِ المذهَبِ وأحوالِ أحْمدَ.

س ٣: ما هو مسلك الخلف في تأويل الآيات المتشابهة؟

ج ٣: مَسْلَكُ الخَلَفِ: أن يُؤَوّلُوها تَفْصِيلًا بتَعْيِينِ مَعَانٍ لَهَا مِمّا تَقْتَضِيهِ لُغَةُ العَرَبِ وَلا يَحْمِلُوها علَى ظَوَاهِرِها أيْضًا كَالسَّلَفِ، ولا بَأْسَ بسُلُوكِهِ ولا سِيَّمَا عنْدَ الخَوفِ مِنْ تَزَلْزُلِ العَقِيْدةِ حِفْظًا منَ التّشبِيهِ،مثْلُ قَولِه تَعالى في تَوبيخِ إبْليسَ: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ سورة ص [٧٥]

فَيَجوزُ أن يُقَالَ المُرادُ باليَدَيْنِ العِنَايةُ والحفظ، وهذا مِصداق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ آل عمران [٥٩].

س ٤: ما معنى قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ وقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ ؟

ج ٤ : لِيُعْلَمْ أنَّ الله تَعالى خَالِقُ الرُّوح والجَسَدِ فَلَيسَ رُوحًا ولا جَسَدًا، ومَعَ ذلِكَ أضَافَ الله تَعَالى رُوحَ عِيسَى ﷺ إلى نَفْسِه على مَعْنى المِلْكِ والتَّشْرِيفِ لا للجُزْئِيَّةِ في قَولِه تَعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ الأنبياء [٩١]، وكذلكَ في حَقّ آدَمَ ﷺ قولُهُ تعَالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ الحجر [٢٩] فَمعنَى قَولِهِ تَعالَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ الأنبياء [٩١] أَمَرْنَا جِبْرِيلَ -عليهِ السّلامُ- أنْ يَنفُخَ في مَرْيمَ الرّوحَ التي هِي مِلْكٌ لَنا ومُشَرَّفَةٌ عِنْدَنَا، لأنَّ الأَرْواحَ قِسْمَانِ: أَرْوَاحٌ مُشَرَّفَةٌ، وَأَرْوَاحٌ خَبِيثَةٌ، وَأَرْوَاحُ الأَنْبِيَاءِ منَ القِسْمِ الأوَّلِ، فَإِضَافَةُ رُوحِ عِيسَى ورُوح آدَمَ إلى نَفْسِه إضَافَةُ مِلك وتَشْرِيفٍ، ويَكفُر من يَعتَقدُ أنَّ الله تعالى روحٌ، فالرّوحُ مخلوقةٌ تَنزَّهَ الله عن ذلِكَ.

س ٥: ما معنى قوله تعالى في الكعبة: ﴿بَيْتِيَ﴾ الحج [٢٦] ؟

ج ٥: قَولُه تَعَالى في الكَعْبةِ: ﴿بَيْتِيَ﴾ فَهِيَ إضَافَةُ مِلكٍ للتشريفِ لا إضَافَةُ صِفَةٍ أو مُلابَسَةٍ لاسْتِحَالَةِ المُلامَسَةِ أو المُماسَّةِ بَيْنَ اللهِ والكَعْبَةِ، وكذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ المؤمنون [١١٦]

ليسَ إلا للدلالةِ على أن اللهَ خالقُ العرشِ الذي هو أعظمُ المخلوقاتِ ليسَ لأن العرشَ له ملابَسَةٌ للهِ بالجلوسِ عليهِ أو بمحاذاتِهِ من غيرِ جلوسٍ، ليس المعنى أن اللهَ جالسٌ على عرشِهِ باتصالٍ وليس المعنى أن اللهَ محاذٍ للعرشِ بوجودِ فراغٍ بينَ اللهِ وبينَ العَرشِ إن قُدّرَ ذلكَ الفراغُ واسعًا أوقصيرًا كلُّ ذلكَ مستحيلٌ على اللهِ، وإنما مَزيّةُ العرشِ أنه كعبةُ الملائِكَةِ الحافينَ من حولِهِ كمَا أن الكعبةَ شُرفَت بطوافِ المؤمنينَ بها. ومن خواصّ العرشِ أنه لم يُعصَ اللهُ تعالى فيهِ، لأنَّ مَن حولَهُ كُلُّهم عبادٌ مُكْرمونَ لا يَعصونَ اللهَ طرفةَ عينٍ، ومن اعتقدَ أن اللهَ خلقَ العرشَ ليجلِسَ عليهِ فقد شَبَّهَ اللهَ بالملوكِ الذين يعملونَ الأسِرةَ الكبارَ ليجلسوا عليها ومن اعتقدَ هذا لم يَعرِف اللهَ، وهو كافرٌ به.

س ٦: كيف يُردّ على من قال: إذا قلتم الله موجود بلا مكان تكونون نفيتم وجوده؟

ج ٦: نردّ عليه بما قالَه القُشَيْرِيُّ: «والذي يَدْحَضُ شُبَهَهُم أَنْ يُقالَ لَهُم: قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ العَالَمَ أو المَكَانَ هَلْ كَانَ موجودًا أمْ لا؟ فَمِنْ ضَرُورَةِ العَقْلِ أنْ يَقُول بَلَى فَيَلْزَمُه لَوْ صَحَّ قَولُه لا يُعْلَمُ مَوجُودٌ إلا في مَكَانٍ أحَدُ أمْرَينِ: إمَّا أنْ يَقُولَ: المكانُ والعَرْشُ والعَالَمُ قَدِيمٌ، وإمَّا أَنْ يَقُولَ: الرَّبُّ تعالى مُحْدَثٌ، وهذا مآلُ الجَهَلةِ الحشوِيّةِ، لَيْسَ القَدِيمُ بالمُحْدَثِ والمُحْدَثُ بالقَدِيمِ». اهـ

س ٧: ما معنى «الله أكبر»؟

ج ٧: لا يُوصَفُ الله تَعَالى بالكِبَرِ حَجْمًا ولا بالصِّغَرِ، ولا بالطُّولِ ولا بالقِصَرِ، لأَنَّهُ مُخالِفٌ للحَوادِثِ، ويَجبُ طَرْدُ كُلّ فِكْرَةٍ عَن الأَذْهَانِ تُفْضِي إلى تَقْدِيرِ الله تَعالى وتَحدِيدِه. فقولنا «الله أكبر» معناه أكبر من كلّ كبيرٍ قدرًا ودرجة وقوّة وعلمًا لا امتدادًا، وهذا مُراد السّلف بقولهم في الآيات المتشابهة: «أمرّوها كما جاءت بلا كيفية» ليس معناه أنّ له كيفيّة ليست معلومةً لنا، **وليس مو افقًا للسلف** من يقول بناءً على ذلك استواء الله تعالى على العرش جلوسٌ ولكن لا نعلم كيفيّة ذلك الجلوس قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ الرعد [٨]

س ٨: ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور [٣٥]؟

ج ٨: قَوْلُه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النـــور[٣٥] مَعنَاهُ أنَّ الله تَعالى هَادِي أهْل السَّمواتِ والأَرْضِ لنُورِ الإيْمانِ، رَوَاهُ البَيهَقيُّ عن عَبدِ الله بنِ عبَّاسٍ -رَضِي الله عَنْهُما-، فَالله تعَالى ليْسَ نُورًا بمَعنى الضّوْءِ، بلْ هوَ الذي خَلَقَ النُّورَ، قَالَ تَعَالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ الأنعـام [١]، أي خَلقَ الظُّلماتِ والنورَ، فكيفَ يُمكِنُ أنْ يكُونَ نُورًا كَخَلْقِه؟! تَعالى الله عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيْرًا، وحُكْمُ من يَعتقِدُ أنَّ الله تعَالى نُورٌ أيْ ضَوءٌ التّكفيرُ قَطْعًا. وهُنَاكَ العَديدُ منَ العَقَائِدِ الكُفْريَّةِ كَاعْتِقادِ أنَّ الله تعَالى ذُو لَوْنٍ أو ذُو شَكْلٍ فليَحْذَرِ الإنسَانُ مِنْ ذَلِك جَهْدَهُ علَى أيّ حَالٍ.

س ٩: ما أصرح دليل في القرآن على أنّ الله ليس حجمًا كثيفًا ولا لطيفًا؟

ج ٩: هذه الآيةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ الأنعام [١]

أصرحُ دليلٍ على أن الله ليسَ حجمًا كثيفًا كالسموات والأرض وليس حجمًا لطيفًا كالظلماتِ والنور، فمن اعتقدَ أن الله حجمٌ كثيفٌ أو لطيفٌ فقد شبَّه الله بخلقهِ والآية شاهدةٌ على ذلكَ. أكثرُ المُشبهةِ يعتقدونَ أن الله حجمٌ كثيفٌ وبعضُهم يعتقدُ أنه حجمٌ لطيفٌ حيث قالوا إنه نورٌ يتلألأ، فهذه الآيةُ وحدَها تكفي للردِ على الفريقينِ.

ملاحظات

س ١٠: ما معنى قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾؟

ج ١٠: أي الملائكة الذين ينفذون أوامر الله وليس المقصود أن الله بذاته في السماء، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ الإسراء [٤٤] أي الملائكة.

قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الرحمن [٢٩] أي الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الفتح [٧] أي الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ التوبة [٢٦] أي الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الأنعام [٨] أي سيدنا جبريل خَسَف الأرض بقوم لوط.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأنعام [٣] مَعْنَاهَا اللهُ مَعْبُودٌ فِي السَّمواتِ وَفِي الأَرْضِ، فِي السمواتِ تعبُدُه الملائكةُ وفي الأرضِ يعبُدُه مُؤْمِنُو الإِنْسِ وَمُؤْمِنُو الجِنّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ الزخرف [٨٤] أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن «ويحتمل أن يكون المعنى: أأمنتم خالق من في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون» وهذا من باب حذف المضاف، قال الله تعالى إخبارًا عن إخوة يوسف: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ يوسف [٨٢]

معناه واسأل أهل القرية من باب حذف المضاف، وقال الحافظ العراقي «وخير ما فسَّرته بالوارد» أي خير ما يُفسَّر القرآن بالقرآن أو الحديث الثابت وخير ما يُفسِّر الحديثَ القرآنُ أو حديثٌ آخر وهذا طريق النجاة من الوقوع في تشبيه الله بخلقه أو الوقوع في نفي صفات الله تعالى.

س ١١: ما معنى حديث « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ »؟

ج ١١: هذا الحديث يُفسِّره حديث أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال «إن الله يُمهل حتى إذا مَضى شَطر الليل الأول أمر مناديًا فينادي إن ربكم يقول: هل من داعٍ فأستجيب له هل من سائلٍ فأعطيه هل من مستغفرٍ فأغفر له» رواه النسائي وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه تم ضبطه بضم الياء: (يُنزل ربنا)، أي يُنزل الله ملَكًا بأمره تعالى، وفسّر الحافظ حماد بن زيد حديث (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا) بقوله: نزوله إقباله. كما أن الإمام مالكًا قال في حديث النزول (نزول رحمة وليس نزول نقلة) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ،وذكر إمام الحرمين الجويني والذي توفي سنة ٤٧٨ هجرية في كتابه الشامل في أصول الدين ما نصّه: وقال المعنى بنزول الله نزول ملائكته المقرّبين الحافّين حول العرش. قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدنِي! قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟!، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ! يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمنِي! قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي! يَا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي! قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» رواه مسلم.

وهذه الأحاديث القدسية التي وَرَدَ بها المتشابه وتأويله كافية للردّ على أهل الأهواء الذين يُشبّهون الله بخلقه والعياذ بالله، فلولا أن التأويل ورد في هذه الأحاديث لقال الذين في قلوبهم زيغٌ أن الله يمرض ويجوع ويعطش وله أرجل يجري بها والعياذ بالله، ولو أنه لم يأت تأويلها في هذه الأحاديث لقلنا نحن أهل السنة والجماعة أن الله ليس كمثله شيء ويجب تأويل هذه الأحاديث بما يليق بحق الله.

أخي المسلم إن آخر ثلث الليل يتغير في بقاع الأرض ٢٤٠ مرة تقريبًا كل عشر دقائق إذ لو كان جسمًا على زعم المُجَسِّمة لكان الله يتقلص حتى تسعه الأرض نسأل الله السلامة وحسن الفَهم والختام.

س ١٢: ماذا يقول أهل العلم بحديث الجارية الذي فيه لفظ: «أين الله، فقالت الجارية: في السماء»؟

ج ١٢: وأما الحديث المعروف بحديث الجارية فقد قال فيه الإمام النووي في شرح صحيح مسلم الجزء الخامس كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة باب تحريم الكلام في الصَّلاة ونسخ ما كان من إباحته: «هذا الحديث من أحاديث الصّفات، وفيها مذهبان تقدَّم ذكرهما مرَّات في كتاب الإيمان: أحدهما: الإيمان به من غير خوضٍ في معناه، مع اعتقاد أنَّ الله ليس كمثله شيء، وتنزيهه عن سمات المخلوقات.

والثَّاني: تأويله بما يليق به. فمن قال بهذا قال: كان المراد امتحانها هل هي موحِّدة تقرُّ بأنَّ الخالق المدبِّر الفعَّال هو الله وحده، وهو الَّذي إذا دعاه الدَّاعي استقبل السَّماء، كما إذا صلَّى المصلِّي استقبل الكعبة، وليس ذلك لأنَّه منحصر في السَّماء، كما أنَّه ليس منحصرًا في جهة الكعبة، بل ذلك لأنَّ السَّماء قبلة الدَّاعين، كما أنَّ الكعبة قبلة المصلِّين، أو هي من عبدة الأوثان العابدين للأوثان الَّتي بين أيديهم، فلمَّا قالت: في السَّماء علم أنَّها موحِّدة وليست عابدة للأوثان. قال القاضي عياض: لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيههم ومحدِّثهم ومتكلِّمهم ونظَّارهم ومقلِّدهم أنَّ الظَّواهر الواردة بذكر الله في السَّماء كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ الملك [١٦] ونحوه ليست على ظاهرها بل مُتأوّلة عند جميعهم». اهـ

وقال الحافظ ابن الجوزي في دَفعِ شُبه التشبيه بعد رواية حديث معاوية بن الحكم: «قلت قد ثبت عند العلماء أن الله تعالى لا يحويه السماء والأرض ولا تضمه الأقطار وإنما عُرف بإشارتها تعظيم الخالق عندها». اهـ

وقال بعض العلماء إن الرواية الموافقة للأصول هي رواية مالكٍ وفيها أن الرسول ﷺ قال لها: (أتشهدين أن لا إله إلا الله قالت: «نعم» قال: «أتشهدين أني رسول الله» قالت: «نعم»). أخرجها إماما أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل ومالك بن أنس -رضي الله عنهما-.

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة واعلم عندما تتعرض لآياتٍ أو أحاديثَ ظاهرها يوهم تشبيه الله بخلقه فإنها ليست على ظاهرها كما قال القاضي عياض فإن وجِدَ ذلك ولم تعلم المعنى فقل كما قال الشافعي «آمنت بالله وبكل ما جاء عن الله على مراد الله وآمنت برسول الله وبكل ما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله» ثم تسأل أهل الذكر في معنى هذه النصوص.

والحمد لله ربِّ العالمين

ملاحظات

الدرس السادس – معنى شهادة أن محمدًا رسول الله

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد:

معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: أعترف بلساني وأُذعن بقلبي أن سيدنا محمدًا ﷺ مرسل من عند الله إلى كافة العالمين من إنس وجن، صادق في كل ما يبلغه عن الله تعالى ليؤمنوا بشريعته ويتبعوه، قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الفرقان [١].

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي ﷺ ، ولد بمكة في شهر ربيع الأول في عام الفيل، ونزل عليه الوحي بالنبوة وهو فيها وكان عمره أربعين سنة، وهاجر إلى المدينة بعد نزول الوحي بثلاث عشرة سنة، ومكث فيها عشر سنين، توفي بعدها ﷺ ودفن في المدينة المنورة في حجرة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، أي دفن حيث مات ﷺ، ويجب الاعتقاد أن النبي ﷺ صادقٌ في جميع ما أخبر به عن الله تعالى، سواءٌ كان من أخبار الأمم والأنبياء وبدء الخلق أو مما أخبر به مما يحدث في هذه الدنيا وفي الآخرة، أو من التحليل أو التحريم لبعض أفعال وأقوال العباد، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم [٣، ٤].

ومن جُملة ما أخبر به رسول الله ﷺ الآتي:

الإيمان بعذاب القبر: لذلك يجب الإيمان بعذاب القبر، فالكافر المُكلَّف الذي مات من غير توبة من كفره يعذب في قبره، فمن ذلك عَرْض النار عليه كل يوم مرتين، مرة أول النهار ومرة آخره، وتضييق القبر عليه حتى تختلف أضلاعه، وضرب الملكين منكر ونكير له بمطرقةٍ من حديد بين أذنيه، وغير ذلك من العذاب، وكذلك بعض عصاة المسلمين الذين ماتوا من غير توبة يعذبون في قبورهم عذابًا أقل من عذاب الكفار، فيصيبهم مثلًا ضغطة القبر والانزعاج من ظلمته ووحشته.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ غافر [٤٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما-، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إن كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القيامة» صحيح البخاري.

وقال ﷺ: «إن العبد إذا وُضِعَ في قبره وتَولَّى عنه أصحابه إنه ليسمع قَرْع نِعالهم إذا انصرفوا أتاه مَلكان فَيُقعِدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل مُحمَّد؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيُقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدَلَك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهُما جميعًا، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه، فيُقال لا دَريت ولا تَليت، ثم يُضرب بمطرقةٍ من حديد بين أذنيه فيصيح صيحةً يسمعها من يَليه إلا الثقلين» رواه البخاري ومسلم عن أنس عن النبي ﷺ.

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ ذكر فتّاني القبر فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: أتُرَدُّ علينا عقولنا يا رسول الله، قال: «نعم كهيئتكم اليوم»، والفتّان هو المتحِنُ منكرٌ ونكيرٌ سُمّيا بذلك لأنهما يمتحنان الناس.

الإيمان بنعيم القبر: يجب الإيمان بنعيم القبر فإن النبي ﷺ أخبر بذلك ومنه توسيع القبر سبعين ذراعًا في سبعين ذراعًا للمؤمن التقي ومن شاء الله له من غير الأتقياء كبعض الشهداء ممن نالوا الشهادة ولم يكونوا أتقياء، وتنويره بنور يُشبه نور القمر ليلة البدر، وغير ذلك كشم رائحة الجنة، قال ﷺ: «إذا قُبِرَ الميت أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يُقال لأحدهما مُنكَر، وللآخر نَكير فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ، فهو قائل ما كان يقول، فإن كان مؤمنًا قال : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقولان له إن كنّا لَنَعلم أنك لتقول ذلك، ثم يُفسح

له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا، ويُنَور له فيه، فيقال له : نم فينام كنوم العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» رواه ابن حبان.

وهذا النعيمُ المذكور هو للمؤمن القويّ وهو الذي يؤدي الفرائض ويجتنب المعاصيَ، وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «الدنيا سِجنُ المؤمن وسَنَتُهُ فإذا فارقَ الدنيا فارق السجن والسنة»، حديثٌ صحيحٌ أخرجهُ ابن حبان، يعني المؤمن الكامل.

«سجن المؤمن» أي بالنسبةِ لما يلقاهُ من النعيم في الآخرة الدنيا كالسجن، وقوله «وسَنَتُه» أي دار جوع وبلاء.

ثم إذا بَلِيَ الجسدُ كله ولم يبقَ إلا عَجْبُ الذنبِ يكون روح المؤمن التقي في الجنةِ وتكونُ أرواحُ عُصاة المسلمين أهل الكبائر الذين ماتوا بلا توبة بعد بلى الجسد فيما بين السماء والأرض، وبعضهم في السماء الأولى، وتكونُ أرواح الكفار بعد بلى الجسد في سِجِّين، وهو مكانٌ في الأرض السفلى.

«عَجْبُ الذنبِ» لا يَبلى ولو سُلِّطَ عليه نارٌ شديدةٌ، وهو عظمٌ صغيرٌ قدرُ حبةِ خردلةٍ، وقد ورد في الحديث الصحيح «منهُ خلقَ الإنسانُ وعليه يُركَّبُ» أي أن سائر العظام تُركَّبُ على هذا العظمِ الصغير، وأما الذين لا تبلى أجسادهم فهم الأنبياء وشهداء المعركة وبعض الأولياء، وأما الشهداء (شهداء المعركة) فتصعدُ أرواحهم فورًا إلى الجنة.

الإيمان بسؤال الملكين منكر ونكير:

يجب الإيمان بسؤال الملكين مُنكر ونَكير وهو يحصل للمؤمن والكافر من أمة الدعوة، ثم المؤمن الكامل لا يلحقه فَزَعٌ ولا انزعاجٌ من سؤالهما لأن الله يثبت قلبه فلا يَرتاع من منظرهما المخيف، لأنهما كما جاء في الحديث أسودان أزرقان، ويستثنى من السؤال الطفل والشهيد وكذلك النبي، والمراد بالطفل: من مات دون البلوغ، وبالشهيد شهيد المعركة.

الإيمان بالبعث: البَعْثُ حَقٌّ، وهوَ خُروجُ الموتَى من القُبورِ بعدَ إعادَةِ الجسَدِ الذي أكلَهُ التُّرابُ إن كانَ منَ الأجسَادِ التي يأْكلُها التُّرابُ وهي أجسَادُ غَيرِ الأَنْبياءِ وشُهداءِ المعركةِ وبَعضِ الأولياءِ لِمَا تواترَ مِن مُشَاهدَةِ بعضِ الأولياءِ. وأوَّلُ مَن يَنْشَقُّ عنهُ القَبرُ سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، وأهلُ مكّةَ والمدينةِ والطّائفِ من أوَّلِ من يُبْعَثُ، وإنّما قيلَ من أوَّل من يبعثُ لأنَّ الأنبياءَ هم أَوَّلُ مَن يُبعَثُ، والدليلُ على أن البعثَ حَقٌّ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ المؤمنون [١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ الحج [٧].

الإيمان بالحشر: والحَشْرُ حَقٌّ وهو سَوق من يخرج من القبور إلى الموقِف، أي أن يُجمَعُوا بعدَ البَعثِ إلى مكانٍ، ويكونُ على الأرْضِ المُبدَّلَةِ، وهي أرضٌ مُستَوِيةٌ كالجِلْدِ المَشْدُودِ لا جِبالَ فيها ولا وِدْيَانَ، أكْبَرُ وأَوْسَعُ منْ أَرضِنا هَذه، بَيضاءُ كالفِضّةِ.

بَرُّ الشَّامِ هي أرضُ المَحشَرِ والمَنشَرِ، يُحشَرُ يومَ القيامة إليها العبادُ، وأُمُّ بَرّ الشَّامِ فلسطينُ فهي الأصلُ لأنَّ الأنبياءَ أكثرُهُم كانوا في فلسطين، إبراهيمُ وابنُهُ إسحاقُ وابنُهُ يعقوبُ وابنُهُ يوسف كُلّهم قُبورُهم في فلسطين. **ويَكُونُ الحَشْرُ على ثلاثةِ أحْوالٍ:**

١. **قِسْمٌ طَاعِمُونَ كَاسُونَ رَاكِبُونَ على نُوْقٍ رحَائِلُها مِن ذَهَبٍ وهُم الأَتْقِياءُ.**
٢. **وقسمٌ حُفاةٌ عُراةٌ وهُم المسلمونَ من أهْلِ الكَبائرِ.**
٣. **وقِسمٌ يُحشَرُونَ ويُجَرُّونَ على وجُوهِهم وهمُ الكفّارُ.**

النّاسُ يومَ القيامَةِ في الحشرِ على هذهِ الأحوالِ الثلاثَةِ، ومن فَضلِ أمّةِ محمدٍ على من قَبلَها من الأمَمِ أنّهم أكثر أهلِ الجنةِ، فأهلُ الجنّةِ يومَ القيامَةِ مائةٌ وعشرونَ صفًّا، وأمّة محمّدٍ هم ثمانونَ صفًّا من المائة والعشرينَ صفًّا. والله تعالى حَرَّمَ دخولَ أيّ أمَّةٍ الجنّةَ قبل أمّةِ محمّدٍ، بعدَ أن يدخُلَ الرسولُ يدخل الأنبياءُ الجنَّة ثم تدخل أمّة محمّدٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ البقرة [٢٠٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ الإسراء [٩٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥﴾ التكوير [٥].

الإيمان بيوم القيامة: القيامة أولها من خروج الناس من قبورهم إلى استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ومقدار القيامة خمسون ألف سنة مما نعد، قال الله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ المعارج [٤].

الإيمان بالحساب: الحسَابُ حقٌّ، وهوَ عَرْضُ أعْمالِ العِبادِ علَيهم، ويكُونُ بتَكليم الله للعِبادِ جَميعِهم، فَيفهَمُونَ منْ كلامِ الله السُؤالَ عمَّا فَعَلُوا بالنّعَمِ التي أعْطاهُمُ الله إيَّاها، فيُسَرُّ المؤمِنُ التَّقيُّ، ولا يُسَرُّ الكَافرُ لأنّه لا حَسَنَة لهُ في الآخرةِ، بلْ يكادُ يَغشَاهُ المَوتُ، فقَد وَردَ في الحديثِ الصَّحيحِ «مَا مِنكم من أحَدٍ إلا سَيُكلّمُهُ رَبُّهُ يَومَ القِيامَةِ لَيسَ بَينَهُ وبَينَهُ تَرْجُمَانٌ» رواهُ أحمدُ والتّرمذيُّ.

ويكون بعد أخذهم كُتُبِهم، فأما المؤمن فيأخذ كتابه بيمينه، وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، وهذا الكتاب هو الكتاب الذي كتبه الملكان رقيب وعتيد في الدنيا.

الناسُ يومَ القيامَةِ تُعرَضُ عليهم أعمالهم، كلٌّ معهُ كتابهُ الذي كُتِبَ فيه ما عَمِلَ، ويسمعونَ كلامَ اللهِ الأزليّ الذي لا يُشبِهُ كلامَ العَالمين كما قال أبو حنيفةَ: «اللهُ يَتكلمُ بلا آلةٍ ولا حرفٍ»، فالكفّارُ لمَّا يسمعونَ كلام اللهِ يغلِبُ عليهم الخوفُ والانزعاجُ والخجلُ والتّضايقُ والقَلَقُ، وأمّا عصاةُ المسلمينَ فيكونونَ على حالَينِ قسمٌ منهم يصيبهم خوفٌ وانزعاجٌ وقسمٌ لا يُصيبهم ذلك، قال اللهُ تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ الانشقاق [٧-١٢]

الإيمان بالثواب والعذاب:

الثَّوابُ عِنْدَ أهْلِ الحَقّ ليسَ بحَقّ للطَّائِعينَ واجِبٍ على اللهِ، وإنَّما هُو فَضْلٌ مِنهُ. وهُو الجَزاءُ الذي يُجْزَى به المُؤْمِنُ مِمَّا يَسُرُّه في الآخِرَةِ. والعِقَابُ لا يَجبُ علَى اللهِ أيْضًا إيقَاعُه للعُصَاةِ، وإنَّما هوَ عدْلٌ مِنهُ، وهوَ ما يَسُوءُ العَبْدَ يَومَ القِيَامةِ، وهُوَ على قِسْمَينِ: أَكْبرَ وأصْغَرَ، فالعِقَابُ الأكْبرُ هوَ دُخولُ النّارِ والعِقابُ الأصْغَرُ ما سِوى ذلكَ كأذَى حَرّ الشَّمْسِ يَوْمَ القِيامَةِ فَإنَّها تُسَلَّطُ علَى الكُفَّارِ فيَغرَقُونَ حتّى يَصِلَ عَرَقُ أحَدِهم إلى فِيهِ ولا يتَجَاوزُ عَرقُ هذَا الشَّخْصِ إلى شَخصٍ آخرَ بل يَقْتصرُ عليه حتّى يقُولَ الكافِرُ من شِدَّةِ ما يُقاسِي منها: رَبّ أرِحْني ولَو إلى النَّارِ، ويَكونُ المؤمنُونَ الأتْقياءُ تلكَ السَّاعَةَ تحتَ ظِلّ العَرْشِ، وهذَا مَعنَى الحدِيثِ «سَبْعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظِلّهِ»، أي في ظِلّ عَرْشِه.

هذا الحديثُ رواهُ البخاريُّ وغيرُهُ، وتمامُ الحديثِ «إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادة اللهِ، ورجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ في المساجد ورجلانِ تحابَّا في اللهِ اجتَمَعَا عليهِ وافترقا عليهِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاهَا حتّى لا تَعلَمَ شمالُهُ ما تُنفِقُ يمينهُ، ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا فَفَاضَت عيناهُ»، ويلتحقُ بهم أناسٌ آخرونَ ذُكِروا في أحاديث أخرى صحيحة.

فائدة: شُهِرَ التعبير عن الحسابِ بالوقوفِ بين يدي الله ومعنى الوقوف بين يدي الله حسابُهم عند عرضِ أعمالِهم عليهم وليس المعنى أن الله تعالى يكون في موقفِ القيامةِ ويكون الناس حوله لأن الله تعالى ليس جسمًا يتحيزُ في مكانٍ، ليس متحيزًا في مكانٍ ولا جهةٍ ولا في الفراغِ ولا ضمن بناء ولا هو في هواءِ العرشِ ولا هو جالسٌ عليه لأن الجلوسَ والاستقرارَ من صفاتِ الخلقِ والله مُنزَّهٌ عن هذا كلهِ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى [١١]. وتلك الهيئة التي يتصورها بعض الناسِ من أن الله يكون ذلك اليوم في موقفِ القيامةِ والناس حوله يجتمعون للحسابِ هذه الهيئة لا تجوزُ على الله لأن هذه هيئة الملوكِ تحُفُّ بهم رعاياهم.

الإيمان بالميزان:

المِيْزانُ حَقٌّ، وهو كَمِيْزانِ الدُّنْيا لَهُ قَصَبَةٌ وعَمُودٌ وكفَّتانِ كَفَّةٌ للحسَنَاتِ وكَفَّةٌ للسَّيئاتِ تُوزَنُ بهِ الأعْمالُ يَومَ القيامةِ، والذي يتولَّى وزْنَها جِبْريلُ وميكَائيلُ، وما يُوزَنُ إنّما هوَ الصّحائِفُ التي كُتِب عليها الحسَناتُ والسَّيئاتُ، فَمن رجَحَتْ حَسَناتُه على سَيّئاتِه فَهُو مِنَ أهْلِ النَّجاةِ، ومَنْ تسَاوَتْ حسَناتُه وسيّئاتُه فهوَ مِن أهل النَّجاةِ أيضًا ولكِنَّهُ أقَلُّ رُتْبةً من الطَّبَقةِ الأُولَى وأَرفَعُ من الثَّالِثَةِ، ومنْ رَجَحَتْ سَيِّئاتُه على حسَناتِه فَهُو تَحتَ مَشيْئةِ الله إن شَاءَ عذَّبَهُ وإن شَاءَ غَفَرَ لَهُ. وأمَّا الكافِرُ فتَرْجَحُ كفَةُ سيِّئاتِه لا غيرَ لأنَّهُ لا حسَنَات لهُ في الآخِرةِ لأنَّه أُطْعِمَ بحسَناتِه في الدُّنْيا.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الأنبياء [٤٧]، وللأخبار الواردة في ذلك، والذين تَسَاوَت حسناتُهُم مع سَيّئاتِهم هُم مِن أهلِ النَّجَاةِ، لكنَّ هؤلاءِ يؤخَّرونَ برهةً عن دخولِ الجنّةِ ثمّ يدخلونَ، يكونونَ على الأعرَافِ على أَعلى سورِ الجَنَّةِ، الجنَّة لها سورٌ يُحيطُ بها وسورُهَا عريضٌ واسعٌ.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ الأعراف [٨-٩]

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ القارعة [٦- ٩]

الإيمان بالنار:

يجب الإيمان بالنار أي جهنم وبأنها مخلوقة الآن، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة [٢٤]، وهي أقوى وأشد نار خلقها الله، ومركزها تحت الأرض السابعة وقَد ذَكَرَ أبو عبدِ الله الحاكِمُ في كتابِهِ المستَدرَك على الصحيحَينِ أنه جَاءَت رواياتٌ صحيحةٌ في أنَّ جهنَّم تحتَ الأرضِ السَّابِعَةِ. وهي باقية إلى ما لا نهاية له.

النارُ حَقٌّ أي وجودُها ثابتٌ فيجبُ الإيمانُ بها وبأَنّها مخلوقةٌ الآنَ كما يُفهَمُ ذلك من النصوصِ الواردةِ كحديثِ «أُوقِدَ على النَّارِ ألفَ سنةٍ حتّى احمَرّت وألفَ سنةٍ حتّى ابيضَّت وألفَ سنةٍ حتَّى اسوَدَّت فهي سَودَاءُ مظلمةٌ» رواهُ التّرمذيُّ. وجهنّمُ ليست متَّصلةً بالأرضِ السابعةِ، بل تحتَها منفصلة عنها، لها أرضُهَا وسقفُهَا المستقلانِ.

ويَزِيْدُ الله في حَجْمِ الكَافِرِ في النّارِ لِيَزْدَادَ عَذَابًا حَتّى يكونَ ضِرْسُه كجبَلِ أُحُدٍ، ما بينَ مَنكبي الكافِرِ يومَ القيامَةِ مسيرة ثلاثةِ أيّامٍ، ولو كانت خِلقَتُهُم تكون كما هي في الدُّنيا لذابوا بِلَحظةٍ، وهوَ خَالِدٌ في النَّار أبدًا لا يَمُوتُ فِيْها ولا يَحْيا أي حَياةً فيها راحة، لَيْسَ لَهُم فِيها طَعامٌ إلا مِن ضَرِيْعٍ، وشَرابُهُم منَ الماءِ الحارّ المُتناهي الحرارةِ. الكفَّارُ يخلدونَ في النَّارِ أبدًا لا يخرجونَ منها كما ثَبَتَ ذلكَ في النصوصِ الشَّرعيّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ الأحـزاب [٦٤، ٦٥]

ولا يموتونَ في النَّارِ فيرتاحونَ من العذابِ ولا يَحيَونَ حياةً هنيئةً طيّبةً بل هم دائمًا في نَكَدٍ وعَذَابٍ، وهذا معنى قولِ الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ طـه [٧٤]، وقالَ ملاحدةُ المتصوفةِ: إن أهلَ النارِ يُعَوَّدونَ يتلذذونَ في النارِ حتى لو أُمروا بالخروجِ لا يَرضَونَ، وهذا رَدٌّ للنصوصِ الشرعيةِ وردُّ النصوصِ كُفرٌ.

وَطعامُهُم من ضريعٍ وهو شَجَرٌ كريهُ المنظرِ كريهُ الطَّعمِ كريهُ الرائِحَةِ، يوجَدُ في البلادِ الحارَّةِ شبيهُهُ، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ الغاشـية [٦، ٧]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ الدخان [٤٣-٤٦]

وهذه الشجرةُ منظرُهَا قبيحٌ جدًّا ورائحتُها كريهةٌ جدًّا لا تُطَاقُ لكن هم من شِدّةِ اضطرارِهِم ومن شِدّةِ جُوعِهِم وحِرمانِهِم كأنّهم يأكلونَهُ بدون اختيارٍ، ملائكةُ العذابِ يُطعمونهم من هذا،

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٦٦﴾ الصافات [٦٢-٦٦] وكذلكَ يأكُلُ أهلُ النَّارِ من الغِسلين قالَ تعالى:

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ الحاقة [٣٥-٣٧]، والغِسلينُ هو ما يَسيلُ من جلودِ أهلِ النَّارِ، لأنّه كُلَّما أَنضَجَت جلودَهُم النارُ يُكسونَ جُلودًا غيرَها فيها رطوبة.

وأمَّا شرابُ أهلِ النَّار فهو الماءُ المتناهي في الحرارةِ قال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ۝٢٥﴾ النبأ [٢٥]، والحميمُ هو الماءُ المتناهي في الحرارةِ، والغَسَّاقُ هو ما يسيلُ من جلودِ أهلِ النّارِ، ملائكةُ العذابِ يسقونَهم من هذا فَتَقَطَّعُ أمعاءَهُم، وثيابُ الكفَّارِ من نارٍ قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩﴾ الحج [١٩]،وقد خلقَ الله في جهنَّمَ لتعذيبِ الكفَّارِ حيّاتٍ، الحيّةُ الواحدَةُ كالوادي، وعقارب كالبغالِ.

الإيمان بالصراط:

الصّراطُ حَقٌّ، وهوَ جِسْرٌ عَريضٌ مَمدُودٌ علَى جَهنّمَ تَرِدُ عَليهِ الخلائِقُ، قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١﴾ مريم [٧١]،

فمِنهُم مَن يَرِدُه ورُوْدَ دخُولٍ وهمُ الكفّارُ وبَعضُ عُصَاةِ المُسْلِمينَ، أي يَزِلُّونَ مِنهُ إلى جَهنَّمَ،

ومنهُم من يَرِدُه ورُودَ مرُورٍ في هَوائِه، فمِن هؤلاءِ مَن يَمُرُّ كالبَرْقِ الخَاطِفِ، ومنهُم مَن يمُرُّ

كطَرفَةِ عَيْنٍ، وهوَ مَحمُولٌ على ظَاهرِه بغَيرِ تأويلٍ، وأحَدُ طرَفَيْهِ في الأَرضِ المُبَدَّلَةِ والآخَرُ فيْما يَلي الجَنّةَ، وقَد وَردَ في صِفَتِهِ أنّه «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ» وَممّا وَردَ أنَّه أحَدُّ مِن السَّيفِ وأدَقُّ من الشَّعرَة، كَما رَوى مُسلِمٌ عن أبِي سَعِيد الخُدْرِيّ «بلَغنِي أنَّهُ أدَقُّ مِنَ الشَّعْرةِ وأَحدُّ منَ السَّيفِ» ولم يرد مرفوعًا إلى رسول الله، ولَيسَ المُرادُ ظَاهِرَهُ بلْ هو عَريضٌ وإنَّما المرادُ بذلِكَ أنَّ خَطَرَهُ عظِيمٌ، فإنَّ يُسْرَ الجَوازِ علَيه وعُسْرَهُ علَى قَدْرِ الطَّاعَاتِ والمعَاصِي ولا يَعْلَمُ حُدُودَ ذلِكَ إلا الله، فقد وردَ في الصَّحِيحِ أنَّهُ تَجرِي بِهم أعْمالُهم، معناه أن أعمالَهم تصِيْرُ لهم قوّةَ السَّيْرِ.

الإيمان بالحوض : هو مكانٌ أعد الله فيه شرابًا لأهل الجنة يشربون منه قبل دخول الجنة فلا يصيبهم بعد ذلك ظمأ، ولكل نبي من أنبياء الله حوض تشرب منه أمته، وأكبر الأحواض هو حوض نبينا ﷺ، وعليه أكوابٌ بعدد نجوم السماء، وينصبّ فيه من ماء الجنة، ففي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق بعدد نجوم السماء» متفقٌ عليه. وروى البخاريُّ في صحيحهِ عن عبدِ الله بن عمرو قال: قال النبيُّ ﷺ: «حَوضي مَسيرة شَهرٍ، ماؤهُ أبيضُ من اللبنِ، وريحُهُ أطيبُ من المسكِ، وكيزانُهُ كنجومِ السماءِ، من شَرِبَ منه لا يظمأ أبدًا».

الإيمان بالشفاعة : هي طلب الخير من الغير للغير، والشفاعة تكون **للمسلمين فقط**، فالأنبياء يشفعون وكذلك العلماء العاملون والشهداء والملائكة، قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» رواه الحاكم وصححه، **فلا شفاعة للكفار يوم القيامة** قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ الأنبياء [٢٨].

الإيمان بالجنة: وهي مخلوقةٌ الآن، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ آل عمران [١٣٣]

وهي باقيةٌ إلى ما لا نهاية قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ النساء [١٣].

وأكثر أهلها من الفقراء، قال ﷺ: «دخلت الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ...» الحديث.

وقد أعد الله لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال ﷺ: قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخاري.

وهي فَوقَ السَّماءِ السَابِعةِ كما في الحديث الصحيح الذي رواه البيهقي وقال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ النجم [١٥] أي عند سدرة المنتهى ليسَت متّصِلةً بها، وسَقْفُها عَرشُ الرّحمنِ، وأهْلُها علَى صُورةِ أَبِيهم آدمَ سِتّونَ ذِراعًا طُولًا في سَبْعةِ أذرُعٍ عَرْضًا جمِيلُو الصُّورةِ، جُرْدٌ مُرْدٌ في عُمرِ ثَلاثةٍ وثَلاثِيْنَ عَامًا، خالِدُونَ فِيها لا يَخرجُونَ مِنها أبدًا، وقد صحَّ الحديث بأنّ أهْلَ الجنّةِ على صُورةِ أبِيهِم آدَمَ سِتّونَ ذِراعًا في السَّماءِ في سَبْعَةِ أذْرُعٍ عَرْضًا.

الجنّةُ لها ثمانيةُ أبوابٍ منها بابُ الرَّيان الذي يدخلُ منهُ الصَّائمونَ، وشهيدُ المعركَةِ يخيَّرُ من أيّ أبوابِ الجنّةِ شاءَ أن يدخُلَ، والجنّةُ فوقَ السّماءِ السّابعَةِ منفصلة عنها بمسافةٍ بعيدةٍ ولها أرضُهَا المستقلَّة وسقفُهَا عرشُ الرّحمنِ كما أخبرَ بذلكَ رسولُ الله ﷺ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ «إذا سألتُم الله الجنَّة فسلوهُ الفردوس فإنَّهُ أوسط الجنّةِ وأعلى الجنة وفوقه عرشُ الرَّحمن».

وأهلُ الجنّةِ حسانُ الوجوهِ فمن كانَ في الدنيا من المؤمنين دميمًا تَذهَبُ عنه دمامتُهُ، الله تعالى يجعلُهُ في الجنّةِ كجمالِ يوسفَ الصّدّيق، يعطيهِ شبهًا بيوسفَ الصدّيق في الجمالِ، والذي كان قصيرًا يذهَبُ عنه قصرُهُ، ويجعلُ الله تعالى في كلّ واحدٍ علامةً تميّزهُ عن غيرِهِ أنَّ هذا هو فلانٌ حتّى إن زارَهُ من كانَ يعرفهُ في الدّنيا يعرفهُ تلكَ الساعة، فإنَّ أهلَ الجنّةِ

يتزاورونَ وتزاورُهُم يحصُلُ إمّا بأن يطيرَ بالشخصِ سريرُهُ حتّى ينزلَ به أمامَ سرير الذي يريدُ زيارته فيجلسانِ متقابِلَينِ لأنّه من سهولةِ السيرِ هناكَ السّريرُ الذي عليهِ بمجرّدِ ما يشتاقُ الإنسانُ لصاحبِهِ الذي يريدُ رؤيتهُ يطيرُ به بقدرةِ الله تعالى حتّى ينزل بهِ أمامَ سريرِ ذلكَ الشخص فيتجالسانِ فيتحدّثانِ، ثمّ يطيرُ بهِ إذا أرادَ الرجوعَ إلى منزلِهِ وهذا هو معنى الآية ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الصافات [٤٤] وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ الغاشية [١٣]

قالَ ابن عبّاسٍ: ألواحُهَا من ذهبٍ مكلّلَة بالزَّبرجَدِ والدُّر والياقوتِ مرتفعةٌ ما لم يجئ أهلهَا، فإذا أرادَ أن يجلسَ عليها أصحابُهَا تواضَعَت لهم حتّى يجلسوا عليها، ثم ترتفِعُ إلى موضِعِهَا، وأحيانًا يركبونَ خيولًا من ياقوتٍ لها أجنحةٌ من ذهبٍ تطيرُ بهم.

وأهلُ الجنّةِ جردٌ مردٌ في عمرِ ثلاثةٍ وثلاثينَ عامًا، لا تنبتُ لهم لحيةٌ وليس على أذرعتِهم ولا على بطونِهم ولا على سيقانِهم شعرٌ إلا شعر الرّأسِ والحاجِبِ، طعامُهُم وشرابُهُم لا يتحوَّلُ إلى الغائِطِ والبولِ، إنّما يفيضُ من جِسمهم عرقًا كالمسكِ ليس كعرقِ الدنيا، عرقُ الدنيا يتولَّدُ منه الوَسَخُ والقَملُ.

وقد روى مسلمٌ من حديثِ أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أَنْ تَصِحُّوا فلا تَسقموا أَبدًا، وإنَّ لكم أنْ تَشِبُّوا فلا تَهرموا أبدًا، وإنَّ لكم أنْ تنعموا فلا تَبأسوا أبدًا»، وآخرُ من يدخل الجنةَ من المؤمنينَ له مثل الدنيا وعشرة أمثالِهَا وقد وردَ في ذلك حديثٌ صحيحٌ رواهُ البخاريُّ وغيرُه.

والواحدُ من أهلِ الجنّةِ أقلّ ما يكونُ عندَهُ من الولدانِ المخلَّدينَ عشرة آلافٍ، بإحدى يدي كلّ منهم صحيفة من ذهبٍ وبالأخرى صَحيفة مِن فِضَّةٍ قال الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ الزخرف [٧١]

الزخرف والأكوابُ جمعُ كوبٍ وهو إناءٌ مستديرٌ لا عروةَ لهُ أي لا أذنَ لَهُ. قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ الطور [٢٤]

أي يطوفُ للخدمَةِ غلمانٌ كأنّهم من الحُسنِ والبَيَاضِ لؤلؤٌ مكنونٌ أي لم تمسّهُ الأيدي وهؤلاء الغِلمان خلقٌ من خلقِ الله ليسوا بشرًا ولا جنًّا ولا ملائكة.

وقَالَ رسُولُ الله ﷺ في وَصْفِها: «هِيَ وربّ الكَعْبةِ نُورٌ يتلألأُ وريْحَانَةٌ تَهتَزُّ، وقَصرٌ مَشِيدٌ ونَهرٌ مُطَّرِدٌ، وفَاكهةٌ كثيرةٌ نَضِيجَةٌ، وزَوجةٌ حَسناءُ جَميلةٌ، وحُلَلٌ كثيرةٌ في مُقَامٍ أبَديّ في حُبْرَةٍ ونَضْرَةٍ» رواهُ ابنُ حبانَ.

في بداية الحديثِ يقولُ النَّبيُّ -عليه الصلاة والسلام- لأصحابِهِ «هل مُشمّرٌ للجنّةِ، فإنَّ الجنّةَ لا خَطَرَ لها»، أي لا مِثلَ لها، وقولُهُ -عليه الصلاة والسلام- «هي وربّ الكعبةِ» أي أقسمُ بربّ الكعبةِ على أنّها نورٌ يتلألأُ أي فلا تحتاجُ الجنّةُ إلى شمسٍ ولا قمرٍ، لا ظلامَ فيها هناكَ كما في الدنيا، لكنَّ مقدار اللّيلِ والنَّهارِ يُعرَفُ بعلامةٍ جعلها الله فيها، إذا كانت المرأةُ من نساءِ الجنّةِ كما نَعَتَهَا رسولُ الله وَوَصَفَهَا بحيثُ لو اطّلعَت على هذه الدنيا لأضاءَت ما بينَ المشرقِ والمغربِ فمن أين يكونُ فيها ظلامٌ، ولو كانت أعينُ أهل الجنّةِ بنسبةِ قُوَّتِها اليومَ لَعَمِيَ أهلُ الجنّةِ من عظمِ نورِ الجنّةِ، لكنَّ الله يعطيهم قوّةً أضعافًا مضاعفة إلى حدٍّ يعلمُهُ الله، الله أعطى أبصارَهُم قوّةً بحيثُ تستطيعُ أن تَرَى مسافَة ألف سنةٍ كأنَّها كَفٌّ، يرونها رؤيةً ليسَ فيها اشتباهٌ.

ووصفها بأنّها «ريحانةٌ تهتزُّ»، أي ذاتُ خضرةٍ كثيرةٍ يانعةٍ أي معجبةِ المنظرِ، وليسَ هناكَ مواسم للثّمارِ، بل في أيّ وقتٍ ما تشتهيهِ تجدهُ فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ الواقعة [٣٣].

فإذا كانَ المؤمنُ جالسًا أو مستلقيًا فاشتَهَى أن يأكلَ من شجرةٍ من أشجارِ الجنّةِ مالت إليه ليأخُذَ منها ما يريدُ ثمّ تعودُ كما كانت وقد أنبَتَ الله فيها بَدَلَ الذي أخذَ منها، ثمّ إنَّ كلّ شجرةٍ في الجنّةِ ساقُهَا من ذهبٍ، وأشجارُ الجنّةِ لمّا تتحرّكُ يصدُرُ لهَا صوتٌ جميلٌ جدًّا تميلُ إليه النفوسُ، وروى البخاريُّ أنّهُ يوجَدُ في الجنّةِ شجرةٌ اسمها طُوبَى يسيرُ الراكِبُ في ظِلّهَا مائة عامٍ لا يقطعهَا تتفتَّقُ بثيابِ أهلِ الجنّةِ أي يَخْرجُ منها ثيابٌ لأهلِ الجنةِ يلبسونها، فثيابهم منها الحريرُ والسُّندُسُ والاستبرقُ، ومجامرهُم الألوَّةُ أي العودُ وأمشاطُهُم الذهبُ، وكلامُ أهلِ الجنةِ عربيٌّ، يذكرونَ الله ويسبّحونَهُ ويقرأونَ القرآنَ أمَّا الصلاةُ فلم يرد لها ذكر.

وفي الحديثِ المارّ أنَّ الرسولَ ﷺ وصفَ الجنةَ بأنها قصرٌ مَشيدٌ أي فيها قصورٌ عاليةٌ مرتفعةٌ في الهواءِ، وقد صحَّ في الحديثِ أنَّ للمؤمنِ في الجنّةِ خيمةً من لؤلؤةٍ مجوّفة واحدةٍ طولهَا في السّماءِ سِتّونَ ميلًا. وفي الجنّةِ جنّتانِ آنيتهما وما فيهما من ذَهَبٍ، يسكنهما المقرّبونَ، وهناكَ أيضًا جنّتانِ من فضّةٍ آنيتهما وما فيهما، وقد وردَ في الحديثِ الصّحيحِ أنَّ الجنّةَ منها ما بناؤهُ لَبِن ذهب ولَبِن فضة، وهي كما قالَ رسولُ الله ﷺ «جنانٌ كثيرةٌ» رواه البخاري. وكذلك يوجد في الجنة غرفٌ يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها.

وقولُهُ -عليه السلام- في الحديثِ المارّ «نهرٌ مُطَّرِدٌ» أي أنهارٌ جاريةٌ، قالَ الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ محمد [١٥]

اللّبنُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به الحليبُ، والخمرُ الذي هناكَ لا يُسكِرُ ولا يُغَيّبُ العقلَ ولا يصدعُ الرّأس وليس مُرَّ الطَّعمِ، بل هو لذيذُ الطعمِ جدًّا، والعسلُ الذي هناكَ غير العسلِ الذي تُخرجهُ النحلُ.

وقولُهُ -عليه السلامُ- في الحديثِ المارّ: «وفاكهةٌ نضيجةٌ» أي أنَّ فيها من الفواكِهِ كلّ ما تشتهيهِ النَّفسُ، وكلّ ما فيها من الفواكِهِ نضيجٌ.

وفي الجنّةِ أيضًا طيورٌ وغَنَمٌ، وقد وَرَدَ عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «إنّك لتنظر إلى الطَّيرِ في الجنّةِ فتشتهيهِ فيخرّ بينَ يديكَ مشويًّا»، ثم بعدما يأكلهُ المؤمنُ يعيدهُ الله كما كانَ فيطيرُ. وقولهُ -عليه السلامُ- في الحديثِ المارّ «وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ» فقد وَرَدَ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ «لكلّ امرئ منهم زوجتانِ من الحورِ العينِ» وهذا الحديثُ صحيحٌ متّفقٌ عليهِ، ووردَ في الحديثِ الصّحيح أيضًا الذي رواه الضياء المقدسي في المختارة «أنَّ الرّجلَ من أهلِ الجنّةِ ليطوفُ في الغَدَاةِ الواحدةِ على مائةِ عَذرَاء». وجاءَ في الحديثِ الصّحيحِ أنّ الشّهيدَ له اثنتانِ وسبعونَ زوجةً، ثمّ سائرُ أهلِ الجنةِ على مراتبَ منهم من عندهُ مائة من النّساءِ، في الجنّةِ الله يُعطي الواحدَ من الرّجالِ قوّةَ مائةِ رجلٍ في الشهوةِ، وكذلكَ في الأكلِ والشُّربِ، ولا يصيبُ المؤمنَ فتورٌ عَقِبَ الجِماعِ ولا ينزلُ منه منيٌّ لأن الجنةَ ليسَ فيها ذلكَ، ولكن يحسُّ باللّذّةِ دونَ نزولِ المنيّ. وقد ثَبَتَ في الحديثِ أنّ نساءَ أهلِ الجنّةِ على رءوسهنَّ خُمرٌ، الدنيا وما فيها لا تساوي الخِمَار الذي يلبسنَهُ نساءُ أهل الجنّةِ، وهُنّ يلبسنَ الخِمَارَ تجمُّلًا زيادةً في الحُسنِ، والخمَارُ ما تُغَطّي النساءُ بهِ رءوسهنَّ، ونساءُ الجنّةِ أبكارٌ أي كلما أتى المؤمنُ زوجتَهُ وجدَها بكرًا، ثمَّ مع كثرةِ أزواجِ أهلِ الجنّةِ لا يحصُلُ بين نسائِهم تباغضٌ وغيرةٌ وتحاسُدٌ لأنَّ الله يطهّرُ قلوبَ أهلِ الجنةِ من ذلكَ، والمؤمنةُ التقيَّةُ من بناتِ آدمَ أفضلُ عندَ الله من الحُورِ العينِ مقامًا.

والحورُ العين نساءُ أهلِ الجنةِ من غير الإنسِ خُلقنَ خلقًا من غيرِ توالُدٍ إكرامًا للمؤمنينَ، والحورُ جَمعُ حَوْرَاء والعِينُ جَمعُ عَينَاء، والحورُ من الحَوَر وهو شدةُ بياضِ العينِ وشدةُ سوادِهَا، وأما العِينُ فمعناهُ واسعاتُ العيونِ، وقد قالَ الله تعالى في وصفهنّ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ الرحمن [٥٨]

وهنَّ خيراتٌ حِسانٌ أزواجُ قومٍ كرامٍ، والواحدةُ منهنَّ من شدَّةِ صفاءِ عَظمِهَا يُرَى مخُّ ساقِهَا من خلالِ الجِلدِ.

وليسَ في الجنَّةِ عَزبٌ ولا عَزبَةٌ بل كلُّهم يتزوَّجونَ قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنَّةِ أعزَب» رواه مسلم.

وقولُهُ -عليه السلامُ- في الحديثِ المذكورِ «في مقامٍ أبديّ» أي في حياةٍ دائمةٍ لا نهايةَ لها، وقولُهُ: «في حبرةٍ»، أي سرورٍ دائمٍ. وأمّا قوله: «نضرةٍ» فمعناهُ أنَّ وجوهَ أهلها ناضرةٌ أي جميلةٌ لأنّهم ليس عليهم فيها كآبةٌ. وليُعلَم أنَّ أعظمَ نعيمِ أهلِ الجنّةِ هو رؤيتُهم لله عزَّ وجلَّ، فليسَ شيءٌ أحبّ إلى أهلِ الجنةِ من رؤيةِ الله، يَرونَهُ بلا كيفٍ ولا مكانٍ ولا جهةٍ، الأولياءُ يرونَهُ كلّ يومٍ مرتينِ أمّا سائرُ المؤمنينَ ففي الأسبوعِ مرّةً.

وفي نهايةِ هذا الحديثِ قالَ الصّحابةُ لرسولِ الله: «نحنُ المُشمّرونَ يا رسولَ الله»، فقالَ: «قولوا إن شاءَ الله»، وذلك ليعلّمَهم التّفويضَ إلى الله في أمورِهم كُلّها، فهنيئًا لمنْ عَمِلَ لآخرتِهِ فإنَّ نعيمَ الدنيا بالنسبةِ لنعيمِ الآخرةِ كلا شيء، فقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما الدُّنيا في الآخرةِ إلا مثل ما يجعل أحدُكُم إصبعَهُ في اليَمّ فَليَنظُر بم يَرجِعُ» رواه مسلم، ومعناهُ هذا البللُ الذي يعلقُ بالإصبعِ ماذا يكونُ بالنّسبةِ لعظمِ البحرِ، وقد ثبتَ حديثُ «موضعُ سَوطِ أحدِكُم من الجنّةِ خيرٌ من الدنيا وما عليها» رواه البخاري. السَّوطُ هو الآلةُ التي تُستَعمَلُ للضربِ تكونُ غالبًا من الجِلدِ أي أن المساحةَ التي يأخذُهَا السوطُ إذا وُضِعَ على الأرضِ من الجنةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها.

ومن خصائصِ الرسولِ ﷺ أنه هوَ أولُ من يأخذُ بحلقَةِ بابِ الجنةِ يستفتِحُ فيقولُ المَلَكُ خازنُ الجنّةِ الموكَّلُ ببابِها: مَن؟ فيقولُ «محمّدٌ»، فيقولُ المَلَكُ: بكَ أُمِرتُ لا أفتحُ لأحدٍ قبلَكَ رواه مسلم.

وأمّةُ محمّدٍ فيهم سبعونَ ألفًا منهم وجوهُهم كالقمرِ ليلةَ البدرِ يدخلونَ الجنّةَ دفعةً واحدةً بلا حسابٍ ولا عقابٍ وهؤلاءِ هم الأولياءُ الصالحونَ من عباد الله، ويليهم أناسٌ وجوهُهُم كأشد كوكبٍ دُرّيّ مع كلّ ألفٍ من السبعينَ ألفًا سبعونَ ألفًا يدخلونَ الجنّةَ بلا حسابٍ ومعهم زيادة عليهم لا يَعلَمُ مقدارَهم إلا الله يدخلونَ الجنةَ أيضًا بلا حسابٍ، وأمةُ محمّدٍ خيرُ الأممِ وأكرَمُهُم على الله. ومن خصائصِ هذه الأمةِ ما وَرَدَ في الصحيحِ من قولِهِ -عليه السلامُ- «نحنُ الآخرونَ السّابقونَ» رواه البخاري، أي الآخرونَ وجودًا السّابقونَ دُخولًا الجنّة.

الإيمان برؤية الله تعالى بالعين في الآخرة:

يجب الإيمان بأن الله يُرى في الآخرة، يراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا كيف ولا مكان ولا جهة قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ القيامة [٢٢، ٢٣]

وقال ﷺ: « إنكم سترَون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تُضامون في رؤيته» رواه مسلم. فالنبي ﷺ شَبَّه رؤيتنا لله من حيث عدم الشك برؤية القمر ليلة البدر، ولم يُشَبِّه الله تعالى بالقمر، قال الإمام أبو حنيفة -رضي الله عنه- في الفقه الأكبر: «والله تعالى يُرى في الآخرة، يراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه ولا كيفية ولا كمية ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة».

وقال -رضي الله عنه- في كتابه «الوصية»: «ولقاء الله تعالى لأهل الجنة بلا كيف ولا تشبيه ولا جهة حق»، وفي كتاب «توضيح العقيدة» وهو مقرر السنة الرابعة الإعدادية بالمعاهد الأزهرية بمصر، ما نصه «فنراه تعالى منزَّهًا عن الجهة والمقابلة وسائر التكيفات، كما أنّا نؤمن ونعتقد أنه تعالى ليس في جهة ولا مقابلًا وليس جسمًا». اهـ

الإيمان بالملائكة:

يجب الإيمان بالملائكة أي بوجودهم وأنهم عباد مكرمون، ليسوا ذكورًا ولا إناثًا لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ التحريم [٦].

والذي يقول إن الملائكة إناثٌ يَكفُر والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾ النجم [٢٧]، وقد يتشكلون بصورة الرجال من غير آلة الذكورة.

الإيمان بالرُسل:

يجب الإيمان برسل الله أي أنبيائه من كان رسولًا ومن لم يكن رسولًا، وأولهم آدم -عليه السلام- وآخرهم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ البقرة [٢٨٥].

الإيمان بالروح:

يَجبُ الإيمانُ بالرُّوحِ وهي جِسْمٌ لَطِيفٌ لا يَعلَمُ حَقِيقَتَهُ إلا الله. الجسمُ إمّا أن يكونَ كثيفًا كالشجرِ والحجرِ والإنسانِ وإمَّا أن يكونَ لطيفًا كالهواءِ والجِن والملائكةِ والرُّوحِ، فالملائكةُ يستطيعونَ أن يدخلوا في جسمِ ابن آدم من غيرِ أن يشعُرَ ويحسَّ بهم، والجنيُّ كذلكَ يستطيعُ أن يدخُلَ في جسمِ الإنسانِ غير الأنبياء من غير أن يشعُرَ بهِ كالقرينِ الذي يُوسوِسُ للإنسانِ ليأمرهُ بالشَّر يدخل إلى صدرِ الإنسانِ من غير أن يشعُرَ به الشخصُ.

تنبيهٌ: لا يستطيعُ الشيطانُ ولو كان قرينًا أن يدخُلَ في جسمِ نبيّ، ومن اعتقَدَ ذلك كَفَرَ، وإنّما الشيطانُ يوسوسُ لهم من خارجٍ لكن لا يتسلَّطُ عليهم أي لا يتمكّنُ منهم، وكذلكَ ليسَ له سلطانٌ على الأولياءِ قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الحجر [٤٢].

فالرّوحُ من الأجسامِ اللّطيفَةِ وقد أخفَى الله عنَّا حقيقتَها قالَ الله تعالى لنبيّهم محمد ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء

فنتركُ الخَوضَ في البحثِ عن حقيقتِهَا لأنه أمرٌ لن نَصِلَ إليهِ.

وقَد أَجْرَى الله العَادَةَ أن تَسْتَمرَّ الحيَاةُ في أجْسَامِ الملائِكَةِ والإنسِ والجِنّ والبَهائمِ مَا دامَت تِلكَ الأجْسَامُ اللطيفَةُ مُجتَمِعةً معَها، وتُفَارِقَها إذَا فارَقَتْها تلكَ الأجْسَامُ، وهيَ حادِثةٌ (مخلوقة) لَيسَت قَديمَةً (أزليّة)، فَمن قالَ إنَّها قَدِيمةٌ ليسَت مخلُوقَةً فقَد كَفَرَ.

الأرواحُ حادثةٌ مخلوقةٌ ولكنّها باقيةٌ لا تَفنَى، وبعدَ أن خَلَقَ الله سيدَنا آدمَ -عليه السلام- أخرجَ من ظهرِهِ أرواح ذرّيتِهِ واستنطقَهم فاعترفوا كُلُّهم بألوهيّةِ الله، ثمّ بعدَ أن خرجوا من بطونِ أمّهاتِهم استمروا أيضًا على مُقتَضَى ذلكَ الاعتراف لكنَّ الله أنساهُم تلكَ المفاهيم؛ ذهبت عنهم المعلوماتُ التي كانت لهم، ثم بعدَ ذلكَ منهم من تَعَلَّمَ الإيمانَ ونَشَأَ عليهِ ومنهم من تَعَلَّمَ الكُفرَ ونشأَ عليهِ، فصارَ قسمٌ من العبادِ مؤمنينَ وقسمٌ منهم كافرينَ.

وكذلكَ مَن قالَ البَهائمُ لا أَرْواحَ لهَا فذَلِكَ تَكْذِيبٌ للقُرْآنِ وإنكارٌ للعِيان قَالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ التكوير [٥] ، وقال رسولُ الله ﷺ «لَتُؤَدَّنَّ الحُقوقُ إلى أهْلِها يَومَ القِيامةِ حَتّى يُقادَ لِلشَّاةِ الجَلْحاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ» رَواهُ مُسْلِمٌ.

معنى هذا الحديث أنَّ الله تعالى يأخُذُ الحقوقَ لأهلِها حتّى يُقادَ أي حتى يؤخَذَ حَقّ الجَلحَاءِ أي الشاة التي ليسَ لها قَرنٌ مِنَ القَرناءِ التي ضَرَبَتها في الدّنيا، القرناءُ معناهُ التي لها قَرنٌ، ولكن ليس معنى ذلكَ أن تؤخذَ القرناءُ التي ضَرَبت الأخرى إلى النّارِ كما يَحصُلُ لبني آدمَ، بنو آدمَ إذا ضَرَبَ أحدُهُم في الدنيا إنسانًا ظُلمًا يُقتَصُّ منهُ بنارِ جهنّمَ، أمّا البهائمُ فليست كذلكَ،

إنما هذه تضربُ هذه كما ضَرَبَتها في الدنيا ثمّ تموتُ ولا تدخل الجنّةَ ولا النَّارَ إنّما تعود ترابًا. وما يقال من أن ناقةَ صالحٍ تدخل الجنة وكذلك كلب أهل الكهفِ فلا أصل له، ويجبُ الكفُّ عن ذلك القول.

الفرق بين النبي غير الرسول والنبي الرسول:

النبي غير الرسول هو إنسان أوحي إليه لا بشرعٍ جديد، بل أوحي إليه باتباع شرع الرسول الذي قبله، والرسول من أوحي إليه بشرعٍ جديد، **وكلاهما مأمور بالتبليغ**، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ البقرة [٢١٣].

الإيمان بالكتب السماوية:

يجب الإيمان بالكتب السماوية المُنزَّلة على رسل الله، وهي كثيرة أشهرها: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وعدد الكتب السماوية مائة وأربعة كما نقل ذلك الشيخ شمس الدين الرملي في كتاب نهاية المحتاج في شرح المنهاج.

الإيمان بالقدر خيره وشره:

يجب الإيمان بالقدر خيره وشره، أي أن كل ما دخل في الوجود من خير وشر فهو بتقدير الله الأزلي، فالخير من أعمال العباد بتقدير الله ومحبته ورضاه، والشر من أعمال العباد بتقدير الله لا بمحبته ولا برضاه، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم.

أي يجب الايمان بأن كل ما يدخل في الوجود يدخل بتدبير أزليٍّ من الله فتدبير الله الذي هو صفته أزليٌّ أبديٌّ شاملٌ لكل ما يدخل في الوجود من الأجرام والأعمال خيرها وشرها، وتقدير الله الذي هو صفته لا يوصف بالشر، ويكون معنى «خيرِهِ وشرِهِ»: أن المقدور أي المخلوق فيه خير وشر وهذا المقدور دخل في الوجود بتدبير الله الأزليّ فيكون الرسول ﷺ استعمل القدر على معنى صفة الله وأعاد الضمير عليه على معنى المقدور وهو المخلوق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ القمر [٤٩]

أي بتدبير أزليّ وروى مسلم في صحيحه أن الرسول ﷺ قال: «كل شيء بقدر حتى العجزُ والكيس» أي الغباء والذكاء فلا يجوز أن يقال إن الله قدّر الخير ولم يُقدِّر الشر لأن هذا ضدُ القرآن والحديث والعقل.

وتقدير الله للشر وإرادته للشر وخلقه للشر ليس قبيحًا منه تعالى إنما فعل العبد للقبيح قبيح وذلك لأن العبد مأمور بفعلِ الخيرِ منهيٌ عن فعل الشر، أما الله تعالى فهو الآمر الذي لا آمر له، والناهي الذي لا ناهي له. والفرق بين الخير والشر أن الخير يحبه الله وأمر به والشر لا يحبه الله ونهى عنه وإلا فكلٌ بخلق الله، وتقدير الله، وعلم الله ومشيئته.

فإذا سأل سائل الانسان مُخيَّر أم مُسيَّر؟

فالجواب أن يُقال: إن الإنسان مُختار تحت مشيئة الله، فالإنسان له اختيار لكنه لا يخرج عن مشيئة الله قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ التكوير [٢٩]

فلا يُقال الإنسان له اختيار مُستقل عن مشيئة الله ولا يقال الإنسان مجبور على فعل ما يصدر منه باختياره لأن الجَبر ينافي التكليف والله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ البقرة [٢٨٦]

ويقول ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ البقرة [٢٨٦]. فالإنسان لا يكون منه إلا ما قدَّر الله كما قال -عليه الصلاة والسلام- :«وقل اعملوا فكل ميسر لما خُلِقَ له» وحظ العبد من فعله توجيه القصد نحو العمل والله يخلقه عند ذلك إن شاء، فالعباد مظاهرٌ لاكتساب الأعمال لا حَظَّ لهم في الخلق قال الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فاطر [٣]

معناه لا خالق إلا الله وروى ابن حبان أنه ﷺ قال: «إن الله صانع كلِ صانع وصنعته» أي صانع العبد وفعله. فالله تعالى هو خالق فعل العبد، لا حَظَّ للعبد في الخلق قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الصافات، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنفال [١٧] معناه وما رميت يا محمدُ خلقًا إذ رميت كسبًا ولكن الله رمى خلقًا.

وقد سئل الامام الشافعي عن القدر فقال:

ماشئتَ كان وإن لم أشأ..... وماشئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العبادَ على ما علمتَ .....ففي العلم يجرى الفتى والمسن

على ذا منننت وهذا خذلت..... وهذا أعنت وذا لم تُعِنْ

فمنهم شقيٌ ومنهم سعيدٌ .....وهذا قبيحٌ وهذا حسن

فسَّر الشافعيُّ القدرَ بالمشيئةِ وبيَّنَ أن ما شاءه الله لابد أن يكون وما شاءه العبد لا يكون إلا إذا شاء الله وأن كل شئ بخلقِ الله وعلمه ومشيئته، وقد ضلَ أناسٌ ينتسبون للإسلام فجعلوا مشيئة الله تابعة لمشيئة العبد وهذا ضد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير [٢٩].

وقالتِ المعتزلةُ -قبحهم الله- وهي فرقة ضالة ليست من أهل السنة والجماعة: إن الله خلق أجسام العباد وأعطاهم القدرة على خلق أفعالهم ثم صار عاجزًا عن خلقها وهذا من أشنعِ الكفر.

قال بعض العلماء: المعتزلة جعلوا الله كمَن قيل فيه المثل: أدخلته داري فأخرجني منها، معناه جعلوا الله مغلوبًا في ملكهِ، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ يوسف [٢١] أي مشيئة الله نافذة.

وقد التقى القاضي عبدُ الجبار المعتزلي بالإمامِ أبي إسحقَ الإسفراييني فبدأ المعتزلي كلامهُ بقولهِ: (سبحان من تنزه عن الفحشاء) يريد بذلك أن الله لم يشأ حصول الشر ولم يخلقه، فقال له أبو إسحاق: (سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء) فقال المعتزلي: (أيحبُ ربُنا أن يُعصَى) فقال أبو إسحق: (أيُعصى ربنا قهرًا) فقال المعتزلي: (أرأيت إن منعني الهدى وحكم علي بالردى أحسنَ إلي أم أساء) فقال أبو إسحق: (إن منعك ما هو لك فقد أساء وإن منعك ما هو له فإنه يختص برحمته من يشاء) فسكت المعتزلي وانقطع لأن الإمام أبا إسحق كسرهُ بالحجةِ.

فتبينَ لكَ أيها الطالبُ للحقِ أن كل ما دخلَ في الوجودِ بمشيئةِ الله وعلمه وتقديرهِ وخلقه سواءٌ في ذلك الجسمُ والعمل الخيرُ والشر الكُفرُ والإيمانُ إلا أن الخيرَ يحبهُ الله وأمرَ به والشر لا يحبهُ الله ونهى عنهُ، وقد روى ابنُ حبان أنه ﷺ قال: «إن الله لو عذب أهل أرضهِ وسماواته لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم ولو رحمهم كانت رحمتهُ خيرًا لهم من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبلهُ الله منك حتى تؤمنَ بالقدر وتعلمَ أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مِت على غير هذا دخلت النار».

تقدير الله لا يتغير

وليُعلم أنّ الإيمان بالقدر هو من أهم أمور الدين، لأنّ المخالفة لأهل الحقّ فيه مُوقِعٌ في الكفر الذي هو سبب للخلود الأبدي في النار -أجارنا الله وإياكم منها- فالرسول ﷺ لمّا جاءه جبريل -عليه السلام- يسأله عن بيان الإسلام والإيمان والإحسان أجابه عن الإيمان بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه». فقال له سيدنا جبريل: «صدقت» رواه مسلم.

قال الله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ سورة ق [٢٩] قال ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد في قوله ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قال: «قد قضيتُ ما أنا قاضٍ» اهـ وأما معنى الحديث «لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدُّعاء» فالقضاء هنا معناه، أي القضاء المُعَلَّق وليس المُبرَم المَحتوم، يوجد قضَاءٌ مُبْرَمٌ محتوم، وَقَضَاءٌ مُعَلَّقٌ. القضاء المُعَلَّق، ليس معلَّقًا في علم الله تعالى، فالله عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، عِلمُه أزليٌّ أبديٌّ لا يتغيَّر. القَضَاءُ الْمُبْرَمُ أي المحتوم لا يَرُدُّهُ شَيْءٌ، لا دَعْوَةُ دَاعٍ وَلا صَدَقَةُ مُتَصَدِّقٍ ولا صِلَةُ رَحِمٍ، وَالْمُعَلَّقُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُعَلَّقٌ في صُحُفِ الْمَلائِكَةِ الَّتي نَقَلُوهَا مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، مَثلًا يَكُونُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُم فُلانٌ إِنْ دَعَا بِكَذَا يُعْطَى كَذَا، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ لا يُعْطَى، وَهُمْ لا يَعْلَمُونَ مَاذَا سَيَكُونُ مِنْهُ، فَإِنْ دَعَا حَصَلَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ دُعاؤُهُ رَدَّ القَضَاءَ الثَّانِيَ الْمُعَلَّقَ، وَهَذَا مَعْنى الْقَضَاءِ الْمُعَلَّقِ أَوِ الْقَدَرِ الْمُعَلَّقِ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ تَقْدِيرَ اللهِ الأَزَلِيّ الَّذي هُوَ صِفَتُهُ مُعَلَّقٌ عَلَى

فِعْلِ هَذَا الشَّخْصِ أَوْ دُعَائِهِ، فَاللهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ الأَزَلِيِّ، يَعْلَمُ أَيَّ الأَمْرَيْنِ سَيَخْتَارُ هَذَا الشَّخْصُ وَمَا الَّذي سَيُصِيبُهُ وَكُتِبَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَيْضًا وَعَلَى مِثْلِ هَذَا يُحْمَلُ الْحَدِيثُ الَّذي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «لا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمْحُو بِالدُّعَاءِ مَا شَاءَ مِنَ الْقَدَرِ» فَقَوْلُهُ: «لا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ» مَعْنَاهُ فيما كُتِبَ مِنَ الْقَضَاءِ الْمَحْتُومِ. وَقَوْلُهُ «وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمْحُو بِالدُّعَاءِ مَا شَاءَ مِنَ الْقَدَرِ» مَعْنَاهُ الْمَقْدُورُ، وَيَدُلُّ على ذَلِكَ مَا وَرَدَ في الصَّحِيحِ في حَدِيثِ مُسْلِمٍ أَنَّ الرَّسُولَ -عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ- قالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي ثَلاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ (أي المجاعة) العَامَّةِ فَأَعْطَانِيهَا. وَسأَلْتُهُ أَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَأْصِلَهُمْ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بأسَهُمْ بَيْنَهُم فَمَنَعنِيها، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ» اهـ

هَذَا الحَدِيثُ الكَلامُ فِيهِ عَنِ القَضَاءِ الْمُبْرَمِ المحتوم وعَلَى كُلِّ حَالٍ مَشِيئَةُ اللهِ وَتَقْدِيرُهُ وَعِلْمُهُ لا يَتَغَيَّرُ، قَالَ الْغَزَالِيُّ في الإِحْيَاءِ: «فَإِنْ قُلْتَ فَمَا فَائِدَةُ الدُّعَاءِ وَالْقَضَاءُ لا يُرَدُّ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّ مِنَ الْقَضَاءِ رَدَّ الْبَلاءِ بِالدُّعَاءِ، فَالْدُّعَاءُ سَبَبٌ لِرَدِّ الْبَلاءِ وَاسْتِجْلابِ الرَّحْمَةِ كَمَا أَنَّ التُّرْسَ سَبَبٌ لِرَدِّ السَّهْمِ، وَالْمَاءَ سَبَبٌ لِخُرُوجِ النَّبَاتِ»، وَخَرَّجَ التِّرْمِذِيُّ في جَامِعِهِ عَن أَبِي خُزَامَةَ وَاسْمُهُ رِفَاعَة عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قَالَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام- : هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ» قَالَ أَبُو عيسى -أي التِّرْمِذِيُّ- هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفي بَعْضِ نُسَخِهِ حَسَنٌ صَحِيحٌ. اهـ فَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْكَلامِ مِنَ السَّيِّدِ الْمَعْصُومِ مَرْمًى لأَحَدٍ.

ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَ الْفَارُوقِ لأَبِي عُبَيْدَةَ حِينَ هَمَّ بِالرُّجُوعِ مِنْ أَجْلِ الدُّخُولِ عَلَى أَرْضٍ بِهَا الطَّاعُونُ وَهِيَ الشَّامُ، فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الأَثِيرِ في الْكَامِلِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رَدَّ عَلَى سُؤالِ أَبِي عُبَيْدَةَ: «أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟» فَأَجَابَهُ عُمَرُ: «نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلى قَدَرِ اللهِ» أَيْ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ إِلى أَرْضٍ أُخْرَى كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ بِتَقْدِيرِ اللهِ، وَلا يَكُونُ ذَلِكَ مُنَافِيًا لِلتَّوَكُّلِ، وَذَلِكَ في الوَقْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِطَاعُونِ عَمْوَاسَ الَّذِي أَتَى عَلَى كَثِيرٍ مِن جِلَّةِ الصَّحَابَةِ وَخِيرَةِ الْفَاتِحِينَ، فَكَانُوا شُهَدَاءَ الطَّاعُونَ.

المُسلِمُ عِنْدَمَا يَدْعُو اللهَ تعالى يَعْتَقِدُ جَزْمًا أَنَّ دُعَاءَهُ لا يُغَيِّرُ مَشِيئَةَ اللهِ تعالى، لَكِنِ الدُّعَاءُ بِخَيْرٍ عِبَادَةٌ. الرَّسُولُ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ» وَالْعِبَادَةُ هُنَا مَعْنَاهَا الْحَسَنَات، فَنَحْنُ عِنْدَمَا نَدْعُو بِدُعَاءٍ حَسَنٍ يَكُونُ اعْتِقَادُنَا أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ فِيهِ أَجْرٌ، وَقَدْ يَدْفَعُ اللهُ عَنَّا شَيْئًا مِنَ الْبَلاءِ بِسَبَبِهِ، وَإِنْ شَاءَ اللهُ تعالى فِي الأَزَلِ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُنَا اسْتُجِيبَ.

ومَعنَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر [٦٠]، أي أَطِيعُونِي أُثِبْكُمْ. ومَعنَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن [٢٩] مَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «يَغْفِرُ ذَنْبًا وَيُفَرِّجُ كَرْبًا وَيَرْفَعُ قَوْمًا وَيَضَعُ آخَرِين» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ. وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ يُغَيِّرُ مَشِيئَتَهُ، وَيُوَافِقُ هَذَا قَوْلُ النَّاسِ سُبْحَانَ الَّذِي يُغَيِّرُ وَلا يَتَغَيَّرُ، وَهُوَ كَلامٌ جَمِيلٌ إِذِ التَّغَيُّرُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَلَيْسَ فِي اللهِ وَصِفَاتِهِ، فَيَكُونُ مَعْنَى الآيَةِ أَنَّ اللهَ يُغَيِّرُ فِي خَلْقِهِ مَا شَاءَ. ومَعنَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة [١٨٦] أُثِيبُ الطَّائِعَ عَلَى طَاعَتِهِ الْمُوَافِقَةِ لِلشَّرْعِ.

وأَمَّا قَولُهُ تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ الرعد [٣٩]، فليس مَعْنَاهُ الْمَحْوَ وَالإِثْبَاتَ فِي تَقْدِيرِ اللهِ، وَقَدْ فَسَّرَ الشَّافِعِيُّ هَذَا بِالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ أَيْ أَنَّ اللهَ يَمْحُو مَا يَشَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ أَيْ يَرْفَعُ حُكْمَهُ وَيَنْسَخُهُ بِحُكْمٍ لاحِقٍ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ فلا يَنْسَخُهُ، وَمَا يُبَدِّلُ وَمَا يُثْبَتُ كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ وَهَذَا فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ. أَمَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ فَلا نَسْخَ، قَالَ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ: «هَذَا أَصَحُّ مَا قِيلَ فِي تأوِيلِ هَذِهِ الآيَة».

وأَمَّا قَولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الرعد [٣٩] فَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ مشتملٌ على الْمَمْحُوِّ وَالْمُثْبَتِ، فَيُعْلَمُ مِمَّا تَقَدَّم أَنَّ قَوْلَ العَوَامِّ: اللَّهُمَّ إِنَّا لا نَسْأَلُكَ رَدَّ القَضَاءِ... رَاجِعٌ إِلى القَضَاءِ المُبرَمِ لا الْمُعَلَّقِ، فَلا تَعَارُضَ بَينَ هَذَا وبَينَ الحَديثِ. فلا يحصل شئ إلا بمشيئة الله، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه عَلَّم بعض بناته: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» رواه أبو داود.

فكل ما شاء الله أن يكون كان، وما لم يشأ أن يكون لا يكون ولا تتغير مشيئته، فهو على حسب مشيئته الأزليّة يُغيّر المخلوقات من غير أن تتغيَّر مشيئتُه. هذه كلمة أجمع عليها المسلمون سلفهم وخلفهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ التكوير [٢٩].

ومعنى «وقِنا شرَّما قضيتَ» أي شرَّ ما خلَقْتَ، المرادُ به المَقضيُّ ليس قضاءَ اللهِ الذي هو صِفَتُه، المَقضيُّ معناهُ الشيء الذي قضاهُ الله، كلُّ ما دخلَ في الوجودِ يُقالُ له مَقضيٌّ لله هو قضى بوجوده، قضاءُ الله للشّرِ لا يكونُ شرًّا من الله، خَلْقُ الله للشّرِ ليسَ قبيحًا من الله، فلا يُعترضُ على الله في ذلك، الإيمانُ مَقضيٌّ حسنٌ أما الكفرُ مَقضيٌّ شرٌّ ليسَ حسنًا، أما قضاءُ الله للخير والشّرِ حسنٌ منه ليس شرًا، إنما هذا الذي خلَقَه في عباده منه حسنٌ ومنه قبيحٌ أما الشرُّ في نفسه قبيحٌ.

بعض ما يتعلق بالإيمان برسالة نبينا ﷺ:

يجب الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ وبأنه خاتم النبيين أي آخرهم، قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الأحزاب [٤٠]، وقال ﷺ: «وخُتم بي النبيون» رواه مسلم. ويجب الإيمان بأن سيدنا محمدًا ﷺ سيد ولد آدم أجمعين، وهذا متفقٌ عليه عند العلماء، وهو مأخوذٌ من حديث رواه الترمذي: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» أي لا أقول ذلك افتخارًا إنما تحدثًا بنعمة الله.

بعض الصفات الواجبة لأنبياء الله تعالى:

الله تعالى أرسل أنبياءه ليبلغوا الناس مصالح دينهم ودنياهم فهم قدوة للناس، ولذلك فإن الله تعالى جَمَّلهم بصفاتٍ حميدة وأخلاقٍ حسنة منها: الصدق والأمانة والفطانة والشجاعة والعفة، قال الله تعالى بعد ذكر عدد منهم: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ الأنعام [٨٦]. فالأنبياء هم صفوة الخلق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد قال ﷺ: «ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وإن نبيكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا» رواه الترمذي.

بعض ما لا يجوز على أنبياء الله من الصفات:

لَمَّا كان الأنبياء قدوةً للناس وقد جَمَّلهم الله بالصفات الحميدة، فإنه كذلك عَصَمَهم ونزَّههم عن الصفات الذميمة، فلا يجوز على أنبياء الله الكذبُ والخيانة والرذالة والسفاهة والبلادة، كما أنهم معصومون من الكفر والكبائر وصغائر الخِسَّة قبل النبوة وبعدها، ويمكن أن يرتكب الواحد منهم معصية صغيرة ليس فيها خِسَّة ودناءة، لكن ينبهون فورًا للتوبة قبل أن يقتدي بهم فيها غيرهم.

فأنبياءُ الله أحبابُ الله يستحيلُ عليهمُ الكذبُ لأنَّ ذلكَ نَقْصٌ يُنافي مَنْصِبَ النُّبُوَّةِ، ويستحيلُ عليهمُ الخِيانَةُ وَهِيَ ضِدُّ الأمانةِ، ويستحيلُ عليهمُ التَلَبُّسُ بالرذالةِ أيًّا كانتْ كاختلاسِ النَّظَرِ إلى المرأةِ الأجنَبِيَّةِ بِشَهْوَةٍ، ويستَحيلُ عليْهِمُ السفاهةُ كالتلفظ بألفاظٍ شنيعة، ويستحيلُ عليهمُ البلادةُ وهِيَ ضَعْفُ الفَهْمِ، والبليد لا يفهمُ الكَلامَ مِنَ المرَّةِ الأولى إلا بعْدَ أنْ يُكَرَّرَ عليهِ عِدَّةَ مراتٍ فَهَذا كُلُّهُ يَسْتحيلُ في حقّ الأنبياءِ، فَمَا مِنْ نَبِيّ خائِنٌ أو رَذيلٌ أو سفيهٌ أو بليدُ الذِّهْنِ، والله تعالى حَفِظَهُمْ مِنَ الكُفْرِ قَبْل النُّبُوَّةِ وبَعْدَها وحَفِظَهُمْ مِنَ الكبائِرِ كالزّنى وحَفِظَهُمْ من صغائرِ الخِسَّةِ كَسَرِقَةِ حَبَّةِ عِنَبٍ.

ولْيُعْلَمْ أنَّ كلَّ الأنبياءِ فُصَحاءُ فليسَ فيهم أرَتُّ وهوَ الذي يكونُ في لسانِهِ عُقْدَةٌ وحَبْسَةٌ ويَعْجَلُ في كَلامِهِ فلا يُطاوِعُهُ لِسانُهُ، وليس فيهم تَأْتاءٌ ولا أَلْثَغُ، والأَلْثَغُ الذي يُصَيِّرُ الرَّاء غينًا أو لامًا والسينَ ثاءً مثَلًا.

ويَسْتحيلُ على أنبياءِ الله سبْقُ اللسانِ في الشَّرعيَّاتِ والعاديَّاتِ لأنَّهُ لَوْ جازَ عليهِمْ لارتفعتِ الثِّقَةُ في صِحَّةِ ما يقولونَهُ، ولَقالَ قائِلٌ لَمَّا يَبْلُغُهُ كلامٌ عَنِ النَّبِيّ «ما يُدرينا أنَّهُ يكونُ قالَهُ على وجْهِ سبْقِ اللّسانِ» فلا يحصُلُ مِنَ النَّبِيّ أنْ يَصْدُرَ مِنْهُ كلامٌ غيرُ الذي أرادَ قولَهُ.

وسبْقُ اللّسانِ هوَ أنْ يَتَكَلَّمَ الإنسانُ بشيءٍ مِنْ غَيْرِ إرادةٍ بل يجري على لِسانِهِ ولم يَقْصِدْ أنْ يقولَهُ بالمرَّةِ.

ويستَحيلُ عليهِمْ أيضًا الجنونُ وتأثيرُ السّحْرِ في عقولِهِمْ، فلا يجوزُ أنْ يُعْتَقَدَ أنَّ الرسولَ قد أثَّرَ السّحرُ في عقْلِهِ. وأنبياءُ الله كلهُمْ كانوا ذوي حُسْنٍ وجمالٍ، ولا يجوز عليهِمُ المرضُ الذي يُنَفّرُ الناسَ منهُم، فقدْ قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما بعثَ الله نبيًّا إلا حَسَنَ الوجهِ حَسَنَ الصّوْتِ وإنَّ نَبِيَّكُمْ أحْسَنُهُمْ وَجْهًا وأحْسَنُهُمْ صَوْتًا».

وبالنسبة لنبيّ الله أيوبَ فهو لم يُصب بمرضٍ منفرٍ إنما ابتلاهُ الله بلاءً شديدًا استمرَّ ثمانِيَةَ عَشَرَ عامًا وفَقَدَ مالَهُ وأَهْلَهُ ثمَّ عافاهُ الله وأغناهُ ورَزَقَهُ الكثيرَ مِنَ الأولادِ، بعضُ الناسِ الجهَّالِ يَفْتَرونَ عليهِ ويقولونَ إنَّ الدّودَ أكَلَ جِسمَهُ، على زعمِهِمْ كانَ الدّودُ يَتَساقَطُ ثمَّ يأخُذُ الدّودَةَ ويعيدُها إلى مكانِها مِنْ جِسْمِهِ ويقول: «يا مخلوقَةَ ربّي كُلي مِن الرِزْقِ الذي رَزَقَكِ». فهذا ضَلالٌ وكفر والعياذُ بالله.

إن أنبياءَ الله كلُّهمْ أصحابُ خِلْقَةٍ سويَّةٍ، لم يكن فيهم ذو عاهَةٍ في خِلْقَتِهِ ولم يَكُنْ فيهم أعرَجُ ولا كسيحٌ ولا أعمى، وسيدنا يعقوبُ مِنْ شدَّةِ بكائِهِ على سيدنا يوسُفَ ابيَضَّتْ عيناهُ مِنْ شِدَّةِ حُزنِهِ على وَلَدِهِ يوسفَ، بَكَى بكاءً شديدًا حتّى ابيضَّتْ عيناهُ ثمّ ردَّ الله تعالى عليه بَصَرَهُ لَمَّا أرسَلَ يوسفُ بقميصِهِ مِنْ مِصْرَ إلى البَلدَةِ التي فيها فارْتَدَّ بَصيرًا.

وكذلِكَ لا يجوزُ القولُ إنَّ آدَمَ -عليهِ السّلامُ-كانَ مُتَوَحّشًا شبيهًا بالقِرْدِ، فمَنْ قالَ ذلكَ فهوَ ليسَ بِمُسلِمٍ، قال تعالى في محكَمِ كتابِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ آل عمـــران [٣٣]،

ويقولُ تَعالى في كِتابِهِ العَزِيزِ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ البقـــرة [٢١٣].

قَديمًا كانَ البشرُ جميعُهُمْ على دينِ الإسلامِ، في زمَنِ نَبِيّ اللهِ آدمَ كانوا كلّهُمْ على الإسلامِ لمْ يَكُنْ بَينهُمْ كافرٌ، وإنَّما حدَثَ الشّرْكُ والكفرُ باللهِ تعالى بعدَ النّبيّ إدريسَ -عليهِ السّلامُ- وحَفِظَ اللهُ تعالى أنبياءَهُ أحبابَهُ مِنَ الشّركِ وحَذَّرَ أُمَمَهُمْ مِنَ الشّركِ، يقولُ اللهُ:﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ الزمـــر [٦٥]، يعني الرُّسُلَ الذينَ جاءوا بَعْدَ إدْريسَ، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أيْ لَئِنْ أَشْرَكَ واحِدٌ مِنْ أُمَّتِكَ، ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أَيْ عَمَلُهُ ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الزمـــر [٦٥] يعني الذي أشرَكَ يكونُ منَ الخاسِرينَ، فهذا التحذيرُ لأمَمِ الأنبياءِ وليسَ للأنبِياءِ.

ومِنْ جُمْلَةِ الافتراآتِ قولُ البعضِ إن سيّدَنا داودَ -عليهِ السَّلامُ- أرسَلَ قائدَ جيشِهِ إلى معركةٍ ليموتَ فيها ليتزوَّجَ داودُ امرأةَ هذا القائدِ، فهذا فاسدٌ مُفْتَرًى لا يليقُ بنبيّ منْ أنبياءِ اللهِ. واللهُ تعالى صانَ الأنبياءَ منَ المنَفّراتِ كأن تكونَ أسماؤهم منَ الأسماءِ القبيحةِ الشنيعةِ، اللهُ تعالى عَصَمَ الأنبياءَ منْ أنْ تكونَ أسماؤهُمْ خبيثةً أوْ مشتقَّةً مِنْ خبيثٍ أوْ يُشْتَقُّ منها خبيثٌ، فلا يجوزُ أنْ يقالَ إنَّ فعلَ اللّواطِ مُشتَقٌّ مِنِ اسمِ نبيّ اللهِ لوطٍ، فلَفْظُ اللواطِ كانَ قبلَ قومِ لوطٍ وإنما قومُ لوطٍ همْ أوّلُ منْ فَعَلَ تلكَ الفِعْلَةَ الشنيعةَ من بين البشرِ، أمّا اللفظُ كانَ موضوعًا بينَ المتكلمينَ باللغةِ العربيةِ قبلَ لوطٍ وهمْ قومُ عادٍ.

ولقدْ كانَ قومُ لوطٍ منْ قساوةِ قلوبِهِمْ وفسادِ أخلاقِهِمْ يتَجاهَرونَ بِفِعْلِ فاحشةِ اللواطِ ولا يستَتِرونَ ولا يستَحونَ، وبعثَ الله تعالى نبيَّهُ لوطًا إليهم ودعاهُم إلى دينِ الإسلامِ وعبادةِ الله وحدَهُ ونَهاهُمْ عنْ تعاطي المحرماتِ والمنكراتِ وتلكَ الأفاعيلِ المسْتَقْبَحَةِ، ولكنّهمْ استمرّوا على كفرِهِمْ وإشراكِهِمْ وتمادَوْا في ضلالِهِمْ وطغيانِهِمْ وفي المجاهرةِ بفعلِ اللواطِ، فسألَ لوطٌ -عليهِ السَّلامُ- ربَّهُ النُّصرةَ عليهم، قالَ تعالى حكايةً عنْ نبيِّهِ لوطٍ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ العنكبوت [٣٠].

فأرْسَلَ الله عزَّ وجلَّ إلى قومِ لوطٍ ملائكةً كرامًا لإهلاكِهِمْ وهمْ جبريلُ وميكائيل وإسرافيلُ ليقلبوا قُراهُمْ عالِيَها سافِلَها ويُنْزِلوا العذابَ بهم، وجاءوا إلى سيّدِنا لوطٍ -عليهِ السَّلامُ- بِصُوَرِ شبَّانٍ جميلي الصّورةِ (دون آلة الذكورة) اختبارًا مِنَ الله لقومِ لوطٍ وإقامَةً للحُجَّةِ عليهم، ولم يُخْبِروا لوطًا في البِدايةِ بِحَقيقَتِهِم، فظَنَّ نبيُّ الله لوطٌ أنّهُمْ ضيوفٌ جاءوا يَسْتَضيفونَهُ ولكنَّه أشْفَقَ عليهِم وخافَ مِنْ قومِهِ أنْ يعْتَدوا عليهم، وحصل أن خَرَجَتِ امرَأَتُهُ وكانتْ كافرةً خبيثةً تتبعُ هوى قومِها فأخْبَرَتْ قومَها وقالتْ لَهُمْ إنَّ في بيتِ لوطٍ رجالًا، ما رأيت مثْلَ وجوهِهِمْ قَطُّ، وما أنْ سَمِعَ قومُ لوطٍ الخبَرَ حتى أقبَلوا مسرعينَ إلى بيتِهِ -عليهِ السَّلامُ- يريدونَ الاعتداءَ على ضيوفِهِ وكانَ قدْ أغلقَ بابَهُ والملائكةُ معَهُ في الدارِ، وأخَذَ يناظِرُ ويحاوِرُ قَومَهُ منْ وراءِ البابِ وهم يعالِجونَ البابَ ليَفتَحوهُ، فلمّا رأى الملائكةُ ما يلقى نبيُّ الله لوطٌ -عليهِ السلامُ- من كَرْبٍ شديدٍ أخبروهُ بِحَقيقَتِهِم وأنَّهُم ليسوا بَشَرًا وإنَّما هُم ملائكةٌ ورُسُلٌ من الله، قدِموا وجاءوا لإهلاكِ هذهِ القريةِ بأمْرٍ مِنَ الله؛ لأنَّ أهلَها كانوا ظالمينَ بِكفرِهِم وفسادِهِم.

واستأذَنَ جبريلُ -عليهِ السلامُ- ربَّهُ في عقوبَتِهِم فَأَذِنَ لَهُ، فخَرَجَ -عليهِ السلامُ- إليهم وضَرَبَ وجوهَهُمْ بطَرَفِ جناحِهِ فطُمِسَتْ أَعيُنُهُم، فانصَرَفوا يتَحَسَّسونَ الحيطانَ ويَتَوعَّدونَ ويهدّدونَ نبيَّ الله لوطًا، عندَ ذلكَ سألَ نبيُّ الله لوطٌ الملائكةَ متى موعِدُ هلاكِهِم؟ قالوا: الصُّبْحُ. فقالَ: لو أهلَكْتُموهُمُ الآنَ، فقالوا لهُ: أليسَ الصُّبحُ بقريبٍ؟

وأصاب قومَ لوطٍ منْ أمرِ الله ما لا يُرَدُّ منَ العذابِ الشديدِ، يقولُ الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ هـود [٨٢]، أدخَلَ جبريلُ -عليهِ السَّلامُ- ريشَةً واحدةً من أجْنِحَتِهِ في قُراهُم ومُدُنِهِمْ وكانت أربعَةً أو خمسةً واقْتَلَعَهُنَّ مِنْ أَصْلِهِنَّ بِمَنْ فيهِنَّ مِن قومِ لوطٍ الكافرينَ فَرَفَعَ الجميعَ حتّى بَلَغَ بِهِنَّ عَنانَ السماءِ حتى سَمِعَ الملائكةُ الذينَ في السماءِ الأولى أصْواتَ دِيَكَتِهِمْ ونُباحَ كِلابِهِمْ ثمَّ قَلَبَها عليهِمْ فَجَعَلَ عالِيَها سافِلَها، رَدَّها مَقلوبَةً بِمشيئَةِ اللهِ وقدرَتِهِ. أمّا لوطٌ -عليهِ السلامُ- فقد خَرَجَ ليلاً قبلَ طلوعِ الشمسِ، وامرأَتُهُ الكافرةُ قد هَلَكَتْ مَعَ الهالكينَ.

معنى قوله تعالى حكاية عن نبي الله إبراهيم:

﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ الأنبياء [٦٣]

لا شك أن الأنبياء مُنزَّهون عن الكذب، والوارد في هذه الآية من أمر إبراهيم ليس كذبًا حقيقيًا، بل هو صدقٌ من حيث الباطن والحقيقة، لأن كبيرهم هو الذي حمله على الفتك بالأصنام الأخرى من شدة اغتياظه منه لمبالغتهم في تعظيمه بتجميل صورته وهيئته، فيكون إسناد الفعل إلى الكبير إسنادًا مجازيًا، فلا كذب في ذلك.

معنى قول إبراهيم عن الكوكب حين رآه

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ الأنعام [٧٧]

الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها، فقول إبراهيم عن الكوكب حين رآه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾

هو على تقدير الاستفهام الإنكاري، فكأنه قال: **أهذا ربي كما تزعمون ؟!**، أما إبراهيم فكان يَعلم قبل ذلك أن الربوبية لا تكون إلا لله، قال تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ آل عمران [٦٧].

معنى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يوسف [٢٤] إخبارًا عن يوسف:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ يوسف [٢٤] أحسن ما قيل في تفسير ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أن جواب لولا محذوفٌ يدل عليه ما قبله أي لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، **فلم يحصل منه همٌّ للزنى لأن الله أراه برهانه**، وقال بعض المفسرين من أهل الحق إن **معنى وهمَّ بها أي همّ بدفعها**، ومعنى ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أن الله أعلمه البرهان أنك يا يوسف لو دفعتها لقالت لزوجها دفعني ليجبرني على الفاحشة، فلم يدفعها، بل أدار لها ظهره ذاهبًا فشقت قميصه من خلف، فكان الدليل عليها. أما ما يروى من أن يوسف همّ بالزنى وأنه حل إزاره وجلس منها مجلس الرجل من زوجته فإن هذا باطل لا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى، قال الله تعالى في براءة يوسف: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ يوسف [٥١]

المراد بالنعاج في قوله تعالى حكاية عن أحد الخصمين اللذين اختصما إلى داوود

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ سورة ص [٢٣] قد تُكَني العرب بالنعاج عن النساء، لكن لا يجوز تفسير النعاج في هذه الآية بالنساء كما فعل بعض المفسرين، فقد أساءوا بتفسيرهم لهذه الآية بما هو مشهور من أن داود كان له تسع وتسعون امرأة، وأن قائدًا كان له واحدة جميلة فأعجب بها داود، فأرسل هذا القائد إلى المعركة ليموت فيها ويتزوجها هو من بعده، **فهذا فاسد لأنه لا يليق ما ذكر فيه بنبي من أنبياء الله**، قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره بعد ذكر هذه القصة المكذوبة عن سيدنا داود: وهذا لا يصح من طريق النقل ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزهون عنه، وأما استغفار داود ربه، فهذا لأنه حكم بين الإثنين بسماعه من أحدهما قبل أن يسمع من الآخر.

والحمد لله ربِّ العالمين

الدرس السابع –الإسلام دين جميع الأنبياء

الحمد لله المُنعِم على عباده بدينِه القويم، وهداهم لاتِّباع المُرسلين، وأسبغَ عليهم من واسعِ فضلِه العظيم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دعوةُ جميع النبيين، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله سيدُ المُرسلين، وخاتمُ النبيين، بلَّغ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في الله حقَّ جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه والتابعين، ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، قالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ آل عمـــران [٨٥]

معناه أنَّ الذي يطلبُ دينًا غير الإسلام يدينُ به فلن يقبلَهُ الله منه، فالدينُ الصحيحُ عندَ الله هو الإسلام، وليس معناه أنه لا يُسَمَّى ما سوى الإسلامِ دينًا، بل يُقالُ دينُ اليهود ودينُ المجوس لكنه دينٌ باطلٌ، وقد أمرَ الله تعالى الرسولَ أن يقول ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الكافرون [٦] أي أنا ما أزالُ على ديني الذي هو حقٌّ وأنتم لكم دينكُم الباطلُ فعليكم أن تتركوهُ.

وقالَ تَعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمـــران [١٩] أي أنّ الدِّينَ الصحيحَ الذي ارتضاهُ الله لعباده من البشر والجن والملائكة الإسلامُ لا غيرُ، وما سواهُ من الأديانِ فهو باطلٌ، وهو الدين الذي كان عليه البشر، آدم وأولاده ما كانوا يدينون إلا بالإسلام إنما نشأ الكفر بعد ذلك قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ البقـــرة [٢١٣] أي كلهم على الإسلام ثم اختلف البشر بقي بعضهم على الإسلام وكفر بعضٌ فدان بغير الإسلام، ثم لما اختلفوا بعث الله النبيين ليبشروا من أسلم بالجنة وينذروا من كفر بالعذاب في الآخرة، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في هذه الآية ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ البقرة [٢١٣] أي كلهم على الإسلام فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ البقـــرة [٢١٣].

فكُلُّ الأنبياءِ مسلمونَ فمن كانَ متَّبعًا لموسى ﷺ فهو مسلمٌ موسويٌّ، ومن كانَ متَّبعًا لعيسى ﷺ فهوَ مسلمٌ عيسويٌّ، ويَصحُّ أن يُقالَ لمن اتَّبعَ محمدًا ﷺ مسلمٌ محمديٌّ.

وروى الشيخان وأحمد وابن حبان وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال:«الأنبياء إخوةٌ لِعَلَّات دينُهم واحد وأمهاتُهم شتى»

معنى ذلك: أنَّ الأنبياءَ جميعَهم دينُهم الإسلامُ فكان آدمُ على الإسلام وكذلك الأنبياءُ بعده إلى نبيّنا محمد -عليه الصلاة والسلام- كانوا كلُّهم يعبدونَ الله ولا يشركون به شيئًا، فمن كان في زمن موسى ﷺ فآمنَ بالله ربًّا وصدّقَ برسالةِ موسى فهو مسلمٌ موسويٌّ أي من أَتباعِ موسى، وكذلكَ الأمر فيمن كانَ في أيام عيسى فآمنَ بالله وصدَّق بعيسى فهو مسلمٌ عيسويٌّ.

ومعنى مسلمٌ محمديٌّ أي مسلمٌ متَّبع محمدًا فيما جاء به من توحيدِ الله وتصديقِ الأنبياءِ والإيمانِ بوجودِ الملائكة المكْرَمين والإيمانِ بالكتبِ السماويةِ والإيمانِ باليومِ الآخرِ الذي يُجازى فيه العباد المؤمنون بأعمالهم بإدخالهم الجنةَ والكافرون بإدخالهم جهنم، وأن الجنةَ فيها نعيمٌ محسوسٌ وجهنمَ فيها آلامٌ محسوسةٌ، وأنه لا خالقَ للأجسامِ ولا لشيء من الحركاتِ والسَّكنات إلا الله. فكلُّ الأنبياء جاءوا بهذا لا يختلفون في هذا إنما تختلفُ الأحكامُ التي أنزلَها الله عليهم وذلك لأن الله تعالى فرض على أنبياءِ بني إسرائيل وأممِهم صلاتين وأنزلَ على بعض الأنبياء خمسين صلاةً، وأوجبَ فيما أوجبَ على بعضٍ أن يدفعوا ربعَ أموالهم زكاةً، وأنزلَ على بعضٍ تَحتُّم قتل القاتل، وأنزلَ على آدمَ تحليلَ زواج الأخِ بأخته التي هي توأمةُ أخيهِ الآخر، وكلٌّ يجبُ العملُ به في شريعةِ ذلك النبي، والله تعالى يُغيرُ الأحكامَ التي كانت في شرع نبيّ سبقَهُ وهو العليمُ بمصالح عبادِهِ، والمصالحُ تختلفُ باختلافِ الأزمانِ والأحوال

وكل نبي في زمانهِ يجبُ التقيدُ به في الإيمان والأحكام التي أُنزلت عليه فلما جاءَ سيدنا محمد آخرُهم أنزَل الله عليه أحكامًا لم تكن في شرائع من قبله من الأنبياءِ كالصلاةِ في الأماكنِ التي هُيئت للصلاة وغيرها ولم يكن ذلك في شرعِ من قبله من الأنبياءِ بل كان مفروضًا عليهم أن يُصلوا في أماكن مخصوصةٍ هُيئت للصلاة وهي المساجد باللغة العربية، وكان لتلك الأماكن عند أولئك اسم غير المسجد وكان أولئك لا تقبل صلاتهم إلا في مساجدهم ولا تصح صلاتهم في بيوتهم ولا في متاجرهم ولا في مزارعهم ولا في البريّة والغابة، إلا أن بني إسرائيل المسلمين هدم فرعون مساجدهم فأذن الله لهم أن يصلُّوا في بيوتهم، وأنزلَ على سيدنا محمد التيمّمَ بالترابِ عند فَقدِ الماءِ أو العجزِ عن استعماله ولم يكن ذلك في شرائع الأنبياء قبله بل كانوا يتوضئون ويصلّون فإن لم يجدوا ما يتوضئونَ به توقّفوا عن الصلاةِ حتى يجدوا الماءَ.

قصةٌ غريبةٌ فيها دلالةٌ على أن سيدنا عيسى -عليه السلام- أوصى باتّباعِ محمدٍ إذا ظَهَرَ: خَرَجَ من اليمن أربعة أشخاصٍ قاصدين مكَّة فأدرَكَهم الليلُ في البرية فنزلوا في بعض الليل في أرضٍ فناموا إلا جَعْدَ بن قيس المُرادي فسمعَ هاتفًا لا يرى شخصه يقول:

ألا أيها الركبُ المعرّسُ بلّغُوا *** إذا ما وصلتم للحطيم وزمزَما**

محمدًا المبعوثَ منا تحيَّةً *** تشَيّعُه من حيثُ سار ويَمَّما**

وقولوا له إنّا لدينكَ شِيعةٌ *** بذلك أوصانا المسيحُ ابنُ مريما**

فهذا الهاتفُ جنيٌّ مؤمنٌ أدركَ عيسى قبل رفعه إلى السماءِ وآمنَ به وسمِعَ منه وصيته بالإيمان بمحمدٍ إذا ظَهَرَ واتباعه، فلما وصلوا إلى مكةَ سألَ أهلَ مكة عن محمدٍ فاجتمعَ به فآمنَ به وأسلمَ وذلكَ كانَ في أول بعثةِ محمدٍ قبل أن ينتشرَ خبرُهُ في الجزيرةِ العربيةِ، ومعنى المعرّس أي المسافرُ الذي ينزِلُ في آخرِ الليل ليستريحَ.

وليُعلم أنَّ البشرَ في زمنِ آدم كانوا كلّهم على الإسلامِ لم يكن بينهم كافرٌ. هو علَّم أولاده الدين كما علَّمهم أصول المعيشة وعمل لهم الدينار والدرهم وغير ذلك من أصول المعيشة، فصلى الله على نبينا محمد وعلى آدم وسائر الأنبياء وسلم، وإنّما حَدَثَ الكفرُ بعد آدمَ بألف سنةٍ وذلك بعد وفاةِ إدريس. فأوّلُ الأنبياءِ آدمُ ثم ابنه شيثٌ ثم إدريس.

وبعدَ وفاة إدريس -عليه السلام- حَصَلَ الشركُ بين الناس واستمروا على هذا زمانًا إلى أن بعثَ الله نوحًا يدعوهم إلى الإسلام، فبينَ إدريسَ ونوحٍ -عليهما السلام- ألفُ سنةٍ وتلك الفترةُ تُسمى الجاهليةَ الأولى، فبهذا يكون نوحٌ -عليه السلام- هو أولَ نبيّ أُرسِلَ إلى الكفارِ يدعوهم إلى الإسلامِ. فآدم من جملة الأنبياء الذين من أنكر نبوتهم يكفر، فكما أن من أنكر نبوة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد يكفر كذلك يكفر من أنكر نبوة آدم، كما نقل ابن حزم الإجماع على نبوة آدم، بل هو نبي رسول كما ورد ذلك في حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن حبان وصححه وأقرَّه الحافظ ابن حجر، ولا معنى لإنكار رسالة آدم ولا حجة لهم في حديث الشفاعة الذي فيه أن الناس يأتون آدم ليشفع لهم ثم نوحًا فيقولون لنوح أنت أول الرسل اشفع لنا إلى ربك، رواه البخاري وغيره، لأن معناه أنت أول الرسل إلى قومه المنتشرين في الأرض لأن الأنبياء الذين بعده كان النبي يرسل إلى قومه كما حكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ الصف [٦] فهؤلاء الذين ينكرون نبوة آدم -عليه السلام- خالفوا قول الله تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ البقرة [٢١٣] قال ابن عباس: أي كلهم على الإسلام، فماذا يقولون عن آدم وأولاده ! أيقولون إنهم كانوا يعيشون عيشة البهائم لا يعرفون ما يأتون وما يذرون! وماذا يقولون في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ آل عمران [٣٣]، وكفاهم هذا خزيًا.

ولما نَزَلَ الوحيُ على النبي لم يكن بين البشرِ على الأرضِ مسلمٌ غيرُهُ فعربُ الجزيرة العربية كانوا يعبدون الأوثانَ، وأهلُ فارس كانوا يعبدون النارَ، وسائرُ أهل الأرضِ كانت لهم أصنامٌ أو أشياء أخرى يعبدونها، فقامَ سيدنا محمد ﷺ يدعو إلى الإسلامِ مؤيَّدًا بمعجزاتٍ تدُلّ على نبوتِهِ فهو مجدّدُ الدعوةِ، فدَخَلَ البعضُ في الإسلامِ كالجعدِ بنِ قيسٍ المُراديّ الذي أسلمَ بسببِ ما سمعَهُ من الجنيّ، وجَحَدَ بنبوتِهِ أهلُ الضلالِ الذين منهم مَن كان مشركًا قبلًا كفرقةٍ من اليهودِ عَبَدَت عُزيرًا فازدادُوا كفرًا إلى كفرهم.

معنى: «جَحَدَ» أي أنكرَ، وأما عُزَيرٌ فهو رجلٌ من الصالحين وقد قال بعض العلماء بنبوّتِهِ.

ومِن الذين آمنوا من أهل الكتابِ عالمُ اليهود بالمدينةِ عبد الله بن سلام وهو من المبشّرين بالجنة، ومنهم النجاشيُّ الذي عاشَ بعد إسلامه سبعَ سنواتٍ، ولما ماتَ قالَ النبيُّ ﷺ: «ماتَ اليومَ رجلٌ صالحٌ، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» رواه البخاري. وأصحمة اسم النجاشيّ.

والأساسُ الجامعُ لجميع أهل الإسلام من لَدُن آدمَ إلى يوم القيامةِ هو الإيمانُ بالله وحدَهُ أي أن لا يُشرَك به شيء، ثم هؤلاء لا يصحُّ إيمانُهُم إلا أن يؤمنوا بنبيّ عَصرِهِم. هذا المبدأ جمع أهل الإسلام كلهم، هذا المعنى يشملهم لأنهم كلهم يعبدون الله وحده.

أدلة قرآنية على أن الدين السماوي الوحيد هو الإسلام و أنه دين جميع الأنبياء

- قال الله تعالى إخبارًا عن نوح -عليه الصلاة والسلام- :

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ يونس [٧٢].

- قال الله تعالى إخبارًا عن إبراهيم وإسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- :

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ البقرة [١٢٨].

- قال الله تعالى إخبارًا عن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- :

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ آل عمران [٦٧].

- قال الله تعالى إخبارًا عن إبراهيم ويعقوب وبنيه -عليهم الصلاة والسلام- :

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ البقرة [١٣٠-١٣٣].

- قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ البقرة [١٣٦].

- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ الحج [٧٨].

- قال الله تعالى في قوم لوط: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ الذاريات [٣٥، ٣٦].

- قال الله تعالى إخبارًا عن يوسف -عليه الصلاة والسلام-: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ يوسف [١٠١].

- قال الله تعالى إخبارًا عن سليمان -عليه الصلاة والسلام:
﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ النمل [٣١].

- قال الله تعالى إخبارًا عن موسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ يونس [٨٤].

- قال الله تعالى إخبارًا عن عيسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ آل عمران [٥٢].

- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ المائدة [١١١].

- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ آل عمران [٨٠].

- قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾ القلم [٣٥].

بيان كفر كل من دان بغير دين الإسلام

كل من سمع بدعوة سيدنا محمد ملزمٌ بإتباعه حيث قال ﷺ: «والذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ، لا يهوديٌّ، ولا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النارِ» رواه مسلم.

- قال الإمام النووي -رحمه الله:- «أَمَّا الْحَدِيثُ فَفِيهِ نَسْخُ الْمِلَلِ كُلِّهَا بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ» أَيْ مِمَّنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي زَمَنِي وَبَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَكُلُّهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِم الدُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْيَهُودِيّ وَالنَّصْرَانِيَّ تَنْبِيهًا عَلَى مَنْ سِوَاهُمَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَهُمْ كِتَابٌ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ مَعَ أَنَّ لَهُمْ كِتَابًا، فَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا كِتَابَ لَهُ أَوْلَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ» اهـ

- قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ الفتح [١٣].

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ النساء [١٥٠، ١٥١].

- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة [١٧].

- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ المائدة [٧٣].

- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ التوبة [٣٠].

قال القاضي عياض -رحمه الله-: «ولهذا نُكَفِّر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه: فهو كافر بإظهار ما أظهره من خلاف ذلك» كتاب الشفا في أحوال المصطفى.

والحمد لله رب العالمين

ملاحظات

الدرس الثامن – تبيان الردة و أنواع الكفر

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد:

هذا شرحٌ لبيان الردة و أقسامِها وحكم المرتد في الإسلام بطريقة سؤال وجواب بشكل مختصر ومُبسط.

؟ ١- ما هي الردة وإلى كم قسمٍ تنقسم؟

الردة: هي قطع الإسلام، وهي ثلاثة أقسام كما قسمها النووي وغيره من شافعية وحنفية وغيرهم: اعتقادات وأفعال وأقوال.

؟ ٢- اذكر دليلاً من الحديث على أنه لا يُشترط للوقوع في الكفر معرفة الحكم؟

قال رسول الله ﷺ : «إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا»، أي مسافة سبعين عامًا في النزول، وذلك منتهى جهنم، وهو خاص بالكفار، والحديث رواه الترمذي وحسنه، وفي معناه حديث رواه البخاري ومسلم وهو : «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»، قال الحافظ ابن حجر في شرحه على البخاري في تفسيره الحديث المذكور : « وذلك ما كان فيه استخفاف بالله أو بشريعته»

وهذان الحديثان دليل على أنه **لا يشترط للوقوع في الكفر معرفة الحكم ولا انشراح الصدر ولا اعتقاد معنى اللفظ.**

٣- أذكر دليلًا من القرآن على أن الاستخفاف بالله ورسوله كفر؟

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ التوبة [٦٥].

٤- أذكر واحدًا من العلماء ممن نقلوا الإجماع على تكفير ساب الله؟

قال الإمام القاضي عياض اليحصبي في كتاب الشفا: «**لا خلاف أن ساب الله من المسلمين كافر**».

٥- أذكر واحدًا من العلماء ممن نقلوا الإجماع على تكفير من تلفظ بلفظ كفري أو فعل فعلًا كفريًا؟

قال تاج الدين السبكي في مقدمة الطبقات: «لا خلاف عند الأشعري وأصحابه، بل وسائر المسلمين أن من تلفظ بالكفر أو فعل أفعال الكفار أنه كافر بالله العظيم مخلد في النار وإن عرف قلبه، وأنه لا تنفعه المعرفة مع العناد ولا تغني عنه شيئًا، لا يختلف مسلمان في ذلك».

٦- ما حكم من أنكر ما عُلِم من الدين بالضرورة؟

من أنكر ما علم علمًا ظاهرًا يشترك في معرفته العلماء والعامة من المسلمين كفرٌ، إلا أن يكون نحو حديث عهد بإسلام أو نشأ في بادية بعيدة عن العلماء، شرط أن يكون غير عالم بأن هذا من دين الإسلام، وشرط أن يكون هذا الأمر غير نحو تنزيه الله عن الشبيه وعن المكان.

٧- إلى كم قسم قسّم العلماء اللفظ وبيّن معنى ذلك؟

قسّم العلماء اللفظ إلى ظاهرٍ وصريح، فالظاهر ما كان له بحسب وضع اللغة وجهان فأكثر، ولكنه إلى بعض الوجوه أقرب، فمن تكلم بلفظ ظاهر في الكفر لا يُحكم بكفره حتى يتبين مراده، وأما الصريح فهو الذي لا يقبل التأويل، فمن تكلم بلفظٍ صريحٍ في الكفر كفَر، ولا يُسأل عن مُراده ولا يُقبل له تأويل، إلا أن يكون لا يعرف ذلك المعنى الصريح، بل يظن أن معناه غير ذلك، فإن هذا اللفظ بالنسبة إليه ليس له حكم الصريح.

٨- ماذا يجب على من وقعت منه رِدَّة؟

يجب على من وقعت منه الردة العود فورًا إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين والإقلاع عما وقعت به الردة ويجب عليه الندم والعزم على أن لا يعود لمثله.

٩- المرتد إذا لم يرجع عن كفره، ماذا يفعل به الخليفة؟

إن لم يرجع عن كفره بالشهادة وجبت استتابته.

١٠- أذكر بعض الأحكام التي تتعلق بالردة؟

من الأحكام التي تتعلق بالمرتد أن صيامه يبطل وكذا تيممه ونكاحه قبل الدخول وإن رجع إلى الإسلام، أما بعد الدخول فإن رجع إلى الإسلام قبل انتهاء العدة تعود له زوجته من غير أن يُشترط تجديد عقد النكاح، وكذلك نكاح المرتد لا يصح على مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا غيرهنّ، ويحرم أكل ذبيحته، ولا يرث ولا يورث، ولا تجوز الصلاة عليه، ولا يجب غسله، ولا يجب تكفينه، ولا يجوز دفنه في مقابر المسلمين، ومالُه فيءٌ أي يصرف في مصالح المسلمين.

فتوى شرعية

الموضوع: حكم سب الذات الإلهية

كثير من الحمقى الذين لا خلاق لهم يتجرأون على الذات الإلهية سباً وشتماً وينتقصون الذات الإلهية بأوصاف لا يرتضيها شذاذ البشر لأنفسهم فما حكم حياتهم الزوجية؟ وكيف التعامل معهم؟

الجواب:

سب الذات الإلهية أو القرآن أو الإسلام أو الأنبياء والمرسلين أو سب الصحابة في جملتهم بعتبر كفراً ورده، وينفسخ عقد الزوجية إن كانت له زوجة، ولو مات على هذه الحالة لا يورث ولو مات بعض أقربائه وله منهم ميراث لا يرثه، والمرتد يستتاب، فإن تاب وحسنت توبته نرجو الله أن يتوب عليه وإن غلبه شيطانه وأدمن على هذا الخلق كما يفعله الحمقى ومات على هذه الحالة فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، وإن كانت له أعمال صالحة لا يثاب عليها، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (217) سورة البقرة

والله أعلم

مفتي محافظة غزة

١١- أعطِ بعض الأمثلة على الكفر الاعتقادي.

من دان بدين غير دين الإسلام، أو لم يصدق بآية في القرآن، أو لم يؤمن بنبي من الأنبياء المعلوم من الدين بالضرورة نبوته، أو اعتقد حِلّ أمر حُرمتُه معلومة من الدين بالضرورة، أو اعتقد حُرمة أمر حِلُّه معلومٌ من الدين بالضرورة، أو شبّه الله بالمخلوقين كأن اعتقد المكان أو الجهة في الله، كفر كفرًا اعتقاديًا.

١٢- أعطِ بعض الأمثلة على الكفر الفعلي.

الذي يرمي المصحف في القاذورات، أو يسجد لصنم أو لشمس، أو يفعل أي فعلٍ أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر، فهو كافر كفرًا فعليًا.

١٣- أعطِ بعض الأمثلة الكفر القولي.

الذي يشتم الله، أو الرسول أو الدين الإسلامي أو الكعبة، أو يستخف بالجنة أو بوعيد الله الذي لا يخفى عليه نسبة ذلك إليه سبحانه، أو يستهزئ بالصلاة أو بالحج فهو كافر كفرًا قوليًا.

والقاعدة: أن كل عَقدٍ أو فعلٍ أو قولٍ فيه استخفاف بالله، أو ملائكته، أو أنبيائه، أو وعده، أو وعيده، أو شعائردينه فهوكفر، فليحذرالإنسان من ذلك جَهْدَه على أي حال.

١٤- اذكر قول عالم من العلماء المعتبرين بيّن أن الردة تنقسم إلى ثلاثة أقسام اعتقادات و أفعال و أقوال.

ذكر ذلك النووي في المنهاج وغيره كروضة الطالبين، قال في المنهاج: «الردة هي قطع الإسلام بنية أو قول كفر أو فعل سواء قاله استهزاءً أو عنادًا أو اعتقادًا». ا هـ

تلخيص مهم: اعلم يا أخي المسلم أن الكفر هو أكبر ذنب يقترفه العبد وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى لمن مات عليه وهو يُحبِط جميع الحسنات، وينقسم إلى ثلاثة أقسام كما قسمها النووي وغيره من شافعيةٍ وحنفيةٍ وغيرهم: اعتقادات وأفعال وأقوال وكلٌ يتشعب شعبًا كثيرة:

الكفر القولي: ومكانه اللسان كمن يشتم الله تعالى أو الأنبياء، أو الملائكة، أو القرآن، أو الكعبة، أو دين الإسلام.

الكفر الفعلي: كمن يُلقي المصحف أو أوراق العلوم الشرعية أو أي ورقة عليها اسم الله تعالى عامدًا في القاذورات.

الكفر الاعتقادي: ومكانه القلب كمن اعتقد أن الله تعالى يشبه شيئًا من مخلوقاته أو يعتقد أنه نورٌ بمعنى الضوء أو أنه روحٌ أو أنه مِلأ السماوات أو الأرض أو أنه جسمٌ ساكن في السماء أو قاعد فوق العرش. فيجب على من وقعت منه ردة (أي كفرٌ) العود فورًا إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين والإقلاع عمَّا وقعت به الردة، ويجب عليه الندم على ما صدر منه والعزم على أن لا يعود لمثله.

والحمد لله رب العالمين

الدرس التاسع – مَن هم أهل السُنَّة والجماعة

الحمدُ للهِ الذي لا شَأنَ يَشْغَلُه، ولا نِسْيَانَ يُذْهِلُه، ولا قِاطِعَ لِمَنْ يَصِلُه، ولا نَاصِرَ لِمَنْ يَخْذُلُه، جَلَّ رَبِّي عَن نِدٍّ يُشَارِكُه، أو نَظِيرٍ يُقابِلُه، يُثِيبُ بالعَمَلِ القَلِيلِ ويَقْبَلُه، ويَحْلُمُ عَلى العَاصِي فلا يُعَاجِلُه، ويَدَّعِي الكَافِرُ شَرِيكاً ويُمْهِلُه، اسْتَوَى عَلى العَرْشِ وما العَرْشُ يَحْمِلُه، وتَنَزَّهَ عَنْ مَثِيلٍ فَلا شَئَ يُشْبِهُه، هذا جُمْلَةُ اعْتِقَادِنَا وهذا حَاصِلُه، ومَنْ ادَّعَى عَلَينَا التَشْبِيهَ والتَعْطِيلَ فاللهُ يُحَاسِبُه، طَرِيقُنَا طَرِيقُ الأَشْعَرِي ومَنْ كَانَ يُوافِقُه، ونَرْفُضُ قَوْلَ جَهْمِ بنِ صَفْوَانَ وقَدْ عُرِفَ بَاطِلُه، وأُصَلِّ وأُسَلِّمُ عَلى رَسُولِ الهُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ الذي ارْتَجَّتْ لَيْلَةَ وِلادَتِه أَعَالِي الإِيْوَانِ وأَسَافِلُه، وعَلَى صَاحِبِه أَبِي بَكْرٍ ثَانِيَ اثْنَينِ فَعْرِفُوا مَنْ قَائِلُه، وعَلى عُمَرَ الذِي صَفَا الإِسْلامُ بِجِدِّه وعَذُبَتْ مَنَاهِلُه، وعَلى عُثْمَانَ الذي نَالَ الشَّهَادَة ومَا تَعِبَتْ رَحَائِلُه، وعَلى عَلِيٍّ بَحْرِ العُلُوم الذي امْتَدَّتْ سَوَاحِلُه.

وأَشْهدُ أنَّ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه، ولا ضِدَّ ولا نِدَّ ولا زَوْجَةَ ولا وَلَدَ له، ولا شَبِيْهَ ولا مَثِيلَ لَه ولا جِسْمَ ولا حَجْمَ ولا جَسَدَ ولا جُثَّةَ لَه، ولا صُورَةَ ولا أَعْضَاءَ ولا كَيْفِيَّةَ ولا كَمْيَّة لَه، ولا أَيْنَ وَلا جِهَةَ ولا حَيِّزَ ولا مَكَانَ لَه، كَانَ اللهُ ولا مَكان وهوَ الآنَ عَلى مَا عَلَيْهِ كَان، فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَال، وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى، تَنَزَّه رَبِّي عَنِ الجُلُوسِ والقُعُود، وعَنِ الحَرَكَةِ والسكُون، وعَنَ الاتِّصَالِ والانْفِصَال، لا يَحُلُّ فِيهِ شَئ ولا يَنْحَلُّ مِنْهُ شَئ، ولا يَحُلُّ هُوَ في شَئ، لِأَنَّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَئ، مَهْمَا تَصَوَّرتَ بِبَالِك فَاللهُ لا يَشْبِهُ ذَلِك، ومَنْ وَصَفَ اللهَ بِمَعْنىً مِنْ مَعَانِي البَشَر فَقَدْ كَفَر.

أما بعد:

ليُعلَم أن أهل السنة هم جمهور الأُمَّة المحمدية وهم الصحابة ومن تبعهم في المعتقد أي أصول الاعتقاد، وهي الأمور الستة المذكورة في حديث جبريل الذي قال فيه الرسول ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». وأفضل هؤلاء أهل القرون الثلاثة المُرادون بقول رسول الله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونَهم» والقرن معناه مائة سنة كما رَجَّحَ ذلك الحافظ أبو القاسم بن عساكر وغيره، وهم المرادون أيضًا بحديث الترمذي وغيره: «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وفيه قوله: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» صححه الحاكم وقال الترمذي: حسن صحيح، وهم المرادون أيضًا بالجماعة الواردة فيما رواه أبو داود من حديث معاوية: «وإن هذه المِلَّة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة». والجماعة هم السواد الأعظم ليس معناه صلاة الجماعة، كما يُوضِّح ذلك حديث زيد بن ثابت أن الرسول ﷺ قال: «ثلاثٌ لا يُغَل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من وراءَهم» قال الحافظ ابن حجر: حديث حسن.

ثم حَدَثَ بعد مائتين وستين سنة انتشار بدعة المعتزلة وغيرهم فقيَّضَ الله تعالى إمامين جليلين أبا الحسن الأشعريّ وأبا منصور الماتريديّ -رضي الله عنهما- فقاما بإيضاح عقيدة أهل السنة التي كان عليها الصحابة ومن تبعهم بإيراد أدلةٍ نقليةٍ وعقليةٍ مع رد شُبه المعتزلة وهم فِرق عديدة بلغ عددهم عشرين فرقة، فقاما بالرد على كل هذه الفرق أَتَم القيام بِرَد شُبَهِهم وإبطالها فنُسب إليهما أهل السنة، فصار يقال لأهل السنة أشعريون وماتريديون.

الأشاعرة والماتوريدية

لقد كان المسلمون في زمن النبي ﷺ على طريقةٍ واحدة لم يكن بينهم خلاف في العقيدة، ثم ظهرت في خلافة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فرقة الخوارج ثم ظهرت فيما بعد القدريّة وهم المعتزلة وظهرت المُرجئة، وفي أيام المأمون العباسي ظهر النجارية وغيرها من الفرق الضالة.

ولا زال علماء الإسلام يردون على أهل البدع ليَحْذَرهم الناس، ومن هؤلاء العلماء أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري الذي ولد بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وتوفي قبل منتصف القرن الرابع الهجري فقام هذا الإمام بتفنيد شُبه أهل الزيغ فلم يُسرف في التعطيل ولم يُغل في التشبيه وألهمه الله نصرة السنة بحجج المنقول والمعقول، فأثبت لله سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ونفى عنه ما لا يليق بجلال الله تعالى، فهو -رحمه الله- لم يبتدع رأيًا ولا مذهبًا وإنما هو مقررٌ لمذاهب السلف مناضلٌ عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عَقَدَ على طريق السلف نِطاقًا وتمسك به وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدي به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريًا، فمن هنا جاءت تسمية الأشاعرة نسبةً لهذا الإمام.

وفي زمن هذا الإمام أيضًا قام بنصرة أهل الحق الإمام أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي نسبة إلى ماتريد وهي مَحِلَّة بسمرقند فيما وراء النهر، فصار له أتباعٌ يدافعون عن عقيدة أهل السنة ويكشفون انحراف المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، وعُرف المنتسبون إليه باسم الماتريدية، فصار يقال لأهل السنة أشعريون وماتريديون.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ المائـــدة [٥٤].

أخرج الحافظ ابن عساكر في تبيين كذب المُفتري والحاكم في المستدرك «لمّا نزلت: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قومك يا أبا موسى وأومأ رسول الله ﷺ بيده إلى أبي موسى الأشعري» اهـ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه الإمام الطبري في تفسيره وابن أبي حاتم كذلك، وابن سعد في طبقاته والطبراني في معجمه الكبير وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجالُه رجالُ الصحيح.

قال القشيري: فأتباع أبى الحسن الأشعري من قومه لأن كل موضع أضيف فيه قوم إلى نبي أريد به الأتباع، قاله القرطبي في تفسيره.

وقال البيهقي: وذلك لما وجد فيه من الفضيلة الجليلة والمرتبة الشريفة للإمام أبى الحسن الأشعري -رضى الله عنه- فهو من قوم أبى موسى وأولاده الذين أوتوا العلم ورزقوا الفهم مخصوصًا من بينهم بتقوية السنة وقمع البدعة بإظهار الحجة ورد الشبهة» ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري.

وذكر الإمام البخاري في صحيحه باب « قدوم الأشعريّين وأهل اليمن وقال أبو موسى عن النبي ﷺ هم منّي وأنا منهم» اهـ

ولما نزلت هذه الآية قَدِم بعد ذلك بيسير سفائن الأشعريين وقبائل اليمن فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبًا الايمان يمان والحكمة يمانية.. »

وأخرج البخاري في صحيحه عن عمران بن الحصين أن النبي أتاه أناس من بني تميم فقال ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا بشرتنا فأعطنا مرتين فتغير وجهه -أي للأسف عليهم كيف آثروا الدنيا-، فجاءه أناس من أهل اليمن فقال:«يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان، قال ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره».

ونحن نحمد الله تعالى على هذه العقيدة السنية التي نحن عليها والتي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، والتي مدحَ الرسول ﷺ معتنقها، فقال فيما رواه الإمام أحمد والبزار والطبراني والحاكم بسند صحيح: «لَتُفْتَحَنَّ القسطنطينية فلنِعم الأمير أميرها ولنِعم الجيش ذلك الجيش»، ولقد فتحت القسطنطينية بعد تسعمائة عام، فتحها السلطان محمّد الفاتح الماتريدي -رحمه الله- وما امتداح النبي ﷺ في حديثه لفاتح القسطنطينية ولجيشه إلا بشرى عظيمة للأشاعرة الذي كان الفاتح منهم ويعتقد معتقدهم ويناضل عنه فالنبي مدح جيش الأشاعرة وأميره والنبي -عليه الصلاة والسلام- لا يمدح كافرًا أبدًا.

وعلى هذا الاعتقاد مئات الملايين من المسلمين سلفًا وخلفًا في الشرق والغرب تدريسًا وتعليمًا ويشهد بذلك الواقع المُشاهَد، ويكفي لبيان حقّية هذا كون الصحابة والتابعين وأتباع التابعين (وهم السلف الصالح) ومن تبعهم بإحسان على هذه العقيدة، فممن تبعهم بإحسان: هؤلاء الحُفّاظ

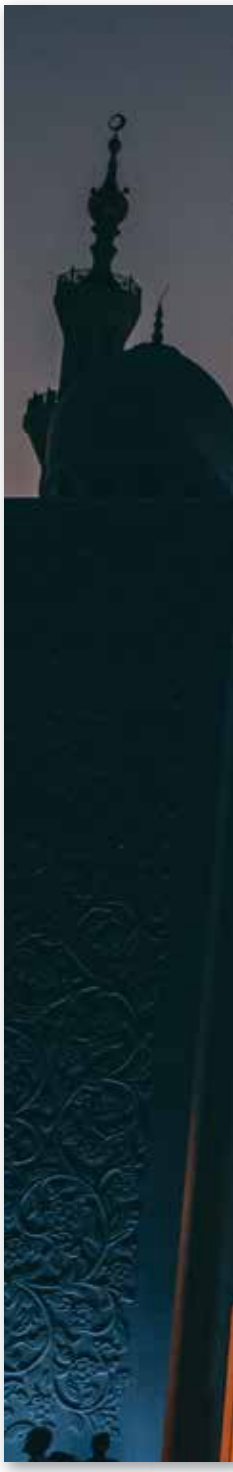

الذين هم رؤوس أهل الحديث الحافظ أبو بكر الإسماعيلي صاحب المستخرج على البخاري، ثمّ الحافظ العَلَمُ المشهور أبو بكر البيهقي ثمّ الحافظ الذي وُصف بأنّه أفضل المحدّثين بالشام في زمانه ابن عساكر، كان كل واحد من هؤلاء علَمًا في الحديث في زمانه، ثمّ جاء من هو على هذا المنوال الحافظ الموصوف بأنّه أمير المؤمنين في الحديث أحمد ابن حجر العسقلاني، فمن حقّق عرف أن الأشاعرة فرسان ميادين العلم والحديث، ومنهم مجدّدُ القرن الرابع الهجري الإمام أبو الطيب سهلُ بن محمّد وأبو الحسن الباهلي وأبو بكر بن فورك وأبو بكر الباقلاّني وأبو إسحق الإسفراييني والحافظ أبو نعيم الأصبهاني والقاضي عبد الوهّاب المالكي والشيخُ أبو محمّد الجويني وابنه أبو المعالي إمام الحرمين وأبو منصور البغدادي والحافظ الدّارقطني والحافظ الخطيب البغدادي والأستاذ أبو القاسم القشيري وابنه أبو نصر والشيخ أبو إسحق الشيرازي ونصر المقدسي والغزالي والفراوي وأبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي وقاضي القضاة الدامغاني الحنفي وأبو الوليد الباجي المالكي والإمام السيّد أحمد الرفاعي وابن السمعاني والقاضي عياض والحافظ السِّلَفي والنووي وفخر الدين الرازي والعزّ بن عبد السلام وأبو عمرو بن الحاجب المالكي وابن دقيق العيد وعلاء الدين الباجي وقاضي القضاة تقيّ الدين السبكي والحافظ العلائي والحافظ زين الدين العراقي وابنه الحافظ وليّ الدين والحافظ مُرتضى الزبيدي الحنفي والشيخ زكريّا الأنصاري والشيخ بهاء الدين الروّاس الصوفي ومفتي مكّة أحمد زيني دحلان ومُسنِد الهند وليّ الله الدهلوي ومفتي مصر الشيخ محمّد عليش المالكي المشهور وشيخ الجامع الأزهر عبدالله الشرقاوي والشيخ المشهور أبو الحسن القاوُقجي نُقطة البيكار في أسانيد المتأخّرين والشيخ حسين الجسر الطرابلسي والشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت والعلامة علوي بن طاهر الحضرمي الحداد وشافعي العصر رفاعي الأوان الشيخ الفقيه المحدث عبد الله الهرري والشيخ الصوفي الصادق مصطفى نجا مفتي بيروت وغيرهم من أئمة الدين كثير لا يُحصيهم إلا الله.

ومنهم السُلطان صلاحُ الدينِ الأيوبي (ت٥٨٩ هـ) كانَ تقيًا عادلًا صالحًا، وهو الذي أخرجَ الكُفارَ من بيتِ المقدس بعدَ أن احتلوهُ تسعينَ سنة، وهذا لهُ شرفٌ عظيم -رضي اللهُ عنهُ- وجزاهُ عن الإسلامِ خيرًا، وكانَ تحت الخليفةِ العباسي، كانَ ولي برَ الشام كُلَهُ، واليمنَ كُلَهُ بما فيهِ من الإمارات وقطر والبحرين وعُمان، والحِجازَ كُلَه، ونجدًا كُلَهُ وهي البِلادُ التي يُسمى بَعضُها الرياض وبعضُها الدرعية وبعضُها بريدة، وولي مِصرَ، وكانَ صلاحُ الدين أشعري العقيدة شافعي المذهب، وكانَ حافظًا القُرآن وكتاب التنبيه في الفقه الشافعي وهو كِتابٌ كبيرٌ، اليوم العُلماء لا يحفظونهُ إلا النادر، وكان حافظًا لِكِتابِ الحماسة، أمر المؤذنين بقراءة العقيدةَ الأشعرية على المآذنِ قبلَ الفجرِ من شدةِ اهتمامهِ بهذهِ العقيدة، وكانَ أمرَ بتعليمِ كتاب «حدائق الفصول وجواهر العقول» الذي ألَّفهُ عالمٌ من عُلماء ذلِك العصر فقدمهُ للسُلطان صلاح الدين، فأعجب بهِ السُلطان فقرر تدريسهُ للصِغارِ والكِبار، وهو هذا الكِتاب المُسمى العقيدة الصلاحية شُهِرَ بينَ عُلماء أهل السنة بهذا اللفظ لأنهُ قررَ تدريسَ هذهِ العقيدة في المدارِس للصِغار والكِبار قالَ محمد بنُ هبة الله البرمكي (ت ٥٩٩ هـ) في هذا الكِتاب:

جمعتُها للملِكِ الأمين ... الناصر الغازي صَلاح الدّين

عزيز مصر قيصر الشَام ومَنْ ... ملَّكَهُ اللهُ الحِجازَ واليمنْ

ذي العَدلِ والجُودِ معًا والباسِ ... يوسفَ مُحيي دولةِ العباس

ابنِ الأجلّ السيدِ الكبيرِ ... أيوبَ نَجمِ الدينِ ذي التَّدبيرِ

لا زالتِ الأيامُ طَوْعَ أمرهِ ... والسَّعْدُ يَسعى معَ جيوشِ نصرِهِ

حتى ينالَ منتهى آمالِهِ ... مؤيَّدًا ممتَّعًا بآلِهِ

وصانعُ العَالَمِ لا يَحْوِيهِ ... قُطْرٌ تَعَالَى اللهُ عَنْ تَشْبِيهِ

قد كَانَ موجُودًا ولا مكانَ ... وحكمه الآن على ما كانَ

سبحانه جلّ عن المكان ... وعزّ عن تغير الزمان

فقد غلا وزاد في الغُلوّ ... من خصه بجهة العُلوّ

وحصر الصانع في السماء ... مبدعها والعرش فوق الماء

وأثبتوا لذاته التحيزا ... قد ضلّ ذو التشبيه فيما جوّزا

ثم قال في هذه العقيدة:

إنّ الذي يؤمن بالرحمن ... يثبت ما قد جاء في القرآن

من سائر الصفات والتنزيه ... عن سَنن التعطيل والتشبيه

من غير تجسيم ولا تكييف ... لما أتى فيه ولا تحريف

فإن من كيّف شيئًا منها ... زاغ عن الحق وضلّ عنها

وهكذا ما جاء في الأخبار ... عن النبي المصطفى المختار

ثم قال في هذه العقيدة:

وصانع العالم ذو كلامِ ... أوصل معناه إلى الأفهام

كلامه المنزل من صفاته ... وهو قديم قائم بذاته

وقل لمن قد كيَّف الكلام ... بالحرف والصوت معًا سلاما

فإنهم قد كابروا العيان ... وخالفوا الدليل والبرهان

فيا أولي التشبيه والتجسيم ... الحاء في الرحمن قبل الميم

وهكذا المتلو في كلامكم ... أيهما القديم في اعتقادكم

أضللتم الجهال بالتمويه ... لما سلكتم نهج التشبيه

وهذه العقيدة تُدرَّس في جامعة الأزهر في مصر وفي جامعة الزيتونة في تونس، بل وسائر المغرب العربي، وكذا في أندنوسيا وماليزيا وباكستان وتركيا وبلاد الشام والسودان واليمن والعراق والهند وإفريقيا وبخارى والداغستان وأفغانستان وسائر بلاد المسلمين.

ومنهم الملك الكامل الأيّوبي والسلطان الأشرف خليل بن المنصور سيف الدين قلاوون، بل وكل سلاطين المماليك.

وليس مُرادنا بما ذكرنا إحصاء الأشاعرة والماتريدية فمن يُحصي نجوم السماء أو يحيط علمًا بعدد رمال الصحراء؟

فيجب الاعتناء بمعرفة عقيدة الفرقة الناجية الذين هم السواد الأعظم، وأفضل العلوم علم العقيدة لأنه يبين أصل العقيدة التي هي أصل الدين، وهذا العلم سماه أبو حنيفة الفقه الأكبر. فيا طلاب الحق لا يُهَوِّلَنَّكُم قدح المُشَبِّهة المُجَسِّمة في هذا العلم بقولهم إنه علم الكلام المذموم لدى السلف، ولم يدروا أن علم الكلام المذموم هو ما ألفه المعتزلة على اختلاف فرقهم والمشبهة على اختلاف فرقهم من كرَّامِيَّةٍ وغيرها فإنهم قد افترقوا إلى عدة فرق بيّنها من ألَّفوا في بيان الفرق كالإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي.

نبذة عن الأشعري

قال الإمام أبو بكر البيهقي: «هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بِشر اسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى ابن أمير البصرة بلال بن أبي بُردة بن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري اليماني البصري، ولد سنة ٢٦٠ للهجرة، وقيل سنة سبعين، وتوفي سنة ٣٢٤ ببغداد جده أبو موسى ممن يؤخذ عنهم الفتيا في أصحاب رسول الله ﷺ، من أحسن الناس صوتًا في قراءة القرآن، وينسب إلى الجُماهر بن الأشعر، والأشعر من أولاد سبأ الذين كانوا باليمن، هاجر أبو موسى الأشعري مع أخويه في بضع وخمسين من قومه إلى أرض الحبشة وأقاموا مع جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- حتى قدموا جميعًا على رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر. رزق من الأولاد والأحفاد مع الدراية والرواية والرعاية ما يكثر نشره، وأساميهم في التواريخ مثبتة، إلى أن بلغت النوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري -رضي الله عنه -».

ثناء العلماء عليه:

- ذكر الإمام القشيري أن أصحاب الحديث اتفقوا أن أبا الحسن علي بن اسمعيل الأشعري -رضي الله عنه- كان إمامًا من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهبهم تكلم في الأصول على طريقة أهل السنة، ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة، وكان على المعتزلة والمبتدعين والخارجين سيفًا مسلولًا، تَفَّقه الأشعري على أبي إسحق المروزي وزكريا بن يحيى الساجي.

- قال الأستاذ الإمام الإسفراييني الفقيه الأصولي: «كنت في جنب الشيخ الباهلي كقطرة في البحر، وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي يقول: كنت أنا في جنب الأشعري كقطرة في جنب البحر».

- وقال البيهقي: «إن أبا الحسن الأشعري -رحمه الله- لم يحدث في دين الله حَدَثًا، ولم يأتِ فيه ببدعةٍ، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين فنصرها بزيادةٍ وشرحٍ وتبيين، وأن ما قالوا في الأصول وجاء به الشرع صحيح في العقول خلاف ما زعم أهل الأهواء فكان في بيانه تقويةً لنصرة أهل السنة والجماعة من الأئمة كأبي حنيفة وسفيان الثوري من أهل الكوفة، والأوزاعي وغيره من أهل الشام، ومالك والشافعي من أهل الحرمين، وأحمد بن حنبل وغيره من أهل الحديث كالبخاري ومسلم إمامي أهل الآثار وحُفَّاظ السنن التي عليها مدار الشرع رضي الله عنهم أجمعين».

- وقال تاج الدين السبكي: «لو أردنا استيعاب مناقب الشيخ الأشعري لضاقت بنا الأوراق، وكلّت الأقلام، ومن أراد معرفة قدره، وأن يمتلىء قلبه من حبه فعليه بكتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الاشعري) الذي صنفه الحافظ ابن عساكر الدمشقي فهو من أجلّ الكتب، وأعظمها فائدة وأحسنها، قال ابن أبي الحجاج الأندلسي في فهرسته: لو لم يكن للحافظ ابن عساكر من المنّة على الأشعري إلا هذا الكتاب لكفى به».

وقد زعم بعض الناس أن الشيخ الأشعري كان مالكيًا وليس ذلك بصحيح، إنما كان شافعيًا تفقَّه على أبي إسحق المروزي، نص على ذلك الأستاذ أبو بكر بن فورك في «طبقات المتكلمين» والأستاذ أبو إسحق الاسفراييني فيما نقله عنه الشيخ أبو محمد الجويني في «شرح الرسالة» أما شيخ الأشاعرة من المالكية فهو الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني.

مجانبته لأهل البدع وصحة اعتقاده:

نظر الإمام أبو الحسن الأشعري في كتب المعتزلة والجهمية (نسبة لجهم بن صفوان وهو رأس الجهمية، وهم ينفون الكسب عن العبد فيجعلونه كالريشة في مهب الريح) فوجد أنهم عطلوا وأبطلوا وقالوا والعياذ بالله: « لا علم لله، ولا قدرة، ولا سمع، ولا بصر ولا حياة ولا بقاء ولا إرادة »، وقالت الحشوية والمجسمة والعياذ بالله:«إن لله علمًا كالعلوم، وقدرة كالقدر وسمعًا كالأسماع وبصرًا كالأبصار» فسلك -رضي الله عنه- طريقة بينهما فقال: «إن لله سبحانه علما لا كالعلوم، وقدرة لا كالقدر، وسمعًا لا كالأسماع، وبصرًا لا كالأبصار ".

أما جهم بن صفوان فقال: «العبد لا يقدر على إحداث شيء ولا على كسب شيء».

وقالت المعتزلة والعياذ بالله: «هو (أي العبد) قادر على الكسب والإحداث (الخلق) معًا»

فسلك -رضي الله عنه- طريقةً بينهما فقال: «العبد لا يقدر على الإحداث ويقدر على الكسب» ونفى قدرة الإحداث وأثبت قدرة الكسب.

وقالت الحشوية المشبهة والعياذ بالله: «إن الله سبحانه يُرى مُكيّفًا محدودًا كسائر المرئيات»، وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية والعياذ بالله: «إنه سبحانه لا يرى بحال من الأحوال»، فسلك -رضي الله عنه- طريقًا بينهما فقال:« يرى من غير حلول ولا حدود ولا تكييف، وهو غير محدودٍ ولا مُكَيَّف».

وقالت النجارية والعياذ بالله: «إن الله بكل مكان من غير حلول ولا جهة»، وقالت الحشوية والمجسمة والعياذ بالله: «إنه سبحانه حالٌّ في العرش، وإن العرش مكان له وهو جالسٌ عليه»، فسلك -رضي الله عنه- طريقًا بينهما فقال: « كان ولا مكان، فخلق العرش والكرسي ولم يحتج إلى مكان، وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه».

وقالت المرجئة والعياذ بالله: «من أخلص لله سبحانه مرة في إيمانه لا يكفر بارتداد ولا كفر ولا يكتب عليه كبيرة قط»، وقالت المعتزلة: «إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعاته مائة سنة لا يخرج من النار قط».

فسلك -رضي الله عنه- طريقًا بينهما فقال: «المؤمن الموحد الفاسق هو في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله الجنة».

اجتهاده في العبادة وزهده فيها:

كان الشيخ أبو الحسن الأشعري عجيبًا في الذكاء وقوة الفهم وتبحره في العلم، وكان قريبًا من عشرين سنة يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة، وكان لا يحكي عن اجتهاده شيئًا إلى أحد، كان كثير الحياء في أمور الدنيا ونشيطًا في أمور الآخرة، وكان يأكل من غلَّة ضيعة جدّه بلال بن أبي بردة على عقبه، وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهمًا لكل شهر درهم وقليل.

مصنفاته:

ذكر الإمام الأشعري -رحمه الله- في كتابه «العمد» أسماء أكثر كتبه، فمنها «الإبانة» و «الفصول» في الرد على الملحدين الخارجين عن الملة كالفلاسفة (مثل أرسطو وأفلاطون والفارابي ونحوهم، وهم القائلون بقدم العالم وأزليته، والإمام الغزالي رد مستفيضًا عليه) والطبائعيين (وهم القائلون بأن الطبيعة – على زعمهم – هي الخالق) الدهريين وأهل التشبيه، والقائلين بأزلية الدهر، ورد على البراهمة (وهم طائفة يكثر وجودها في الهند، هم من منكري النبوة) و اليهود و المجوس (عبدة النار، وهم القائلون بخالقَين، فيزعمون أن النور خالق الخير وأن الظلمة تخلق الشر وهم فرق: منهم المانوية والديصانية والمزدكية) وهو كتاب يشتمل على اثنتي عشر كتابًا، وكتاب «إيضاح البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان» وكتاب «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» و «اللمع الكبير» وكتاب «التفصيل في الرد على الإفك والتضليل» وكتاب «النقض على الجبّائي» والجبائي هذا رأس متكلمي المعتزلة وكتاب «مقالات المسلمين» و «جمل المقالات » و «الجوابات في الصفات» و «القامع لكتاب الخالدي» و «الدافع للمهذب» و «المختصر في التوحيد والقدر» و «كتاب الطبريين» و «الفنون» و «جواب المصريين» و «المسائل على أهل التثنية » و «تفسير القرآن» و «زيادات النوادر» و «جوابات أهل فارس» و «الجوهر» و «الاحتياج» و «الأخبار» و «الإيمان» و«أفعال النبي» و «دلائل النبوة» و «كشف الأسرار» و «والموجز» و«الاحتجاج» و «إثبات القياس» وغيرها كثير، فقد كان الأشعري -رحمه الله- مُكثرًا في التصنيف ويقال إن تصانيفه بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب .

وكتاب «الإبانة» وهو من تأليف أبي الحسن، لكن أكثر نسخه سقيمة وكل النسخ التي تنقل منها المجسمة القدماء منهم والمحدثون غير صحيحة لأنها لم تكن مقابلة بيد ثقة على نسخة قابلها ثقة وهكذا إلى أصل المؤلف الذي كتبه بخطه أو كتبه ثقة بإملاء المؤلف فقابله على المؤلف. وابن عساكر لم يسرد الإبانة كلها وإنما ذكر بعضًا ليس فيه ما هو صريح في التجسيم والتشبيه، بل يوجد في النسخ المطبوعة من الإبانة ما لا يخفى على جميع المسلمين أنه مُفترَى ولا يُصدّق على المبتدىء من طلاب العلم. وفي هذه النسخ السقيمة مما أدخلته الحشوية من الجمل التي لا يقول بها أدنى مسلم فكيف بالإمام الأشعري؟!

ومما يدل على تبرئة الأشعري من ذلك ما نقله عنه الشيخ ابن فورك -رحمه الله- فقد جمع كلامه في مؤلَّف وفيه من الكلام ما يدل على أن ما في الإبانة من التجسيم هو مُفتَرًى على أبي الحسن -رحمه الله-. ثم إن الإبانة ليست مؤلف أبي الحسن الوحيد، وليست آخر مؤلفاته على الإطلاق، بل مذهب الإمام من الأئمة ما أطبق عليه أصحابه الثقات على نسبته إليه، ومسألة تنزيه الله عن التحيز في العرش والسماء وغيرهما من الأماكن مما عرف أنه طريق الأشعري بالتواتر على القطع والجزم فلا وجه للمِرَاء في ذلك.

وبعد فإن ما ذكره علماء أهل الحق من معاصري الإمام الأشعري ومن جاء بعدهم في مدح طريقته وصحة اعتقاده ليثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن أبا الحسن الأشعري إمام أهل السنة الجماعة وأن ما يدَّعيه المجسمة والمشبهة ونفاة التوسل بشأنه ما هو إلا محض افتراء يرمون من وراءه إلى نشر عقائدهم الفاسدة وهي التشبيه والتجسيم، ومن رام مزيد الاطلاع على سيرة إمامنا أبي الحسن الأشعري -رضي الله عنه- فنحيله إلى حيث أحال الإمام تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» المستزيدين من أخبار الأشعري، ونعني بذلك كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» للإمام ابن عساكر الدمشقي. هذا، وبالله التوفيق.

والحمد لله أوَّلا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد الأمين،

وآله الطاهرين، وصحابته الطيبين.

ملاحظات

الدرس العاشر–حكم التوسل والتبرك والاستغاثة في الإسلام

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد:

أولًا: حكم التوسل:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ المائدة [٣٥]

لقد جعل الله سبحانه وتعالى من الأسباب المعينة لنا لتحقيق مطالب لنا التوسل بالأنبياء والأولياء في حال حياتهم وبعد مماتهم.

فالتوسل: هو طلب حصول منفعة أو اندفاع مَضرّة من الله بذكر اسم نبي أو ولي إكرامًا للمُتوَسِّل به. **الطلب من الله لأن الأنبياء والأولياء لا يخلقون مضرةً ولا منفعةً، ولكن نحن نسأل الله بهم رجاء تحقيق مطالبنا** فنقول: اللهمّ إني أسألك بجاه رسول الله أو بحرمة رسول الله أن تقضي حاجتي وتفرّج كربي، فالتوسّل بالأنبياء والأولياء جائز في حال حضرتهم وفي حال غيبتهم، ومناداتهم جائزة في حال غيبتهم وفي حال حضرتهم كما دلّت على ذلك الأدلّة الشرعية، فرسول الله ﷺ علّم الأعمى أن يتوسّل به فتوسل الأعمى الضرير برسول الله، توسّل بحبيب الله، توسّل بأفضل خلق الله فردّ الله تعالى إليه بصره، فلقد علّمه رسول الله ﷺ أن يقول: اللهمّ إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبي الرحمة يا محمّد إني أتوجّه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى لي.

ثم هذا الأعمى لم يكن حاضرًا في مجلس رسول الله ﷺ بدليل أن راوي الحديث عثمان بن حنيف قال لَما روى حديث الأعمى: فوالله ما تفرّقنا ولا طال بنا المجلس حتى دخل علينا الرجل وقد أبصر.اهـ

فمن قوله: «حتى دخل علينا» علمنا أن هذا الرجل لم يكن حاضرًا في المجلس حين توسّل برسول الله ﷺ. الحديث رواه جمع من الحفاظ كالحافظ الطبراني وصححه.

وقال الفقيه المجتهد عليّ السبكي في كتابه شفاء السقام: «اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين ولم ينكر أحدٌ ذلك» أي من العلماء المعتبرين. اهـ

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ما نصه: «وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمّان عن مالك الدار قال أصاب الناس قحطٌ (أي مجاعة) في زمن عمر (أي في خلافته) فجاء رجل (من الصحابة) إلى قبر النبي ﷺ فقال : يا رسول الله استسقِ لأمتك فإنهم قد هلكوا، (معناه اطلب من الله المطر لأمتك) فأُتِيَ الرجلُ في المنام فقيل له إيتِ عمر فأقرئه مني السلام وأخبره أنهم يسقون (أي سيأتيكم المطر) وقل له عليك بالكيس الكيس (أي اجتهد في أمر الأمّة) فأتى الرجل فأخبر عمر فقال: يا ربّ ما آلوا إلا ما عجزت» أي لا أقصّر مع الاستطاعة أي سأسعى ما في وسعي لخدمة الأمّة.

وهذا الرجل هو بلال بن الحارث المزني الصحابي قصد قبر رسول الله ﷺ للتبَرّك وقال «يا رسول الله استسقِ لأمّتك فإنهم قد هلكوا» فلم ينكر عليه عمر ولا غيره.

واعلم رحمك الله تعالى بتوفيقه أنه لا دليل حقيقي يدلّ على عدم جواز التوسّل بالأنبياء والأولياء في حال غيبتهم أو بعد وفاتهم بدعوى أن ذلك عبادة لغير الله لأنه ليس عبادةً لغير الله مجرّد النداء لحيٍّ أو ميّت ولا مجرّد التعظيم ولا مجرّد الاستعانة بغير الله ولا مجرّد قصد قبر وليٍّ للتبرّك.

فالعبادة أقصى غاية الخشوع والخضوع، وقال بعض العلماء: هي نهاية التذلّل.اهـ ونهاية التذلل لا تكون إلا لله. فليس مجرّد التذلل عبادة لغير الله وإلا لكفر كل من يتذلل للملوك والعظماء، وقد ثبت أن «معاذ بن جبل لَما قدِم من الشام سجد لرسول الله»، والسجود مظهر كبير من مظاهر التذلل. فقال الرسول: **ما هذا**؟ فقال: يا رسول الله إني رأيت أهل الشام يسجدون لبطاركتهم وأساقفتهم وأنت أولى بذلك. فقال له ﷺ: «**لا تفعل لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» ولم يقل له رسول الله ﷺ كفرت ولا قال له أشركت مع أن سجوده للنبي مظهر كبير من مظاهر التذلل.

وللبيان أخي السائل السجود لإنسان ليس على وجه العبادة إنما على وجه التحية حرام في شرع سيّدنا محمد ﷺ.

فحصّن نفسك أخي المسلم بعلم الدين لتضع الأمور في نصابها فتحرّم ما حرّمه الله وتحلِّل ما أحلّه الله.

ثانيًا: حكم التبرك

سؤال: هل يجوز التبرك بآثار النبي ﷺ، وآل بيته والصالحين، وهل التبرك بآثاره مخصوص بحياته ﷺ؟

الجواب:

التبرك لغة: طلب البركة، والبركة هي: النماء والزيادة. قال الراغب الأصفهاني: البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء. قال ابن منظور: «البَرَكة النَّماء والزيادة، والتَّبْريك الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة، يقال: بَرَّكْتُ عليه تَبْريكًا، أي قلت له بارك الله عليك. وبارك الله الشيءَ، وبارك فيه، وعليه، وضع فيه البَرَكَة، وطعام بَريك، كأنه مُبارك» لسان العرب.

والمسلم يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو خالق البركة، فالبركة من الله لمن شاء أن يباركه، والله سبحانه بحكمته يختار من الأزمان ما يباركها، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ الدخان [٣].

ويختار سبحانه من الأماكن ما يباركها، قال سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾ الأعراف [١٣٧].

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ الإسراء [١].

وقال سبحانه ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ الأنبياء [٧١].

وقد بارك البيت الحرام، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ آل عمران [٩٦].

ويختار سبحانه من الأشخاص من يباركهم، فبارك الأنبياء وأهل بيتهم، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ هود [٧٣].

وبارك أتباع الأنبياء، ومن تبعهم، قال الله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ هود [٤٨].

وأثبت سبحانه أن أنبياءه -عليهم السلام- يصطحبون بركتهم أينما ذهبوا، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ مريم [٣١].

ويبارك الله المؤمنين المتبعين لمنهج الله، فقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ الأعراف [٩٦].

ويستحب للمؤمن أن يلتمس بركة هذه الجهات التي ثبتت بركتها من عند الله سبحانه وتعالى، فيستحب للمؤمن التبرك بالنبي ﷺ وآثاره، وقد ثبت ذلك التبرك من صحابة سيدنا رسول الله ﷺ بذاته وآثاره، ولم ينكر عليهم بل ورد عنه ﷺ إجابته بالتبريك لهم وعليهم، أخرج البخاري بسنده عن عروة عن المِسْوَر وغيره يُصَدِّق كل واحد منهما صاحبه: «وإذا توضأ النبي ﷺ كادوا يقتتلون على وَضوئه» رواه البخاري في صحيحه.

وفي حديث صلح الحديبية في البخاري من حديث المِسْوَر بن مخرمة، بعد رجوع عروة بن مسعود إلى قريش: «فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت

على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت مَلكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ ﷺ محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها» أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له، ومسلم في صحيحه.

وقد صح عنه ﷺ أنه كان: «يؤتى بالصبيان فيُبَرِّك عليهم ويُحَنِّكهم» رواه مسلم في صحيحه،

وعن أسماء: «أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة. قالت: فخرجت وأنا مُتِم، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنّكه بالتمرة، ثم دعا له وبَرَّك عليه، وكان أول مولود وُلد في الإسلام» أخرجه البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه واللفظ له.

وكانت أسماء بنت أبي بكر تقول للحجاج: «أن النبي ﷺ احتجم فدفع دمه إلى ابني -تقصد عبد الله بن الزبير- فشربه فأتاه جبريل -عليه السلام فأخبره- فقال: ما صنعت؟ قال: كرهت أن أصب دمك، فقال النبي ﷺ: لا تمسك النار، ومسح على رأسه» أخرجه الحاكم في المستدرك، والدارقطني في سننه واللفظ له، وذكره السيوطي في الخصائص الكبرى، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

عن عُميرة بنت مسعود -رضي الله عنها-: «أنها دخلت على النبي ﷺ هي وأخواتها يبايعنه وهن خمس فوجدنه وهو يأكل قديدًا فمضغ لهن قديدة ثم ناولنى القديدة فمضغتها كل واحدة منهن قطعة فلقين الله وما وجدن لأفواههن خلوف» رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

هذا ما يخص التبرك بآثار النبي ﷺ في حياته، وأما التبرك بآثار الصالحين، فأصل أدلة هذا الباب هي نفس أحاديث التبرك بآثار النبي ﷺ، ذلك لأن الأصل عدم اختصاص تلك البركة بالنبي ﷺ وإن كانت مقامها من النبي ﷺ أعلى، وهذا ما فهمه كبار شُرَّاح السنة النبوية المطهرة كالنووي، وابن حجر، وغيرهما.

قال الإمام النووي عقب حديث الاستشفاء بجُبة رسول الله ﷺ: «وفي هذا الحديث دليل على استحباب التبرك بآثار الصالحين وثيابهم» شرح النووي على صحيح مسلم.

وقال: «قوله فخرج بلال بوضوء فمن نائل بعد ذلك وناضح تبركًا بآثاره ﷺ، وقد جاء مبينًا في الحديث الآخر: فرأيت الناس يأخذون من فضل وضوئه، ففيه التبرك بآثار الصالحين واستعمال فضل طهورهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم» شرح النووي على صحيح مسلم.

وقال كذلك الإمام النووي: «وفي هذا الحديث فوائد: منها تحنيك المولود عند ولادته وهو سنة بالإجماع كما سبق، ومنها أن يُحَنّكه صالح من رجل أو امرأة، ومنها التبرك بآثار الصالحين وريقهم وكل شيء منهم» شرح النووي على صحيح مسلم.

وقال: «أما أحكام الباب ففيه استحباب تحنيك المولود، وفيه التبرك بأهل الصلاح والفضل، وفيه استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل للتبرك بهم، وسواء في هذا الاستحباب المولود في حال ولادته وبعدها» شرح النووي على صحيح مسلم.

وقال في باب قربه ﷺ من الناس وتبركهم به وتواضعه لهم: «وفيه التبرك بآثار الصالحين وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره ﷺ وتبركهم بإدخال يده الكريمة في الآنية وتبركهم بشعره الكريم وإكرامهم إياه أن يقع شيء منه إلا في يد رجل سبق إليه» شرح النووي على صحيح مسلم.

قال ابن حجر -عقب حديث صلاته ﷺ لعتبان ابن مالك في بيته ليتخذ هذا الموضع مصلى له: «وفيه التبرك بالمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ أو وطئها، ويستفاد منه أن من دُعي من الصالحين ليتبرك به أنه يجيب إذا أمن الفتنة» شرح النووي على صحيح مسلم.

قال الحافظ عقب حديث الرجل الذي طلب البردة من النبي ﷺ ولامه أصحابه على ذلك: «وفيه جواز استحسان لإنسان ما يراه على غيره من الملابس وغيرها إما ليعرفه قدرها وإما ليعرض له بطلبه منه حيث يسوغ له ذلك، وفيه مشروعية الإنكار عند مخالفة الأدب ظاهرًا وإن لم يبلغ المنكر درجة التحريم، وفيه التبرك بآثار الصالحين » فتح الباري.

وقال: «قيل: الحكمة في تأخير الإزار معه إلى أن يفرغ من الغسل ولم يناولهن إياه أولًا ليكون قريب العهد من جسده الكريم، حتى لا يكون بين انتقاله من جسده إلى جسدها فاصل، وهو أصل في التبرك بآثار الصالحين وفيه جواز تكفين المرأة في ثوب الرجل» فتح الباري.

وقال الحافظ في حديث اللديغ: «وفي الحديث التبرك بالرجل الصالح وسائر أعضائه وخصوصًا اليد اليمنى» فتح الباري.

وقال في حديث آخر: «وفيه استعمال آثار الصالحين ولباس ملابسهم على جهة التبرك والتيمن بها» فتح الباري.

وقد بَوبَ الحافظ ابن حبان في صحيحه بابًا بعنوان: «باب ذِكْرُ ما يُستحبُّ للمِرء التَّبرك بالصالحينَ وأشباهِهم» وأورد تحته حديث: أخبرنا أحمدُ بنُ علي بن المثنى، قال: حَدَّثنا أبو كريبٍ، قال: حدثنا أبو أسامة، عن بُرَيْد بن عبد الله، عن أبي بُردة عن أبي موسى قال: كنتُ عِنْدَ رسولِ اللَّهِ، نَازِلا بِالجِعْرانَةِ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَمَعَهُ بِلالٌ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: أَلا تُنْجِزُ لي يَا مُحَمَّدُ مَا وَعَدْتَنِي؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «أَبْشِرْ». فَقَالَ لَهُ الأَعْرَابِيُّ: لَقَدْ أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنَ البُشْرَى، قال: فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَى أبي مُوسَى وَبِلالٍ كَهَيْئَةِ الْغَضْبَانِ، فَقَالَ: «إِنَّ هذا قَدْ رَدَّ الْبُشْرَى، فَاقْبَلا أَنْتُما». فَقَالا: قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قال: فَدَعَا رسولُ اللَّهِ بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قال لَهُمَا: «اشْرَبَا مِنْهُ، وَأَفْرِغا عَلَى وُجُوهِكُمَا أَوْ نُحُورِكُمَا». فَأَخَذَا الْقَدَحَ فَفَعَلا مَا أَمَرَهُما بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، فَنَادَتْنَا أُمُّ سَلَمَةَ مِن وَرَاءِ السِّتْرِ، أَن أَفْضِلا لأُمِّكُمَا في إِنَائِكُمَا، فَأَفْضَلا لَهَا مِنْهُ طَائِفَة» صحيح ابن حبان.

مما يشير إلى أنهم كانوا يستدلون بأحاديث التبرك بآثار النبي ﷺ على جواز التبرك بالصالحين، وقد ورد عن الإمام أحمد بن حنبل أنه تبرك بجبة يحيى بن يحيى نقل ذلك ابن مفلح، حيث قال: قال المروذي في كتاب الورع: «سمعت أبا عبد الله يقول قد كان يحيى بن يحيى أوصى لي بجبته فجاءني بها ابنه فقال لي فقلت رجل صالح قد أطاع الله فيها أتبرك بها» الآداب الشرعية لابن مفلح.

أما عن مسألة التبرك بالنبي ﷺ وآثاره بعد وفاته، فلم يُفرق المسلمون بين التبرك به ﷺ وبآثاره الشريف قبل وفاته، وبعدها، فثبت عن كثيرٍ من الصحابة والسلف التبرك بآثاره بعد وفاته.

حينما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة، دعا بشعر من شعر النبي ﷺ وأظفار من أظفاره وقال: إذا مت فخذوا الشعر والأظفار ثم اجعلوه في كفني. الطبقات، ترجمة عمر بن عبد العزيز.

عن سهل في حديث المرأة التي قالت للنبي ﷺ أعوذ بالله منك وهي لا تعرفه وفيه: « .. فأقبل رسول الله ﷺ يومئذ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال: اسقنا –لسهل- قال: فأخرجت لهم هذا القَدَح، فأسقيتهم فيه. قال أبو حازم: فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا فيه. قال: ثم استوهبه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز فوهبه له»، رواه الترمذي في سننه، وابن ماجه في سننه.

قال النووي عقب هذا الحديث: «هذا فيه التبرك بآثار النبي ﷺ وما مسه أو لبسه أو كان منه فيه سبب، وهذا نحو ما أجمعوا عليه وأطبق السلف والخلف عليه من التبرك بالصلاة في مصلى رسول الله ﷺ في الروضة الكريمة، ودخول الغار الذي دخله ﷺ وغير ذلك. من هذا إعطاؤه ﷺ أبا طلحة شعره ليقسمه بين الناس، وإعطاؤه ﷺ حقوة لتكفن فيه بنته -رضي الله عنها-، وجعله الجريدتين على القبرين، وجمعت بنت ملحان عَرَقَه ﷺ، وتمسحوا بوَضوئه ﷺ، ودلكوا وجوههم بنخامته ﷺ، وأشباه هذه كثيرة مشهورة في الصحيح، وكل ذلك واضح لا شك فيه»، شرح النووي على صحيح مسلم.

عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-: «أنها أخرجت إلى جُبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج فقالت هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت قبضتها وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها»، رواه مسلم في صحيحه.

عن سهل بن سعد قال: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم هي شملة. فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها. فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها، فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها. فقال: نعم. فلما قام النبي ﷺ لامَه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن فيها»، أخرجه البخاري في صحيحه وهو لا يعلم إذا كان موته قبل انتقال النبي ﷺ أو بعده، ولم ينكر عليه الصحابة الكرام.

قال الذهبي: «وقد سئل أحمد بن حنبل عن مس القبر النبوي وتقبيله فلم ير بذلك بأسًا»، رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد.

فإن قيل: فهلا فعل ذلك الصحابة؟ قيل:« لأنهم عاينوه حيا، وتملوا به، وقبلوا يده، وكادوا يقتتلون على وضوءه، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه، ونحن فلما لم يصح لنا مثل هذا النصيب الأوفر تراميا على قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل»، معجم الشيوخ للذهبي.

عُلِمَ مما ذُكِر من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والنقل عن الأئمة الأعلام من أئمة أهل السنة والجماعة، يتأكد لنا جواز التبرك بآثار النبي ﷺ وآل بيته، ولا فرق في ذلك بين حياته ووفاته، وكذلك جواز التبرك بآثار الصالحين لا فرق في ذلك بين حياتهم ومماتهم.

والحمد لله رب العالمين

الدرس الحادي عشر – بيان البدعة و أقسامها

الحمد لله رب العالمين له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد بدر التمام وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما يا رب العالمين، اللهم ارزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، أما بعد:

تعريف البِدعة:

لغةً: ما أُحدث على غير مثال سابق، يقال: جئت بأمر بديع أي مُحْدَث عجيب لم يُعرف قبل ذلك.

شرعًا: المُحدَث الذي لم يَنصَّ عليه القرآن ولا جاء في السنة، كما ذكر ذلك اللغوي المشهور الفيومي في كتابه «المصباح المنير» مادة «ب د ع»، وذكر ذلك أيضًا الحافظ اللغوي محمد مرتضى الزبيدي في «تاج العروس» مادة «ب د ع».

ففي «المصباح المنير»: «أبدع الله تعالى الخلق إبداعًا خلقهم لا على مِثال».

وأبدعت وأبدعته استخرجته وأحدثته ومنه قيل للحالة المخالفة بِدعة وهي اسمٌ من الابتداع كالرفعة من الارتفاع ثم غلب استعمالها فيما هو نقصٌ في الدين أو زيادة لكن قد يكون بعضها غير مكروه فيسمى بدعة مباحة وهو ما شهد لجنسه أصل في الشرع أو اقتضته مصلحة يندفع بها مفسدة »اهـ

وفى المعجم الوجيز: «هي ما استحدث في الدين وغيره تقول بدعه بدعًا أي أنشأه على غير مثال سابق» اهـ

أقسام البدعة:

قال ابن العربي: «ليست البدعة والمُحدَث مذمومين للفظ بدعة ومحدث ولا معنييهما، وإنما يُذَم من البدعة ما يخالف السنة، ويذم من المحدثات ما دعا إلى الضلالة» اهـ

وقال النووي في كتاب تهذيب الأسماء واللغات، مادة (ب د ع) ما نصه: «البِدعة بكسر الباء في الشرع هي: إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله ﷺ، وهي منقسمة إلى حسنة وقبيحة، قال الإمام الشيخ المجمع على إمامته وجلالته وتمكّنه في أنواع العلوم وبراعته أبو محمّد عبد العزيز بن عبد السلام -رحمه الله ورضي عنه- في آخر كتاب القواعد: البدعة منقسمة إلى واجبة ومحرّمة ومندوبة ومكروهة ومباحة. قال: والطريق في ذلك أن تُعرض البدعة على قواعد الشريعة، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، أو في قواعد التحريم فمحرّمة، أو الندب فمندوبة، أو المكروه فمكروهة، أو المباح فمباحة». انتهى كلام النووي.

فالبدعة تنقسم إلى قسمين:

بدعة ضلالة: وهي المُحدثة المخالفة للقرآن والسنة.

وبدعة هدى: وهي المحدثة الموافقة للكتاب والسنة.

وهذا التقسيم مفهوم من حديث البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَد»، ورواه مسلم بلفظ آخر وهو: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»، فأفهم رسول الله ﷺ بقوله: «ما ليس منه» أن المحدَث إنما يكون ردًّا أي مردودًا إذا كان على خلاف الشريعة، وأن المحدَث الموافق للشريعة ليس مردودًا.

وهو مفهوم أيضًا مما رواه مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وفي صحيح البخاري في كتاب صلاة التراويح ما نصه: «قال ابن شهاب: فتُوفي رسول الله ﷺ والناس على ذلك»، قال الحافظ ابن حجر: «أي على ترك الجماعة في التراويح». ثم قال ابن شهاب في تِتِمَّةِ كلامه: «ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر -رضي الله عنهما-».

وفي البخاري أيضًا تتميمًا لهذه الحادثة عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاريّ أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أُبيّ بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر: «نعم البدعة هذه».اهـ وفي الموطأ بلفظ:«نِعمت البدعة هذه» اهـ

فإن قيل: أليس قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود عن العرباض بن سارية: «وإياكم ومُحدثات الأمور فإن كل مُحدَثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة».

فالجواب: أن هذا الحديث **لفظه عام ومعناه مخصوص** بدليل الأحاديث السابق ذكرها فيقال: إن مُراد النبي ﷺ ما أُحدث على خلاف الكتاب أو السنة أو الإجماع أو الأثر.

وأما من حيث التفصيل فالبدعة منقسمة إلى الأحكام الخمسة وهي الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام كما نص علماء المذاهب الأربعة:

المذهب الحنفي:

- قال الشيخ ابن عابدين الحنفي في حاشيته: «فقد تكون البدعة واجبة كنَصْب الأدلة للرَّد على أهل الفرق الضالة، وتعلّم النحو المُفهِم للكتاب والسنة. ومندوبة كإحداث نحو رباط ومدرسة، وكل إحسان لم يكن في الصدر الأول. ومكروهة كزخرفة المساجد. ومباحة كالتوسع بلذيذ المآكل والمشارب والثياب» اهـ.

- قال بدر الدين العيني في شرحه لصحيح البخاري: «عند شرحه لقول عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-: «نعمت البدعة» وذلك عندما جمع الناس في التراويح خلف قارئٍ وكانوا قبل ذلك يصلون أوزاعًا متفرقين: «والبدعة في الأصل إحداث أمر لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، ثم البدعة على نوعين، إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي بدعة حسنة وإن كانت مما يندرج تحت مستقبح في الشرع فهي بدعة مستقبحة» اهـ.

المذهب المالكي:

- قال محمد الزرقاني المالكي في شرحه للموطأ: «عند شرحه لقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «نعمت البدعة هذه» فسماها بدعة لأنه ﷺ لم يسنّ الاجتماع لها ولا كانت في زمان الصديق، وهي لغة ما أُحدث على غير مثال سبق وتطلق شرعًا على مقابل السنة وهي ما لم يكن في عهده ﷺ، ثم تنقسم إلى الأحكام الخمسة» اهـ.

- قال الشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي المالكي في كتاب المعيار المعرب ما نصه: «وأصحابنا وإن اتفقوا على إنكار البِدَع في الجملة فالتحقيق الحق عندهم أنها خمسة أقسام»، ثم ذكر الأقسام الخمسة وأمثلة على كل قسم ثم قال: «فالحق في البدعة إذا عُرضت أن تعرض على قواعد الشرع فأي القواعد اقتضتها أُلحقت بها، وبعد وقوفك على هذا التحصيل والتأصيل لا تشك أن قوله ﷺ:«كل بدعة ضلالة»، من العام المخصوص كما صرَّح به الأئمة رضوان الله عليهم» اهـ.

المذهب الشافعي:

الإمام الشافعي:

- قال الشافعي -رضي الله عنه-: «المحدثات من الأمور ضربان أحدهما ما أحدث يخالف كتابًا أو سنةً أو أثرًا أو إجماعًا فهذه البدعة الضلالة، والثاني ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا، فهذه محدثة غير مذمومة» رواه البيهقي في (مناقب الشافعي)، وذكره الحافظ ابن حجر في (فتح الباري).

- روى الحافظ أبو نعيم في كتابه حلية الأولياء عن إبراهيم بن الجنيد قال: حدثنا حرملة بن يحيى قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي -رضي الله عنه- يقول: «البدعة بدعتان، بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم، واحتج بقول عمر بن الخطاب في قيام رمضان: نعمت البدعة هي» اهـ.

- قال أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، كتاب آداب الأكل ما نصه: «وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله ﷺ فليس كل ما أبدع منهيًا بل المنهي بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرًا من الشرع مع بقاء علته بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب» اهـ.

- قال العز بن عبد السلام في كتابه «قواعد الأحكام»: «البدعة منقسمة إلى واجبة ومحرّمة ومندوبة ومكروهة ومباحة ثم قال: والطريق في ذلك أن تُعرض البدعة على قواعد الشريعة، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، أو في قواعد التحريم فهي محرمة، أو الندب فمندوبة، أو المكروه فمكروهة، أو المباح فمباحة» اهـ.

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: «قوله ﷺ: (وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) هذا عامٌّ مخصوص، والمراد: غالب البدع. قال أهل اللُّغة: هي كلّ شيء عُمِلَ عَلَى غير مثال سابق. قال العلماء: البدعة خمسة أقسام: واجبة، ومندوبة، ومحرَّمة، ومكروهة، ومباحة. فمن الواجبة: نظم أدلَّة المتكلّمين للرَّدّ عَلَى الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك. ومن المندوبة: تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والرّبط وغير ذلك. ومن المباح: التّبسط في ألوان الأطعمة وغير ذلك. والحرام والمكروه ظاهران، وقد أَوْضَحتُ المسألة بأدلَّتها المبسوطة في (تهذيب الأسماء واللُّغات) فإذا عرف ما ذكرته عُلِمَ أنَّ الحديث من العامّ المخصوص، وكذا ما أشبهه من الأحاديث الواردة، ويؤيّد ما قلناه قول عمر بن الخطَّاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في التَّراويح: نعمت البدعة، ولا يمنع من كون الحديث عامًّا مخصوصًا قوله: (كُلُّ بِدْعَةٍ) مؤكّدًا بـ كلّ، بل يدخله التَّخصيص مع ذلك كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأحقاف [٢٥]» اهـ .

وقال النووي أيضًا «في شرحه على صحيح مسلم»: قوله ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا...) إلى آخره. فيه: الحث على الابتداء بالخيرات، وسن السنن الحسنات، والتحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات، وسبب هذا الكلام في هذا الحديث أنه قال في أوله: «فجاء رجل بِصُرَّةٍ كادت كفّه تعجز عنها فتتابع الناس» وكان الفضل العظيم للبادي بهذا الخير والفاتح لباب هذا الإحسان. وفي هذا الحديث: تخصيص قوله ﷺ: (كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)، وأن المراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة» اهـ.

قال الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في الفتح: «قوله قال عمر: «نعم البدعة» في بعض الروايات «نعمت البدعة» بزيادة التاء، والبدعة أصلها ما أُحدث على غير مثال سابق، وتُطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة، والتحقيق إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة وإلا فهي من قسم المباح وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة» اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري، شرح صحيح البخاري، المجلد الثاني، كِتَاب الْجُمُعَةِ، باب الأَذَانِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: «وكل ما لم يكن في زمنه ﷺ يُسمى بدعة، لكن منها ما يكون حسنًا ومنها ما يكون بخلاف ذلك» اهـ

المذهب الحنبلي:

قال الشيخ شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي في كتابه «المطلع على أبواب المقنع» من كتاب الطلاق: «والبدعة مما عُمل على غير مثال سابق، والبدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلالة، والبدعة منقسمة بانقسام أحكام التكليف الخمسة» اهـ

والحمد لله رب العالمين

ملاحظات

الدرس الثاني عشر – حكم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم علينا ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وجعله سراجًا وإمامًا للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وإمام الأنبياء الحاشر العاقب الأمين، وعلى آله وصحابته الطيبين، أما بعد:

إن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بقراءة شيء من القرآن وذكر شيء من الشمائل النبوية الشريفة أمر فيه بركة وخير عظيم إذا خلا هذا الاحتفال عن أصناف البِدَع القبيحة التي لا يستحسنها الشرع الشريف.

وليُعلم أن تحليل أمر أو تحريمه إنما هو وظيفة المجتهد كالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل -رضي الله عنهم- وعن سائر السلف الصالح، وليس لأي شخصٍ ألّف مؤلفًا صغيرًا أو كبيرًا أن يأخذَ وظيفة الأئمة الكرام من السلف الصالح فيُحلل ويحرّم دون الرجوع إلى كلام الأئمة المجتهدين المشهود لهم بالخيرية من سَلف الأمة وخلَفها.

فمَن حرَّم ذِكر الله عز وجل وذِكر شمائل النبي ﷺ في يوم المولد النبوي بحجة أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يفعله فنقول له: هل تُحرّم المحاريب التي في المساجد وتعتقد أنها بدعة ضلالة؟! وهل تحرّم جمع القرآن في المصحف ونَقطه بدعوى أن النبي لم يفعله؟! فإن كنتَ تُحرّم ذلك فقد ضَيَّقتَ ما وسَّع الله على عباده من استحداث أعمال خيرٍ لم تكن على عهد الرسول.

ومَن شاءَ فلينظُر ما ذكرَهُ الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- من «أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بدعةٌ حسنة» اهـ، وقد تقَدَّم تِبيان أقسام البدعة في الدرس السابق.

ومن أقدم المصادر ذِكر الرحالة محمد بن أحمد بن جُبير الكناني الأندلسي (ولد عام ٥٤٠ هجرية) للاحتفال بمولد النبي ﷺ، والتي ذُكر فيها الاحتفال بذكرى المولد النبوي، هو كتاب رحلة ابن جبير قال ما نصه: «يفتح هذا المكان المبارك أي منزل النبي ﷺ ويدخله جميع الرجال للتبرّك به في كل يوم اثنين من شهر ربيع الأول ففي هذا اليوم وذاك الشهر ولد النبي ﷺ »اهـ

وقد دخل ابن جبير مكة في عام ١٦ شوال ٥٧٩هـ ومكث أكثر من ثمانية أسابيع وغادرها الخميس الثاني والعشرون من ذي الحجة ٥٧٩هـ متوجهًا إلى المدينة المنورة كما هو مذكور في رحلته، فكان الاحتفال في شهر ربيع الأول في يوم المولد النبوي الشريف هو عمل المسلمين قبل قدوم ابن جبير إلى مكة والمدينة وكان يحتفل به أهل السنة في أرض الله المكرمة، وما ذُكر عن صاحب إربل الملك المظفر كان أول من أظهر الاحتفال بالمولد وتوسع فيه.

وابن جُبير قال عنه لسان الدين بن الخطيب، في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»: «كان أديبًا بارعًا، وشاعرًا مجيدًا، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الخط».

وأول من أظهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف هو ملك إربل وكان عالمًا تقيًا شجاعًا يقال له المظفر في أوائل القرن السابع للهجرة، جمع هذا الملك لهذا العمل كثيرًا من العلماء فيهم من أهل الحديث والصوفية الصادقين فاستحسن ذلك العمل العلماء في مشارق الأرض ومغاربها كالحافظ ابن دِحية والحافظ العراقي والحافظ العسقلاني والحافظ السخاوي والحافظ السيوطي وغيرهم كثير، حتى علماء الأزهر كمفتي الديار المصرية الأسبق الشيخ محمد بخيت المطيعي وعلماء لبنان كمفتي بيروت الأسبق الشيخ مصطفى نجا، ولا عبرة بكلام من أفتى بخلاف قول أهل العلم لأنه ليس كلام مجتهد، والعبرة إنما هي بما وافق كلام العلماء المعتبرين، والأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد التحريم، ودين الله يُسْرٌ وليسَ بعُسْرٍ.

أقوال العلماء في بيان جواز الاحتفال بالمولد النبوي

- الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (المتوفى سنة٩٠٢) قال في فتاويه: «إن عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار في المدن الكبار يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم» اهـ نقلها عنه محمد بن يوسف الشامي في كتابه سبل الهدى والرشاد.

- الحافظ عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة (المتوفى سنة ٩٦٥هـ) قال في كتابه الباعث على إنكار البدع والحوادث ما نصه: «ومن أحسن البدع ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات والمعروف، وإظهار الزينة والسرور فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء، مشعرٌ بمحبته ﷺ وتعظيمه وجلالته في قلب فاعل ذلك، وبشكر الله على النعمة المحمدية»

- الشيخ محمد بن أحمد عليش المالكي (المتوفى سنة ١٢٩٩هـ) قال في كتابه القول المنجي ما نصه: «لا زال أهل الإسلام يحتفلون ويهتمون بشهر مولده -عليه الصلاة والسلام- ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات و يظهرون السرور ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم، وأول من أحدث فعل المولد الملك المظفر أبو سعيد صاحب إربل فكان يعمله في ربيع الأول ويحتفل احتفالًا هائلًا، وقد حكى بعض من حضر سِماطه في بعض الموالد أنه عدّ فيه (خمسة آلاف رأس غنم مشوي وعشرة آلاف دجاجة ومائة ألف زبدية وثلاثين ألف صحن حلواء) وكان شهمًا شجاعًا بطلًا عاقلًا عالمًا عادلًا وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية» اهـ

- الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) قال في كتابه حسن المقصد في عمل المولد: «إن أصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن ورواية الأخبار الواردة في مَبدئ أمر النبي ﷺ وما وقع في مولده من الآيات ثم يُمدّ لهم سماطٌ يأكلونه وينصرفون من غير زيادة على ذلك هو من البدع الحسنة التي يُثاب عليها صاحبها لما فيه من تعظيم قدر النبي ﷺ وإظهار الفرح والاستبشار بمولده ﷺ الشريف» اهـ.

- الشيخ عبد المجيد المغربي الطرابلسي أمين الفتوى (المتوفى سنة١٣٥٢هـ) قال في كتابه المنهاج في المعراج ما نصه: «اعتاد الناس الاحتفال لاستماع قصة مولده الشريف -عليه الصلاة والسلام- ولَنِعمَتِ الذكرى بمولد النبي العظيم الذي أخرج الله الخلقَ بهديه من الظلمات إلى النور» اهـ.

- الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر سابقًا (المتوفى سنة ١٣٧٨هـ) قال في مجلة الهداية الإسلامية ما نصه: «أما احتفالنا بذكرى مولده فإنّا لم نفعل غير ما فعله حَسّان بن ثابت -رضي الله عنه- حين كان يجلس إليه الناس ويُسمعهم مديح رسول الله ﷺ في شعر ولم نفعل غير ما فعل علي بن أبي طالب أو البراء بن عازب أو أنس بن مالك -رضي الله عنهم- حين يتحدثون عن محاسن رسول الله الخَلقية والخُلقية في جماعة» اهـ.

السيد علوى المالكي المدرس في المسجد الحرام (المتوفى سنة١٣٩١ هـ) قال في مجموع فتاويه ورسائله ما نصه: «يحتوي المولد على ثلاثة أشياء: **أولًا**: أنه يحتوي على ذكر اسمه -عليه الصلاة والسلام- ونسبه وكيفية ولادته وما وقع فيها من الآيات وكيفية نشأته وما وقع له من الرحلة للتجارة الإرهاصات الغريبة والأحوال العجيبة وذكر مبدئ بعثته وما لاقاه من الأذى والمحنة في سبيل نشر الدعوة وتبليغ القرآن وذكر هجرته وما وقع له من الغزوات والمواقف والأحوال وذكر وفاته وهل يشك الناظر في ذلك أن سيرة سيد الخلق وسيلة لكمال محبته وواسطة لتمام معرفته. **الثاني**: أن المولد سبب للصلاة والسلام على النبي ﷺ المطلوب منا بق وله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ الأحـزاب [٥٦] وكم للصلاة عليه من فوائد. **الثالث**: أنه يحتوي على ذكر أخلاقه الشريفة وسنته الجليلة وآدابه التي أدّبه بها ربه تبارك وتعالى وفي ذلك حث على متابعته وحض على آثاره والسير على منهجه والتأسي بآدابه هذا وقد اكتسب العلماء الدعاة إلى الله تعالى في البلاد الحضرمية فرصة اجتماع العامة في مجلس المولد الشريف فقاموا بمذاكرتهم وجعلوا ذلك وسيلة لإرشادهم وفي ذلك نفع عميم وإرشاد للصراط المستقيم».

قال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني:«إنَّ قاصدي الخير وإظهار الفرح والسرور بمولد النبيّ ﷺ والمحبة له، يكفيهم أن يجمعوا أهل الخير والصلاح والفقراء والمساكين، فيُطعموهم ويتصدقوا عليهم محبةً له ﷺ، فإن أرادوا فوق ذلك، أَمروا من يُنشد من المدائح النبوية والأشعار المتعلقة بالحثّ على الأخلاق الكريمة مما يُحرّك القلوب إلى فعل الخيرات، والكفّ عن البدع المنكَرات أي لأنَّ من أقوى الأسباب الباعثة على محبته ﷺ سماعَ الأصوات الحسنة المطربة بإنشاد المدائح النبوية، إذا صادفت محلًا قابلًا فإنها تُحدِث للسامع شكرًا ومحبة. من كتاب (روح السِيَر) للبرهان ابراهيم الحلبي الحنفي» اهـ

إن الله عز وجل قد كرّم النبي محمدًا ﷺ وكرم أمته ورفع قدرها فوق الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران [١١٠]. وما ارتفعت هذه الأمة إلا بنبيها وما شَرُفَت إلا به، لذلك كان الاعتناء ببيان مولد هذا النبي الكريم وما ظهر من الآيات عند ذلك وما أعطاه الله من المواهب والشمائل من مهمات الأمور، إذ يزداد المؤمن بذلك تعظيمًا ومعرفة بفضله ﷺ.

وروى أحمد والبيهقي وغيرهما وصححه ابن حبان والحاكم عن العرباض بن سارية أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّي عبدُ الله وخاتمُ النبيّين وإنّ آدمَ لمنجدلٌ في طينتِه، وسأخبرُكم عن ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبِشارة عيسى بي، ورؤيا أمّي التي رأت، وكذلك أمّهات النبيّين يَرَيْن، وإنّ أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا أضاءت له قصور الشام» اهـ.

في ذكرى المولد النبوي الشريف يطيب الحديث عنه -عليه الصلاة والسلام- ونتنسم في ذكرى مولده المبارك عبيرًا فوّاحًا وأعطارًا زكية، كيف لا؟! وهو سيّد الأولين والآخرين، الذي فاق جميع إخوانه النبيين والمرسلين في الخلق والخُلُق، فليلة المولد النبوي الشريف، ليلة شريفة عظيمة مباركة، ظاهرة الأنوار، جليلة المقدار، أبرز الله تعالى فيها سيدنا محمدًا إلى الوجود، فولدته آمنة في هذه الليلة الشريفة من نكاح لا من سفاح.

فقد ولد رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل في مكة الكرمة. ويروى أنه ﷺ حين وضعته أمه آمنة وقع جاثيًا على ركبتيه رافعًا رأسه إلى السماء لأنها مهبط الرحمات وقبلة الدعاء ومسكن الملائكة وخرج معه ﷺ نور أضاءت له قصور الشام حتى رأت أمّه أعناق الإبل ببُصرى. وليلة ولادته -عليه الصلاة والسلام- ارتج إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وجف ماء بحيرة ساوى.

وقد توفي والده عبد الله ولآمنة ستة أشهر وهي حامل به -عليه الصلاة والسلام- وأما أمه فقد توفيت وعمره ست سنوات فكفله جده عبد المطلب، ولما بلغ ثماني سنين توفي جده عبد المطلب فكفله عمه أبو طالب، وأما مرضعته -عليه الصلاة والسلام- فهي حليمة السعدية، وأما حاضنته فهي أم أيمن الحبشية.

وقد أعطاه الله صفوة آدم ومعرفة شيث ورقة نوح وخلة إبراهيم ورضا إسحاق وفصاحة إسماعيل وحكمة لقمان وصبر أيوب وزهد عيسى وفهم سليمان وطب دانيال ووقار إلياس وعصمة يحيى وقَبول زكريا.

فماذا عسانا أن نقول في ذكرى مولدك يا سيدي يا رسول الله وأنت حبيب رب العالمين وزين المرسلين وإمام المتقين، وأنت الذي قيل فيك:

أرى كل مدح في النبي مقصرا ..... وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى في الكتاب المنزل ..... عليه فما مقدار ما تمدح الورى

والحمد لله رب العالمين

ملاحظات

الدرس الثالث عشر– معجزة الإسراء والمعراج

الحمدُ للهِ المعِزّ المذِلّ، ونعوذ به من أن نَضِلّ أو نُضِلّ، أو نَزِلّ أو نُزِلّ، هو نعم المولى ونعمَ النصير، وعليه تُكْلانُنا وإليهِ المصير، ولَهُ الإثَابَة، وإليهِ الإنابة، وإيّاه ندعو، فنسألهُ الإجابة، سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميعُ البصير، والصلاةُ والسلامُ على شمسِ الهدى الباهرِ أيَّما بَهْر، المنصورِ قبلَ سلّ وشَهْر، بالرعب من مسِيرةِ شهر، نبيّنا الذي صَدَقَ وصدَع بالحقّ وجَهَر، فحَصَّ جناحَ الشّرْكِ إذ حَصْحَصَ وبَهَر، وأظهرَه اللهُ فظهر، وعلى آله الذائدين عن حِياض الشَّرْع، وكيف لا والأصلُ يتبعُه الفرعُ، وصحبِهِ كُماةِ الجهاد، حماةِ الوهادِ، مَنِ استَمْسَكوا فاقتَفوْا هدْيَ هاد، أما بعدُ :

الإسراء والمعراج مناسبة سَامِيَةٌ يُحْتَفَلُ بِهَا لِعَظِيمِ مَدْلُولِهَا وَجَلالِ قَدْرِهَا، كَيْفَ لا وَهِيَ معجزة كُبْرَى خُصَّ بِهَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الأَمِينُ، خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَأَوْفَى الأَوْفِيَاءِ ففي ليلة الإسراء والمعراج كَانَ إِسْرَاؤُهُ مِنْ مكة المكرمة لِلأَقْصَى الشَّرِيفِ، وَمِعْرَاجُهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلا وَرُجُوعُهُ فِي جُزْءِ لَيْلَةٍ يُخْبِرُ أَهْلَ الأَرْضِ عَمَّا رَأَى مِنَ العجائب وَيَصِفُ لَهُمْ الأَقْصَى نَافِذَةً نَافِذَةً، دَلِيلًا قَاطِعًا وَبُرْهَانًا سَاطِعًا عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِهِ وَحَقِيَّةِ نُبُوَّتِهِ.

دليل ثبوت معجزة الإسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾ الإسراء [١]

السَّبْحُ في اللغة معناه التباعد. ومعنى سبحان الله تَنَزَّه الله عن مُشابهة الخلق بأي وجه من الوجوه. والإسراء هو السير بالليل، فالإسراء والمعراج حَصَلا في جزء من ليلة واحدة، والمسجد الحرام سُمي بذلك لحرمتهِ وللأحكام الخاصة به منها: مضاعفة أجر الصلاة فيه أضعافًا كثيرة، ووجوده في مكة أفضل بقاع الأرض، وتحريم صيد البرّ في الحرم. والمسجد الأقصى سُمي بذلك لبعده عن المسجد الحرام، وكلاهما بناهما آدم -عليه السلام-، بنى الكعبة ثم بعد أربعين سنة بنى المسجد الأقصى، وسماه الله مسجدًا مما يدل على أنه كان عُمِلَ كسائر أماكن عبادة المسلمين أتباع كل الأنبياء لعبادة الله الواحد بالصلاة التي يسجد فيها المسلم لله. وقوله تعالى:﴿ بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ معناه أنّ أرض الشام أرض مباركة، فقد ثبت في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا» قالوا: وفي نجدنا يا رسول الله؟ قال: «هناك الزلازل والفتن هناك يطلع قرن الشيطان». فأرض الشام مباركة وفلسطين التي فيها المسجد الأقصى من الشام.

والله تباركَ وتعالى بعث الأنبياءَ رحمةً للعبادِ، إذْ ليسَ في العَقْلِ ما يُسْتَغْنى به عنهم، لأن العَقْلَ لا يستقلُّ بمعرفةِ الأشياءِ المنجيةِ في الآخرةِ، فالله تعالى مُتَفَضّلٌ بها على عبادِهِ. وقد أيدَ الله تباركَ وتعالى الأنبياءَ بمعجزاتٍ لتكونَ دليلًا على صدقهم. والمعجزةُ أمرٌ خارقٌ للعادةِ يَظْهَرُ على يدِ مُدَّعِي النبوةِ، موافقٌ للدعوةِ، سالمٌ من المعارضةِ بالمثلِ، وكان ﷺ أعظمَ الأنبياءِ معجزاتٍ، فقدْ نَقَلَ ابنُ أبي حاتمٍ في كتابِ مناقبِ الشافعيّ عن أبيهِ عن عمَرَ بنِ سواد عن الشافعي قال: «ما أعطى الله شيئًا ما أعطى محمدًا فقلتُ أعطى عيسى إحياءَ الموتى قالَ: أُعْطِيَ محمدٌ حنينَ الجذْعِ حتى سُمِعَ صوتُه فهذا أكبرُ مِنْ ذلكَ»اهـ.

وقد قال بعض المادحين:

إن كان موسى سقى الأسباط من حجر فإن في الكف معنى ليس بالحجر

إن كان عيسى برا الأعمى بدعوته فكم براحته قد رد من بصر

معجزةُ الإسراءِ ثابتةٌ بنصّ القرآنِ والحديثِ الصحيحِ، فيجبُ الإيمانُ بأنّ الله أسرى بالنبيّ ﷺ ليلًا منْ مكةَ المكرمةِ إلى المسجدِ الأقصى.

وقدْ أجمَع أهلُ الحقِ من سَلَفٍ وخَلَفٍ ومحدثينَ ومتكلمينَ ومفسرينَ وفقهاءَ على أنّ الإسراءَ كان بالجَسَدِ والروحِ وفي اليقظةِ، وهذا هو الحقُّ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وجابرٍ وأنَسٍ وعمرَ وحذيفةَ وغيرِهِمْ منَ الصحابةِ وقولُ الإمامِ أحمدَ وغيرِهِ مِنَ الأئمةِ وقولُ الطبريّ وغيرِهِ، فلا خلافَ إذن في الإسراءِ به ﷺ إذ فيه نصٌّ قرآنيٌّ، فلذلك قالَ العلماءُ: «إنَّ مَنْ أنكَرَ الإسراءَ فقدْ كذَّبَ القرآنَ ومَنْ كَذَّبَ القرآنَ فقد كَفَرَ».

وروى البيهقيُّ عنْ شدّادِ بنِ أوسٍ قال: قلنا يا رسولَ الله كيف أُسريَ بِكَ؟ قال: «صلَّيْتُ لأصحابي صلاةَ العَتَمَةِ بمكة مُعْتِمًا، وأتاني جبريلُ -عليهِ السلامُ- بدابّةٍ بيضاءَ فوقَ الحمارِ ودونَ البغلِ، فقال: اركبْ فاسْتَصْعَبَتْ عليَّ، فَدَارَها بِأُذُنِها ثم حَمَلني عليها، فانْطَلَقَتْ تهوي بنا يَقَعُ حافرُها حيثُ أدركَ طرفُها حتى بلغْنا أرضًا ذاتَ نَخْلٍ فأنزلني فقالَ: صَلّ. فصليتُ، ثم ركِبْنا فقالَ: أتدري أينَ صلَّيتَ؟ قلتُ: الله أعلمُ قالَ: صليتَ بيثربَ، صليتَ بطَيبةَ، فانطلقتْ تهوي بنا يقعُ حافرُها حيثُ أدركَ طَرْفها، ثم بلغنا أرضًا فقال: انزِلْ فنزلتُ ثم قال: صلّ. فصليتُ ثم ركبنا فقالَ: أتدري أينَ صليتَ؟ صليتَ بطورِ سيناءَ حيثُ كلّمَ الله عزَّ وجلَّ موسى -عليهِ السلامُ-، ثم انطلقتْ تهوي بنا يقعُ حافرُها حيث أدركَ طرْفُها، ثم بلغْنَا أرضًا بدتْ لنا قُصورٌ، فقالَ: انزِلْ. فنزلتُ فقالَ: صلّ. فصليتُ ثم ركِبنا قالَ: أتدري أينَ صليتَ. قلتُ: الله أعلمُ، قالَ: صليتَ ببيتِ لَحمٍ حيثُ ولدَ عيسى -عليهِ السلامُ- المسيحُ ابنُ مريَم، ثم انطلقَ بي حتى دَخَلْنا المدينة من بابِها اليمانيّ فأتى قِبْلَةَ المسجِدِ فرَبَطَ بِهِ دابّتَهُ ودخلْنا المسجدَ مِنْ بابٍ فيه تميلُ الشمسُ والقمرُ فصليتُ مِنَ المسجدِ حيثُ شاءَ الله» اهـ

أحداثٌ حصلت مع النبي في ليلة الإسراء والمعراج

- شُقَّ صَدرُ النبيّ ﷺ قبلَ أن يُسْرَى بهِ ليلًا منْ بيتِ أم هانئ منْ مكةَ المكرمةِ منَ المسجدِ الحرامِ. قالَ أنسُ بنُ مالكٍ كانَ أبو ذرٍ يحدّثُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فُرِجَ سقفُ بيتي وأنا بمكةَ فنزلَ جبريلُ ففرجَ صدري ثُمَّ غَسَلَهُ من ماء زمزم ثم جاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذهبٍ ممتلئ حكمةً وإيمانًا فأَفْرَغَها في صدري ثم أطبقَهُ» رواه مسلمٌ.

- جمعَ الله عزَّ وجلَّ لسيدنا محمدٍ ﷺ جميعَ الأنبياءِ صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم في بيتِ المقدسِ مِنْ آدمَ فمنْ بعدَهُ فصلَّى بهمْ إمامًا. وهذا دليل على أن الأنبياء لهم تصرف بإذن الله بعد موتهم وينفعون من شاء الله أن ينتفع منهم فهم ليسوا كالناس العاديين فقد روى البزار والبيهقي وغيرهما أن الرسول ﷺ قال: «الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يصلون». وقالَ رسولُ الله ﷺ في حديث الإسراءِ والمعراجِ: «ثُمَّ دخلتُ بيتَ المقدسِ فجُمِعَ لِيَ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ فَقَدَّمَنِي جبريلُ حتى أَمَمْتُهُمْ ثم صُعِدَ بيَ إلى السماءِ» رواه النسائي.

من عَجائبِ ما رَأى الرسولُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- في الإسراء

- الدنيا: رأى وهو في طريقِهِ إلى بيتِ المَقْدِسِ الدنيا بصورةِ عجوزٍ.

- إبليسُ: رأى شيئًا مُتَنَحّيًا عن الطريقِ يدعُوهُ وهو إبليسُ وكانَ منَ الجنّ المؤمنينَ في أولِ أمرِهِ، ثم كفرَ لاعتراضِهِ على الله.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ الكهف [٥٠]

ولا يجوز أن يقال إن إبليس كان طاووس الملائكة فهو لم يكن مَلَكًا. والدليل على ذلك أن الله تعالى قال ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ والرسول ﷺ قال: «خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار»، فتبين أن إبليس من الجن حقيقة بدليل ما تقدم.

- ماشطةُ بنتِ فرعونَ: ثم شَمَّ رائحةً طيبةً مِنْ قبرِ ماشطةِ بنتِ فرعونَ وكانتْ مؤمنةً صالحةً وجاءَ في قصتِها أنها بينما كانتْ تمشُطُ رأسَ بنتِ فرعونَ سقطَ المُشْطُ من يدِها فقالتْ بسمِ اللهِ، فَسَأَلَتها بنتُ فرعونَ أَوَ لَكِ ربٌّ إله غيرُ أبي؟ فقالت الماشطةُ نعمْ ربي وربُّ أبيكِ هُوَ اللهِ، فأخبرتْ أبَاها فطلبَ مِنْها الرجوعَ عن دينِها فأبتْ فَحَمَّى لها ماءً فألقى فيهِ أولادَها ثم كَلَّمَها طفلٌ لها رضيعٌ قبلَ أنْ يَرمِيَهُ: «يا أُمَّاهُ أصْبِري فإنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ مِنْ عذابِ الدنيا فلا تتقاعَسِي فإنكِ على حقّ» فقالتْ لفرعونَ: «لي عندَكَ طَلَبٌ، أنْ تجمَعَ العظامَ وتدفِنَها» فقال: «لكِ ذلكَ»، فألقاها فيهِ. وقدْ ماتتْ شهيدةً هيَ وأولادُها.

- المجاهدونَ في سبيلِ اللهِ: رأى قومًا يَزْرَعُونَ ويَحْصُدُونَ في يومينِ، فقالَ لهُ جبريلُ: هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيلِ اللهِ.

والجهادُ في سبيلِ اللهِ نوعانِ: جهادٌ بالسّنانِ أي بالسلاحِ، وجهادٌ في سبيلِ اللهِ بالبَيَانِ، وثوابُ هذا كثوابِ من جاهَد بالسلاحِ، فاليومَ مَن أمرَ بالمعروفِ ونهَى عن المنكَرِ بجِدّ فهو مجاهدٌ في سبيلِ اللهِ، والمجاهدونَ لهم درجةٌ عاليةٌ في الآخرةِ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن أحيا سنتي عند فسادِ أمتي فله أجرُ شهيد» والمقصودُ بالسُّنةِ هنا الشريعةِ التي جاء بها رسول اللهِ ﷺ.

- خطباءُ الفتنةِ: رأى أناسًا تُقْرَضُ أَلْسِنَتُهُمْ وشِفَاهُهُمْ بِمَقارِيضَ مِنْ نارٍ، قالَ لهُ جبريلُ: هؤلاءِ خطباءُ الفتنةِ، يعني الذينَ يَخْطُبونَ للشرّ والفتنةِ، أي يَدْعُونَ الناسَ إلى الضلالِ والفسادِ والغَشّ والخيانَةِ.

- الذي يتكلمُ بالكلمةِ الفاسدةِ: ورأى ثورًا يخرجُ مِنْ مَنْفَذٍ ضَيّقٍ ثم يريدُ أن يعودَ فلا يستطيعُ أنْ يعودَ إلى هذا المَنْفَذِ، فقالَ لَهُ جبريلُ: هذا الذي يتكلمُ بالكلمةِ الفاسدةِ التي فيها ضررٌ على الناسِ وفتنةٌ، ثم يريدُ أن يَرُدَّها فلا يستطيعُ.

- الذين لا يؤدونَ الزكاةَ: ورأى أناسًا يَسْرَحُونَ كالأنْعامِ على عَوْراتِهِمْ رِقاعٌ (سُتَرٌ صغيرةٌ) قالَ لَهُ جبريلُ: هؤلاءِ الذينَ لا يؤدُّونَ الزكاةَ.

- تاركو الصلاة: ورأى قومًا تَرْضَخُ (الرضخ: كسر الرأس) رُءُوسُهُمْ ثم تَعُودُ كما كانتْ فقالَ جبريلُ: هؤلاءِ الذينَ تَتَثَاقَلُ رُءُوسُهُمْ عنْ تأديةِ الصلاةِ.

- الزناةُ: ورأى قومًا يَتَنَافَسُونَ على اللحمِ المُنْتِنِ ويتركونَ اللحمَ الجيّدَ المُشَرَّحَ فقالَ جبريلُ: هؤلاءِ أناسٌ مِنْ أمّتِكَ يتركونَ الحلالَ فلا يَطْعَمُونَهُ ويأتونَ الحرامَ الخبيثَ فيأكلونَهُ وهُمُ الزناةُ.

- شاربو الخمر: رأى أناسًا يشربونَ من الصَديدِ الخارجِ منَ الزناةِ، قالَ لَهُ جبريلُ، هؤلاءِ شاربو الخمرِ المُحرَّمِ في الدنيا.

- الذينَ يمشونَ بالغيبةِ: رأى قومًا يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وصُدُورَهُمْ بأظفارٍ نُحاسِيَّةٍ، قالَ لَهُ جبريلُ: هؤلاء الذينَ كانوا يَغتابونَ الناسَ. والغيبة من أشد أسباب عذاب القبر هي والنميمة وترك الاستنزاه من البول. وغيبة الأتقياء من الكبائر، ثم الغيبة لا تفسد الصوم قال الإمام أحمد: لو كانت الغيبة تفسد الصوم لما صح لنا صوم.

دليل ثبوت معجزة المعراج

المعراجُ ثابتٌ بنصّ الأحاديثِ الصحيحةِ، وأما القرآنُ فلم ينصَّ عليه نصًّا صريحًا، لكن وردَ فيه ما يكادُ يكونُ نصًّا صريحًا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ النجم [١٣-١٥]

فإن قيل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ رؤيةً منامِيةً. قلنا هذا تأويلٌ، ولا يَسُوغُ تأويلُ النصّ أي إخراجُهُ عن ظاهِرِهِ لِغيرِ دليلٍ عَقْليّ قاطعٍ أو سَمْعِيّ ثابتٍ كما قاله الرازيُّ في المحصولِ، وليسَ هنا دليلٌ على ذلكَ.

قالَ رسولُ الله ﷺ في حديثِهِ عَنِ ليلة الإسراء والمعراج: «ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ فاسْتَفْتَحَ جبريلُ فقيلَ: مَنْ أَنتَ. قالَ: جبريلُ. قِيل: وَمَنْ معكَ؟ قالَ: محمدٌ. قيلَ: وقدْ بُعث إليهِ؟ (١) قالَ: قَدْ بُعِثَ إليهِ. فَفُتحَ لنا فإذا أنا بآدمَ فرحّبَ بي ودَعَا لِي بخيرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إلى السماءِ الثانيةِ، فاسْتَفْتَحَ جبريلُ -عليهِ السلامُ- فقيلَ: مَنْ أنْتَ؟ قَال: جبريلُ. قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَال: محمدٌ. قِيلَ: وقد بُعِثَ إليهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إليهِ. فَفُتحَ لنا فإذا أنا بِابْنَيِ الخالةِ عيسى ابنِ مريمَ ويحيى بنِ زكرياءَ صلواتُ الله عليهما فرَحّبا ودَعَوَا لي بِخَيرٍ.

ثم عَرَجَ بي إلى السماءِ الثالثةِ فاسْتفتَحَ جبريلُ، فقيلَ: مَنْ أنتَ؟ قال: جبريلُ، قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَال: محمدٌ ﷺ قيلَ: وقَدْ بُعِثَ إليهِ؟ قالَ: قدْ بُعِثَ إليهِ. فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بيوسُفَ ﷺ إذْ هوَ قَدْ أُعطيَ شَطْرَ الحُسْنِ. فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ الرابعةِ فاسْتَفْتَحَ جبريلُ -عليهِ السلامُ-، قيلَ: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ: قيلَ: ومَنْ معكَ؟ قال: محمدٌ. قالَ: وقدَ بُعِثَ إليهِ؟ قال: قد بُعِثَ إليهِ. فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بإدريسَ فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ. قالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ مريم [٥٧]

ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ الخامسةِ فاستفتَحَ جبريلُ. قيلَ: مَنْ هذا؟ قالَ: جبريلُ. قيلَ: وَمَنْ معكَ؟ قالَ: محمدٌ. قيل: وقد بُعِثَ إليهِ؟ قال: قد بُعِثَ إليهِ. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بهارونَ ﷺ فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ السادسةِ فاستفتحَ جبريلُ -عليه السلامُ- قيلَ: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيلَ: ومَنْ مَعَكَ؟ قَال: محمدٌ. قيل: وقَدْ بُعِثَ إليهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إليه. فَفُتِحَ لنا فإذا أمامي موسى ﷺ فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ السابعةِ فاستفتحَ جبريلُ فقيلَ: مَنْ هذا؟ قالَ: جبريلُ. قيل ومن معكَ؟ قال: محمدٌ ﷺ قيلَ: وقد بُعثَ إليهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إليه. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظهره إلى البيتِ المعمورِ وإذا هُوَ يدخلُهُ كلَّ يومٍ سبعونَ ألْفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بي إلى سدرةِ المنتهى وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلَةِ، وَإذا ثَمَرُها كالقِلالِ (٢). قال: فلما غَشِيَها مِنْ أمرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فما أحدٌ من خلق الله يستطيعُ أن يَنْعَتَها من حُسنِها فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففَرَضَ عليَّ خمسينَ صلاةً في كل يومٍ وليلةٍ فنزلْتُ إلى موسى ﷺ فقالَ: ما فرضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِك؟ قلتُ: خمسينَ صلاةً، قالَ: ارجِعْ إلى ربّك (٣) فاسألهُ التخفيفَ فإنَّ أمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيلَ وخَبِرْتُهمْ. قال: فرجَعْتُ إلى ربي فقلتُ: يا ربّ خَفِّفْ على أمتي. فَحَطَّ عني خَمْسًا فرجَعتُ إلى موسى فقلتُ حطّ عني خمسًا. قَالَ: إنَّ أمتكَ لا يطيقونَ ذلكَ فارجعْ إلى ربّك فاسألْهُ التخفيفَ قال: فَلَمْ أزلْ أَرجِعُ بينَ ربي (٤) تباركَ وتعالى وبينَ موسى -عليهِ السلامُ- حتى قالَ: يا محمدُ إنهنَّ خمسُ صلوات كُلَّ يَوْمٍ وليلةٍ لِكُل صَلاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً. ومن هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنةً، فإن عَمِلَها كتبتْ له عشرًا، ومن هَمَّ (٥) بسيئةٍ فلم يعملْها لم تُكْتَبْ شَيْئًا، فإنْ عَمِلَها كُتبتْ سيئةً واحدةً قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ﷺ فأخبرتُهُ فقال: ارجعْ إلى ربّك فاسألْهُ التخفيفَ. فقالَ رسولُ الله ﷺ: فقلت: قد رجَعتُ إلى ربي حتى اسْتَحْيَيْتُ منهُ» رواه مسلمٌ.

وفي هذا الحديث دليل لأهل الحق أهل السنة والجماعة الأشاعرة والماتريدية على أن النبي والولي له تصرف بعد وفاته وينفع بإذن الله، أليس موسى نفع أمة محمد ﷺ نفعًا عظيمًا بهذا الذي حصل ليلة الإسراء والمعراج حين أشار على الرسول أن يَطْلب من ربه التخفيف في عدد الصلوات؟ وهذا ردٌّ على مُشَبِّهة العصر النافين النفعَ عمن مات، بل ويعتبرون من توسل بالأنبياء والأولياء مشركًا والعياذ بالله.

شرح بعض المعاني في الحديث السابق

(١)معنى (وقد بُعث إليه): هل طُلِبَ للعروج وليس معناه أن الملائكة يسألون هل نزل عليه الوحي أم لا لأن الملائكة يعلمون أن محمدًا خاتم الأنبياء، وكانوا يعلمون أنه قد نزل عليه الوحي، ومعنى حديث: «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد» أي شُهرت بالوصف بالنبوة والرسالة قبل أن يُرَكَّب روح آدم في جسده وليس معناه أن محمدًا ﷺ خلق قبل آدم فالرسول يقول: «نحن الآخرون السابقون» ومعناه نحن الآخرون وجودًا السابقون دخولًا الجنة.

(٢) جمع قلة وهي الجرة العظيمة.

(٣) هذا ليس معناه أنه كان في مكان يسكنه الله إنما معناه ارجع إلى المكان الذي تتلقى فيه الوحي من ربك، وهذا من باب حذف المضاف في اللغة العربية، ذلك مثل قول الله تعالى إخبارًا عن سيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ الصافات أي إني ذاهب إلى المكان الذي أمرني ربي أن أذهب إليه وهو فلسطين وليس معنى الآية أن الله يسكن في فلسطين فالله موجود بلا مكان.

(٤) أي المكان الذي كنت أتلقى فيه الوحي من ربي.

(٥) الهَم أمر دون العزم ودون الفعل.

ما المقصود منَ المعراجِ؟

المقصودُ من المعراجِ تشريفُ الرسولِ ﷺ بإطلاعِهِ على عجائبِ العالمِ العلويّ، وتعظيمُ مَكانتِهِ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ النجم [١٨].

فائدة جليلة:

يجدر بنا أن نذكر بأنّ الله تعالى هو خالق السماوات السبع وخالق الأماكن كلّها وأنّ الله كان موجودًا قبل خلق الأماكن بلا هذه الأماكن كلّها، فلا يجوز أن يُعتقد أنّ الله تعالى موجود في مكان أو في كل الأمكنة أو أنه موجود في السماء بذاته أو متمكن على العرش أو حالٌّ في الفضاء أو أنه قريب منا أو بعيد عنا بالمسافة، ومن نسب المكان أو الجهة لله لا يكون مسلمًا، ويكون الدخول في الاسلام بالنطق بالشهادتين أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله مع اعتقاد الصواب، أنّ الله موجود بلا مكان ولا يشبه شيئًا من مخلوقاته، فيجب الحذر من الكتاب المسمى : «كتاب المعراج» المنسوب كذبًا لابن عباس .

من عجائبِ ما رأى الرسولُ ﷺ في المعراج:

- **مالكٌ خازنُ النار:** مِنْ جملةِ ما رآه تلكَ الليلةَ مالكٌ خازنُ النارِ، ولم يضحكْ في وَجْهِ رسولِ اللهِ ﷺ. فَسألَ جبريلَ لماذا لم يَرَهُ ضاحكًا إليهِ كغيرِهِ. فقالَ: إن مالِكًا لم يَضْحَكْ مُنْذُ خلقهُ اللهُ تعالى، ولو ضَحِكَ لأحدٍ لضَحِكَ إليكَ.

- **البيتُ المعمورُ:** ورأى في السماء السابعةِ البيتَ المعمورَ، وهو بيتٌ مُشَرَّفٌ، وهو لأهْلِ السماءِ كالكعبةِ لأهلِ الأرضِ، كُلَّ يَومٍ يدخلُهُ سبعونَ أَلْفَ مَلَكٍ يصلون فيهِ ثمَّ يخرجونَ ولا يَعُودُونَ أَبدًا.

والملائكةُ أجسامٌ نورانيةٌ ذوو أجنحة ليسوا ذكورًا ولا إناثًا، لا يأكلونَ، ولا يشربونَ، ولا يتناكحونَ، ولا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُم ويفعلونَ ما يؤمرون، وعددُهم لا يحصيهِ إلا اللهُ.

- **سدرةُ المنتهى:** وهي شجرةٌ عظيمةٌ بها من الحُسْنِ ما لا يَصِفُهُ أحدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، يَغْشَاها فَرَاشٌ (١) من ذَهَبٍ، وأصلُها في السماءِ السادسةِ، وتصلُ إلى السابعةِ، ورآها الرسولُ ﷺ في السماءِ السابعةِ.

(١) **فراش:** جمع فراشة وهي التي تطير وتتهافت في السراج.

الجنةُ: وهي فوقَ السماوات السبعِ منفصلة عنها فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ مما أعدهُ اللهُ للمسلمينَ الأتقياءِ خاصةً، ولغَيرِهِمْ مِمَّنْ يدخلُ الجنةَ نعيمٌ يشتركون فيه معهم.

فقدْ أخْبَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ عن حالِ أهلِ الجنةِ بعدَ دخولها قال: «يُنادي مُنادٍ إنَّ لَكُمْ أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبدًا، وإنَّ لَكُمْ أن تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهرموا أبدًا، وإنَّ لَكُمْ أَن تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أبدًا». فذلكَ قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الأعراف [٤٣] رواهُ مسلم.

في قوله عزَّ وجلَّ ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ دليل لأهل السنة والجماعة على قولهم الحق إن الله لا يجب عليه شيء وإنه متفضل على المؤمنين بإدخالهم الجنة من غير وجوب عليه إذ الإرث يناله الوارث دون مقابل، فدخول المؤمنين الجنة بفضل الله، وذلك كما في قوله ﷺ: «ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم».

ورأى رسولُ اللهِ ﷺ في الجنةِ الحورَ العينِ فطلبَ منه سيّدُنا جبريلُ أن يسلّمَ عليهنَّ بالقول فقلن له: نحن خيراتٌ حسانٌ، أزواجُ قومٍ كرامٍ، ورأى فيها الولدانَ المخلدينَ وهم خلقٌ من خَلْقِ اللهِ ليسوا من البَشَرِ ولا منَ الملائكةِ ولا منَ الجنّ، اللهُ تعالى خَلَقَهُم مِنْ غيرِ أمّ وأبٍ كاللؤلؤِ المنثورِ ليخدِمُوا أهلَ الجنةِ، والواحدُ من أهلِ الجنةِ أَقلُّ ما يكونُ عنده من هؤلاءِ الولدانِ عَشرَةُ آلافٍ بإحدى يديْ كلّ منهم صحيفةٌ من ذهبٍ وبالأخرى صحيفةٌ مِنْ فضةٍ.

العرشُ: ثم رأى العرشَ وهو أعظمُ المخلوقات، وحولَهُ ملائكةٌ لا يعلمُ عدَدَهُمْ إلا اللهُ،

وله قوائمُ كقوائِمِ السريرِ يحملُهُ أربعةٌ مِنْ أعظمِ الملائكةِ، ويومَ القيامةِ يكونونَ ثمانيةً، وقد وصف الرسولُ أحدَهُمْ بأنَّ ما بينَ شَحْمةِ أذنِهِ إلى عاتِقِهِ مسيرةُ سبعِمائةِ عامٍ بِخَفَقَانِ الطيرِ المُسرِعِ، والكرسيُّ بالنسبةِ للعرشِ كَحَلقَةٍ في أرضٍ فلاةٍ.

قال رسولُ الله ﷺ: «ما السموات السبعُ في جَنْبِ الكرسيّ إلا كَحَلقَةٍ في أرضٍ فلاةٍ، وفَضْلُ العرشِ على الكرسيّ كَفَضْلِ الفلاةِ على الحَلقَةِ». والعرش أولُ المخلوقات بعدَ الماءِ، ثم القلمُ الأعلى، ثم اللوحُ المحفوظُ، ثم بعد أن كتبَ القلمُ على اللوحِ ما يَكونُ إلى يَومِ القيامةِ بخمسينَ ألفَ سنةٍ خلق اللهُ السموات والأرضَ.

فلا يجوز أن يقال إن أول خلق الله نور محمد، أما حديث: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»، فهو حديث موضوع مكذوب مخالف للقرآن والحديث الصحيح والإجماع، وفيه ركاكة والركاكة من علامات الوضع عند علماء الحديث.

- **وصولُهُ ﷺ إلى مستوًى يسمعُ فيهِ صريفَ الأقلامِ:** ثم انفردَ رسولُ اللهِ عنْ جبريلَ بعدَ سدرةِ المنتهى حتى وصلَ إلى مستوًى يسمعُ فيه صريفَ الأقلامِ التي تَنْسَخُ بها الملائكةُ في صُحُفِها منَ اللوحِ المحفوظِ.

وأما ما يقال إن الرسول وصل وجبريل إلى مكان فقال جبريل: جُز فأنا إن اخترقت احترقت وأنت إن اخترقت وصلت فهذا ونحوه كذب وباطل.

- **سماعُهُ ﷺ كلامَ اللهِ تعالى الذاتيَّ الأزليَّ الأبديّ:** من المعلوم لدى أهلِ الحقّ أَن كلامَ اللهِ الذي هو صفة ذاته قديم أزلي لا ابتداء له، ليسَ ككلامِنا الذي يُبدأُ ثم يُختَمُ، فكلامه تعالى أزليٌّ ليس بصوتٍ ولا حَرْفٍ ولا لغةٍ، لأن اللغات والحروف والأصوات مخلوقة ولا يجوز على الله أن يتصف بصفة مخلوقة.

فلذلك نعتقدُ أن سَيّدنا محمدًا سمعَ كلامَ اللهِ الذاتيَّ الأزليَّ بغيرِ صوتٍ ولا حرفٍ ولا حلولٍ في الأذن.

ففي تلكَ الليلةِ المباركةِ ليلة الاسراء والمعراج أزالَ اللهُ عن أفضلِ خلقِهِ الحجابَ الذي يمنعُ مِنْ سماعِ كلامِ اللهِ الأزليّ الأبديّ الذي ليسَ ككلامِ العالمينَ، وفهم الرسول منه الأوامر التي أُمر بها والأمور التي بلّغها، أسمَعَهُ اللهُ بقدرتِهِ كلامَهُ في ذلكَ المكان الذي فوقَ سدرةِ المنتهى، لأنه مكانُ عبادةِ الملائكةِ للهِ تعالى، وهو مكانٌ لم يُحْصَ اللهُ فيهِ، وليسَ مكانًا ينتهي إليه وجودُ اللهِ كما في بعضِ الكتبِ المزيفةِ لأن اللهَ موجودٌ بلا مكانٍ.

ماذا فَهِم رسولُ الله ﷺ مِنْ كلامِ اللهِ الذاتيّ: فهمَ رسُول الله ﷺ مِنْ كلامِ اللهِ الذاتيّ فرضيةَ الصلواتِ الخمسِ، وفهم أيضًا أنه يُغْفَرُ لأمتِهِ كبَائرُ الذنوبِ لمنْ شاءَ اللهُ لَهُ ذلكَ، أما الكافرُ فلا يُغْفَرُ له مهما كانتْ معاملتُهُ للناسِ حسنةً، ولا يرحمُه اللهُ بعدَ الموتِ ولا يدخِلُهُ الجنةَ أبدًا إن ماتَ على كفرِهِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ النساء [٤٨].

وفهمَ أيضًا من كلامِ اللهِ الأزليّ الأبديّ أنّ مَنْ عَمِلَ حَسنةً واحدةً كُتِبَتْ له بعشرةِ أمثالِها، ومن هَمَّ بحسنةٍ ولم يَعْمَلْها كُتِبَتْ لهُ حَسنةً، ومن هَمّ بسيئةٍ وعَمِلَها كُتِبَتْ عليهِ سيئةً واحدةً.

رؤيتُهُ ﷺ لله عزَّوجلَّ بفؤادِهِ لا بعينِهِ: ومما أكرمَ اللهُ به نبيَّهُ في ليلة الإسراء والمعراج أنْ أزالَ عن قلبِهِ ﷺ الحجابَ المعنويَّ، فرأى اللهَ بفؤادِهِ، أي جَعَلَ اللهُ لَهُ قوةَ الرؤيةِ في قلبِهِ لا بعينِهِ لأن اللهَ لا يُرى بالعينِ الفانيةِ في الدنيا، فَقَدْ قَالَ الرسولُ ﷺ: «واعلمُوا أنكم لن تَرَوْا ربَّكمْ حتى تمُوتُوا». وإنما يُرى اللهُ في الآخرةِ بالعينِ الباقيةِ، يراه المؤمنونَ الذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ، لا يشبِهُ شيئًا من الأشياء، بلا مكانٍ ولا جهةٍ ولا مقابلةٍ ولا ثبوتِ مسافةٍ ولا اتصالِ شُعَاعٍ بين الرائي وبينَهُ عزَّ وجلَّ، يرى المؤمنون اللهَ عزَّ وجلَّ لا كما يُرى المخلوق. فقد روى البخاريُّ وغيْرُهُ عن رسولِ الله ﷺ قالَ: «أما إنكم ترونَ رَبَّكُمْ يومَ القيامةِ كما ترونَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا تضامُّونَ في رؤيتِهِ». أي لا تشكُّون أن الذي تَرَوْنَ هو اللهُ كما لا تشكونَ في قمرِ ليلةِ البدرِ، ولا يعني أن بينَ اللهِ تعالى وبينَ القمرِ مشابهةٌ، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ القيامة أما الكفارُ فلا يرونَ اللهَ في الدنيا ولا في الآخرةِ وهم مخلدونَ في نارِ جهنمَ، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ المطففين [١٥].

والدليلُ على أن الرسولَ رأى ربَّهُ بفؤادِهِ مرتينِ في المعراجِ ما أخرجه مسلمٌ عنِ ابنِ عباسٍ -رضيَ الله عنه- في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ النجم [١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ النجم [١٣]. قال: رآهُ بفؤادِهِ مرتينِ.

وبهذِهِ المناسَبةِ تجدرُ الإشارةُ إلى أنهُ لم يحصلْ للنبيّ أن رأى ربَّهُ وكلمَهُ في آنٍ واحدٍ بل كانت الرؤيةُ في حالٍ وسماعُ كلامِهِ في حالٍ، قالَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ الشورى [٥١].

رؤيتُهُ ﷺ لسيدِنا جبريلَ -عليهِ السلامُ- على هيئتِهِ الأصليةِ: كان ﷺ قَدْ رَأى جِبريلَ -عليه السلامُ- في المرةِ الأولى في مكةَ على هيئتِهِ الأصليةِ، فَغُشيَ عليهِ، أمَّا في هذِهِ الليلةِ المباركةِ ليلة الإسراء والمعراج فقدْ رآه للمرةِ الثانيةِ على هيئتِهِ الأصليةِ فلمْ يُغْشَ عليهِ إذْ إنَّهُ ازدادَ تَمَكُّنًا وقُوّةً.

روى مسلمٌ عنْ عائشةَ -رضيَ اللهُ عنها- في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ النجم. قالت: «إنما ذاكَ جبريلُ كانَ يأتيهِ، وإنهُ أتاهُ في هذهِ المرةِ في صورتِهِ التي هي هيأتُهُ الأصليةُ فَسَدَّ أُفُقَ السماءِ.»

وليسَ معنى هاتينِ الآيتينِ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ النجم

أن الله دنا منَ الرسولِ حتى قربَ منهُ بالمسافةِ قَدْر ذراعينِ أو أقلَّ، والذي يعتقدُ هذا يضِلُّ ويكفر، أما المعنى الصحيحُ فهو أنَّ جبريل دنا منْ سيدِنا محمدٍ ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي جبريلُ في دنوِهِ مِنْ سيدِنا محمدٍ ﷺ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي ذراعين ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بلْ أقربَ، وهناكَ ظَهَرَ له بهيأتِهِ الأصليةِ وله سِتُّمائةِ جناحٍ، وكلُّ جناحٍ يَسُدُّ ما بين الأرضِ والسماءِ.

روى مسلمٌ عن الشَعْبِيّ عَن مَسْرُوقٍ قال: كنتُ مُتَّكِئًا عندَ عائشةَ فقالتْ: يا أبا عائشةَ ثلاثٌ مَنْ تكلمَ بواحدةٍ مِنهنَّ فقد أَعْظَمَ على اللهِ الفِريَةَ قلتُ: مَا هُنَّ؟ قالت: مَنْ زَعَمَ أن محمدًا ﷺ رأى ربَّهُ فقدْ أعظمَ على اللهِ الفِرْيَةَ. قال وكنتُ متكئًا فجلستُ فقلتُ: يا أمَّ المؤمنينَ أَنْظِرِيني ولا تَعْجَليني، ألم يَقُلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ التكوير [٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ النجم [١٣]،فقالت: أنا أوّلُ هذهِ الأمةِ سألَ عَنْ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: «إنما هو جبريلُ لَمْ أَرَهُ على صورتِهِ التي خُلِقَ عليها غيرَ هاتينِ المرتينِ، رأيتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السماءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بينَ السماءِ والأرضِ». فقالت: أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ الأنعام [١٠٣] أوَ لَمْ تَسمعْ أَنَّ الله يقولُ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ الشورى [٥١]

قالت: ومَنْ زَعَمَ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شيئًا من كتابِ اللهِ فقدْ أعظَمَ على اللهِ الفِرْيَةَ، واللهُ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ المائدة [٦٧] قالت: وَمَنْ زَعمَ أنهُ يُخْبِرُ بما يكونُ في غَدٍ فقدْ أعظمَ على اللهِ الفِرْيَةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سورة النمل[٦٥] أي لا يعلم الغيب كلّه إلا الله، وهذا فيه ردٌّ على القائلين أن الرسول يعلم كل ما يعلمه الله، وهؤلاء ساووا الرسول بالله عزَّ وجلَّ، والله تعالى لا يساويه أحد من خلقه في صفة من صفاته فهو وحده العالِم بكل شيء والقادر على كل شيء لا يشاركه في ذلك ولا في سائر صفاته أحد من خلقه كائنًا من كان، وقد قال الرسول ﷺ: «لا ترفعوني فوق منزلتي».

ويقالُ إنَّ الرسولَ ﷺ مَرَّ ليلة الإسراء والمعراج بقومٍ يأجوجَ ومأجوجَ وهم كفارٌ منَ البشرِ وبلّغهُم الدعوةَ، ففي البخاريّ أَنَّ اللهَ يَقولُ لآدَمَ يَوم القيامةِ: «أخرج بعثَ النارِ من ذريَّتك، فيخرُجُ من يأجوجَ ومأجوج حصة النارِ أكثر من كلّ البشرِ». وكان ذو القرنينِ وهوَ رجلٌ وليٌّ صالحٌ بنى عليهم سَدًّا من حديدٍ ونحاسٍ أذابَهما، فهم مَحْجُوزُونَ خَلفَ السدّ في هذه الأرض إلى ما شاءَ اللهُ.

ماذا حصل بعد رجوع الرسولِ مِنَ ليلة الإسراء والمعراج؟

قالَ بعضُ العلماءِ: كانَ ذهابُهُ مِنْ مكةَ إلى المسجِدِ الأقصَى وعُروجُهُ إلى أنْ عادَ إلى مكةَ في نحو ثُلُثِ لَيلةٍ أَخْبَرَ أمَّ هانئ بذلكَ ثُمَّ أخبرَ الكفارَ أَنهُ أُسْرِيَ بِهِ فلمْ يصدّقُوهُ واستهزءُوا به فَتَجَهَّزَ ناسٌ مِنْ قريشٍ إلى أبي بَكْرٍ فقالوا لهُ: هَلْ لكَ في صاحبكَ يَزْعُمُ أنه قَدْ جاءَ بيتَ المقدسِ ثمَّ رجعَ إلى مكةَ في ليلةٍ واحدةٍ، فقالَ أبُو بكرٍ: أَوَ قَالَ ذلكَ؟ قالوا: نعمْ، قالَ: فأشهدُ لَئِنْ كانَ قَالَ ذلكَ لقدْ صَدَقَ. قالوا: فَتُصَدّقُهُ بأنْ يَأتِيَ الشامَ في ليلةٍ واحدةٍ ثُمَّ يَرْجِعَ إلى مكة قبلَ أنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نعمْ، إني أُصَدّقُهُ بأبعدَ مِنْ ذلكَ أُصَدّقُهُ بِخَبَرِ السماءِ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ فيها سُمّيَ أَبو بَكْرٍ الصديقَ -رضيَ اللهُ عنه-.

وطَلَبَ الكفارُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَصِفَ لهم المسجدَ الأقصى لأنهمْ يعلمونَ أنهُ لم يرحلْ مَعَ أهلِ بلدِهِ إلى هناكَ قطُّ، فجمَعَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ قومَهُ فحدثَهُمُ الرسولُ ﷺ بما رأى، فقال قومٌ منهمْ مِمَّنْ كانَ قَدْ سافرَ إلى ذلكَ البلدِ ورأى المسجدَ: أمَّا النعتُ فَقَدْ واللهِ أصابَ.

وصدق القائل:

يا مَنْ بهَدْيك أفلَح السُّعَداءُ ... هذي عظاتُك للقلوبِ دَوَاءُ

يا مَنْ بُعِثْتَ إلى الخلائقِ رحمةً ... أقسمْتُ إنكَ رحمةٌ وضياءُ

وبُعثتَ أُمّيًّا تقولُ فَتَغْتَذِي ... منكَ العقولُ وتستَقي العلماءُ

وعَدَلْتَ في أمرِ العبادِ فيستوي ... في دينِكَ الفقراءُ والأمراءُ

وسريتَ مَسْرَى البَدْرِ يَسْطَعُ مُشْرقًا ... في الكَائناتِ فتنجلِي الظَّلْمَاءُ

والمسجدُ الأقصى عَلَيْه مِنَ التقى ... حُلَلٌ ومِنْ نورِ الهدى لألاءُ

والأنبياءُ ببابِهِ قد شَاقَهُمْ ... نحوَ النبيّ محبَّةٌ ورِضاءُ

يا صاحبَ المعراجِ فوقَ المنتهى ... لكَ وحدَكَ المعراجُ والإسراءُ

يا واصفَ الأقصَى أتيتَ بوصفِهِ ... وكأنكَ الرسَّامُ والبنَّاءُ

إِخْوَةَ الإِيْمَانِ إن ليلة الإسراء والمعراج فيها مِنْ المُعْجِزَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ ﷺ قَطْعًا. اللَّهُمَّ اجْمَعْنَا بِحَبِيبِكَ مُحَمَّدٍ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَدَاوِنَا يَا رَبَّنَا بِنَظْرَةٍ مِنْه وَارْزُقْنَا شُرْبَةً مِنْ يَدِهِ الشَّرِيفَةِ لا نَظْمَأُ بَعْدَهَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

والحمد لله رب العالمين

ملاحظات

الدرس الرابع عشر – الهجرة النبوية الشريفة

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهْدِيهِ ونَشْكُرُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ ونَتُوبُ إِلَيْهِ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنا وسَيِّئاتِ أَعْمالِنَا، مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ولا مَثيلَ لَه ولا ضِدَّ ولا نِدَّ لَه، وأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وحَبِيبَنا وعَظِيمَنا وقائِدَنا وقُرَّةَ أَعْيُنِنا محمَّدًا عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ وصَفِيُّهُ وحَبِيبُهُ، بَلَّغَ الرِّسالَةَ وأَدّى الأَمانَةَ ونَصَحَ الأُمَّةَ فَجَزاهُ اللهُ عَنّا خَيْرَ ما جَزَى نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنا محمَّدٍ صَلاةً تَقْضِي بِها حاجاتِنا وتُفَرِّجُ بِها كُرُباتِنا وتَكْفِينا بِها شَرَّ أَعْدائِنا وسَلِّمْ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ سَلامًا كَثِيرًا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ التوبة [٤٠]

الهجرة النبوية وأسبابها ونتائجها

لمّا اشتد أذى المشركين في مكة المكرمة على رسول الله ﷺ وأصحابه، وحين ظهر الإسلام وانتشر في المدينة المنورة، شكا أصحاب رسول الله ﷺ ما وجدوه من الأذى، واستأذنوه في الهجرة إلى المدينة، فأذن، فهاجر إليها كل من يحافظ على دينه، فخرجوا أفواجًا، فآواهم الأنصار وواسَوهم، ولم يبق بمكة إلا المصطفى رسول الله ﷺ والصديق أبو بكر والمرتضى عليّ أو محبوس أو مريض.

ولما رأت قريشٌ خروجَ من أسلم إلى المدينة، خافت خروجَ المصطفى، وعلمت أنه قد صار للمسلمين مَنَعَةٌ وقوة، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمره، وحَضَرَهُمْ إبليس في صورة شيخ نجدي، فأشار كلٌّ برأي، وإبليس يرده، إلى أن قال أبو جهل: نأخذ من كل قبيلة من قريش غلامًا بسيف فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرقُ دمُه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حربِ الكل.

فقال النجدي: هذا هو الرأي، فتفرقوا عليه، وأخبر جبريلُ النبيَّ بذلك، فلم ينم في مضَجَعه تلك الليلة، فلما كانت عتمةٌ من الليل، اجتمع المشركون على بابه يرصدونه حتى ينام، فيَثِبُون عليه، فقال لعليّ: نَمْ على فراشي وتَسجَّ بِبُردِي فلن يخلُصَ إليك شيءٌ تكرهُهُ، وأخذ حَفْنةَ ترابٍ وخرجَ عليهم، فلم يروه، فجعل ينثُرُ ذلك الترابَ على رؤوسهم، وهو يتلو سورةَ يس إلى قولِه تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ يس [٩].

جاء المصطفى إلى بيت الصديق ظهرًا فقال: إن الله أذِنَ لي في الهجرة، فقال: الصحبةَ، فتجهزا، قالت عائشة: وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً (طعام المسافر) فِي جِرَابٍ (وعاء من جلد)، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ (النطاق: ثوب تشد به المرأة وسطها)، فخرجا ليلًا، فترافقا إلى غار في جبل ثور، فدخلاه وخيَّم العنكبوت على بابه وباضت حمامتان، وطلبت قريشٌ المصطفى أشدَّ الطلب، وجعلت لمن دلَّ عليه مائةَ ناقة، وأتَوْا إلى الغار فوجدوه كذلك، حتى قَالَ أبو بكر: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا». معناه: ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد.

وكان في الغار ثقوب فجعل الصدّيق -رضي الله عنه- يسدّ الثقوب بثوبه وبقي ثقب فسدّه برجله ليحمي حبيبه وقرّة عينه محمّدًا، فلدغتْه الأفعى برجله فما حرّكها وما أزاحها، فمن شدّة ألَمه بكى -رضي الله عنه- فنَزلت دمعته وأيقظت رسولَ الله ﷺ، فقام ﷺ ومسح له بريقه الطاهر فشُفي بإذن الله تعالى.

وبعد ثلاث ليال ارتحلا فمرّا على خيمة أم مَعبَد، فرأى النبيُّ عندها شاة، قال: هل بها من لبن؟، قالت: هي أجهد من ذلك، فمسح النبيُّ ظهرها وضرعها، وسمَّى ودعا، فحَلبَ في إناء فملأه وسقى من كان معه، ثم حلب فيه ثانيًا وتركه عندها مملوءًا، وسافر بعد أن بايعها على الإسلام، واستمرت تلك البركة فيها.

روى البيهقي في دلائل النبوة: خرج رسول الله ﷺ ليلًا فتبِعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك؟» قال: يا رسول الله، أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك، لا آمن عليك.

كان المهاجرون والأنصار يتوافدون إلى قُباء، وهو موضع بئر على ثلاثة أميال من المدينة، ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ، فلما كان يومُ قدومه نزلها بالسعد والهناء في يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وجاء المسلمون يسلمون عليه، وأقام المصطفى في قُباءٍ مدة، وأسس فيها المسجد الذي قال الله فيه: ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ التوبة [١٠٨].

ولحقه عليّ بن أبي طالب، وكان تأخر ثلاث ليال لرد الودائع التي كانت عند المصطفى ﷺ لأهلها، ثم طلع رسول الله من بين أظهرهم، فركب راحلته ومشوا حولها، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها، ثم ارتحل المصطفى قاصدًا المدينة، فأتاه بعضهم فأخذوا خطام ناقته، فقال: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوها حتى دانت دار بني مالك بن النجار، فبركت ناقته المأمورة، أي التي أمرها الله تعالى أن تبرك بموضع مسجده -عليه السلام-، فلما بركت وهو عليها لم ينزل وثبت فسارت غير بعيد، والمصطفى واضعٌ لها زِمامها لا يُثنيها به، ثم التفتتْ خلفها، فرجعت إلى مبركها الأول فبركت به، ثم تحلحلت ووضعت جِرانها فنزل عنها، وذلك في وقت الظهيرة فاحتمل أبو أيوبَ من بني النجار رحله، وأدخل ناقته داره، ونزل عنده لكونه من أخوال عبد المطلب، فأقام بدار أبي أيوبَ حتى ابتنى مسجده الواسع بعد شرائه أرضه، ثم بنى حوله مساكن لأهله، وبنى أصحابه من المهاجرين والأنصار مساكنهم حواليه في كنفه.

لمّا هاجر المصطفى طابت به طيبة بعدما كانت رِدِيَّة، وأضاء كل ما كان منها أسود منذ دخلها، وسرى السرور إلى القلوب بحلوله بها، وكانت من أوبئ الأراضي، فزال عنها وباؤها ببركة هذا النبي العظيم الجاه، ودعا اللهَ قائلًا: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَحَوِّلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ. وقال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا، وَاجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ. وقال: عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ لا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلا الدَّجَّالُ.

الهجرة النبوية كانت تنفيذًا لأمر الله عزَّوجلَّ

لقد كانت الهجرة النبوية إيذانًا بأن صولة الباطل مهما عظمت وقوته مهما بلغت فمصيرها الزوال، ونهايتها إلى الفشل والبوار وإيذانًا أن الحق لا بد له من يوم يُحَطِّم فيه الأغلال وتعلوا فيه رايته وترتفع كلمته.

لقد جاءت هجرة الرسول بأمر من الله عز وجل لتعلن نهاية عهد الاستبداد وبداية فجر مشرق وعهد مجيد من هناك من يثرب انبثق نور الدعوة المحمدية قويًّا وضاء فبدد الظلمات وجاز ما اعترضه من عقبات.

لم تكن هجرة الرسول ﷺ هربًا من المشركين ولم تكن هجرته حُبًا في الشهرة والجاه والسلطان ولم تكن هجرته التماسًا للراحة والسكون، وإنَّما كانت تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى، وبعده خرج الفاروق عمر بن الخطاب وكانت لقصة خروجه -رضي الله عنه- العِبَر الكثيرة.

وعندما وصل الرسول الأعظم ﷺ مع صاحبه الصديق أبي بكر إلى يثرب خرج المؤمنون من أهلها مرحبين بقدوم النبي الكريم وصاحبه الوفيّ واستبشروا بقدومهما وقدوم الأصحاب كل خير وضرب هؤلاء مع إخوانهم المهاجرين أروع الأمثلة في التضحية والأخوَّة والتحابب والتباذل في الله.

لقد جمعهم الإسلام، ووحدتهم العقيدة، وألَّف الله بين قلوبهم حتى صاروا على قلب رجل واحد لا يُفرِّق بينهم طمع ولا دنيا، ولا يباعد بينهم حسد ولا ضغينة، مثلهم كمثل البنيان المرصوص يشد بعضُه بعضًا، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا بهم إنه على كل شيء قدير.

الهجرة النبوية دروس وعبر

الهجرة النبوية المباركة جعلتنا نقف ونتدبر فيما يرويه التاريخ لنا عن الدعوة المحمدية وصاحبها الذي أمره ربه عز وجل أن يبث كلمة لا إله إلا الله، وينشر معاني التوحيد، ويبطل مظاهر الإشراك، ويحارب عادات الكفر والإلحاد.

وقد سعى المشركون بكل عزمهم وأموالهم أن يصدوا الناس عن دين الحق، وأن يوقفوا مسيرة الإيمان والتوحيد، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح وانتصر الحق وارتفع نداء التكبير.

وكان الرسول ﷺ في دعوته إلى دين الله كله ثقة بالله عز وجل وتوكلٌ عليه. وها هو بعد ذهابه إلى الطائف لدعوة الناس إلى الهدى وتعرضه لأقبح ردٍّ منهم يأتيه جبريل ويقول له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت». فيقول الحبيب المصطفى:«بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا».

وقد تحمَّل نبينا المصطفى ﷺ الأذى الشديد من المشركين وهو صابر ثابت يدعو إلى دين الله، وكذلك تعرض أتباعه وأصحابه لصنوف شتى من التنكيل والاضطهاد وهم ثابتون على ما هم عليه من الإيمان، رافضون أن يرجعوا إلى عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر شيئًا.

كما أن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة أرست معالم عهدين: العهد المكي والعهد المدني.

فأما العهد المكي فهو عهد تحمل فيه النبيُّ الأعظم أعباء الدعوة إلى الله، صابرًا محتسبًا مُجاهرًا بالحق، دون أن يؤذن له بقتال من عاداه وآذاه ورفَعَ سيف الاضطهاد والتنكيل بأصحابه المستضعفين المتشبثين بدينهم وإيمانهم.

لقد صبر ﷺ على اللَّأْواء والبلواء والضراء، كما صبر أصحابه وتحملوا في سبيل الله، وهم يعلمون أن المؤمن إذا أصابته سرَّاء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيرًا له.

دعا النبيُّ ﷺ إلى العدل والإحسان ومكارم الأخلاق ونهى عن المنكر والبغي. فهو أفضل الأوّلين والآخرين على الإطلاق، هو محمّد ﷺ الذي عرّفه قومه قبل نزول الوحي بلقب الأمين فلم يكن سارقًا ولم يكن رذيلًا ولم يكن متعلّقَ القلب بالنساء، وكان يدور في المواسم التي يجتمع فيها الناس ويقول:«أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا»، وكان يتبعه رجل من المشركين ويقول:«أيها الناس لا تصدّقوه».

صبر النبيُّ ﷺ على إيذاء المشركين، أليس حينما كان يصلّي عند الكعبة رمى على ظهره عقبة بن أبي معيط سلى جزور؟ وذلك المشرك أبو جهل أراد أن يخنقه بثوبه فمنعه أبو بكر وقال:« أتقتلون رجلًا يقول ربيَ الله؟ » أليس كُسرت رباعيّتُه من أسنانه؟ أليس ضُرب بالحجارة عليه الصلاة والسلام؟ ولكن هذا النبي المؤيّد بنصر الله المبين ثبت كما أمره الله، فما من نبيٍّ يتخلّى عن الدعوة إلى الله لشدّة الإيذاء، الكفار تعجّبوا لهذا الصبر فقالوا لأبي طالب: «يا أبا طالب ماذا يريد ابنُ أخيك؟ إن كان يريد جاهًا أعطيناه فلن نمضي أمرًا إلا بعد مشورته، وإن كان يريد مالًا جمعنا له المال حتى يصير أغنانا، وإن كان يريد الملك توّجناه علينا»، ولكن النبيّ الذي يوحَى إليه أجاب عمَّه بقوله:«والله يا عمّ لو وضعوا الشمس بيميني والقمرَ بشمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهرَه الله أو أهلك دونَه».

هادينا والصديق معا ... في الغار ثقوبا وَجَدَ

وأبو بكر فيها وضع ... ثوبًا مزّقه إذ وَرَدَ

ويسدّ الباقي من خوفٍ ... بالرجل لكي يحمي طه

لدغته الأفعى من جوفٍ ... ما حرّكها وما زاح

فبكى من ألَمٍ أتعبَهُ ... والدمعة أيقظت المحبوب

بالريق الطاهر طيّبهُ ... وارتاح من الألم المكروب

وحمى الله تعالى حبيبَه بخيط العنكبوت، حمى الله تعالى حبيبه بأضعفِ البيوت وأوهنِ البيوت بيتِ العنكبوت، فأرسل الله حمامةً باضت على فمِ الغار ونسج العنكبوت خيطه.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ التوبة [٣٢].

والمؤمنون في المدينةِ المنوّرة ينتظرونَ حُبًّا وشوقًا، ينتظرون وصولَ الحبيب المصطفى ﷺ، فكانوا يتوافدونَ إلى مشارفِ المدينة من ناحية طريقِ مكّة وكان بعضهم يتسلّق الأشجار وينظر إلى بُعدٍ علّه يرى أثرًا لقدوم الحبيب ﷺ، وتمضي الأيام والساعات ويعودون حزينين.

وذات يومٍ والناسُ في انتظارٍ بلهفٍ وشوقٍ وقد انتصفَ النهارُ واشتدَّ الحرُّ ورجعوا جماعةً بعد جماعة وإذ برَجُلٍ ينادي بأعلى صوته: ها قد جاء من تنتظرون يا أهل المدينة، فتكرّ الجموع عائدة لاستقبال الحبيبِ المحبوب والحُبّ يسبقها ولسان حالها يقول:«طلع البدر علينا من ثنيات الوداع» .

وأما العهد المدني، وهي الفترة التي بدأت بوصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، فهو عهد تغيرت فيه الموازين، واشتد ساعد أهل الإيمان، فخاض المؤمنون وأبطال الإسلام الأشاوس الوقائع بكل صدق وإخلاص واندفاع، ومُني فيها أعداء الحق بالهزائم المتتالية.

لقد استطاع النبي ﷺ بحكمته الواسعة وإرشاداته البليغة العظيمة أن يجمع الطاقات المستنيرة بنور الإيمان، ويستعملها للخير ونشر المعرفة النقية، والمبادىء السامية، والمفاهيم الراقية، وكان ﷺ يوصي أصحابه بالتوادِّ والتعاطف والتراحم، وأن يشد بعضهم أزر بعض، كما كان يأمرهم بالخلق الحسن، ويحذرهم من الغلو الذي أهلك من كان قبلهم، وهو الذي قال:«إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين».

فلماذا، والحال هذا، لا يقتبس اليوم أدعياء العمل الإسلامي أصحاب التطرف والغلواء من سيرة صاحب الرسالة؟!، فيتركوا التطرف أولًا، ثم يعملوا على حشد النفوس المؤمنة نحو العمل الصالح وكل ما من شأنه جمع الكلمة وتوحيد الصف، بدل أن يخبطوا خبط عشواء، ويُمعنوا في جسد الأمة تقتيلًا وتخريبًا، وفي أوطانهم تفتيتًا وشرذمة!!

ما أحوجنا ونحن نقرأ قصة الهجرة النبوية المباركة أن نفهم دلالاتها وعبرها، ونأخذ منها ما ينير سبيلنا، ويغذي أجيالنا المتعطشة للمعرفة والثقافة الصافية.

فالمنهج الذي جمع الرسولَ الكريم ﷺ وصاحبَه الصديق كان معرفةَ الحق وسلوك طريقه فأصبح «غار ثور» مدرسة تعلم الصبر وترشد إلى السعادة بدواء «لا تحزن»، وتُنبىء عن عز الدنيا ورفعة الدين بعقيدة «إن الله معنا» هو حافظنا وهو ناصرنا وعليه التكلان.

هجرتك يا رسول الله درس يسطره التاريخ شمسًا منيرة ترشد وتهدي، وعِبرًا وحكمًا تدل وتسدد، هجرة بأمر الله لنشر الخير الذي أعطاه الله، فسرت في ركب العزيمة، وحملت لواء الدين، وتآخى الناس تحت راية الحب في الله، مهاجرين وأنصارًا، ولم تفرقهم الدنيا، بل جمعتهم الآخرة، وكلهم رجاء أن يلقوك فيها، ويحشروا تحت لوائك، ويشربوا من حوضك، وتكون أنت إمامهم فيها كما كنت إمامهم في حياة خرجوا منها مؤمنين موحدين.

ما أحوجنا أن نقتدي برسولنا الكريم، ونوحد صفوفنا، ونضاعف جهودنا، ونجمع كلمتنا لمواجهة المخاطر والتحديات، ما أحوجنا أن نسعى نحو الخير، وأن نكون متعاونين في وجه من يريد الشر والفتنة.

متى كانت هجرة الرسول -عليه الصلاة السلام-؟

روى البخاري في الصحيح عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: «بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ». اهـ وقد كانت هجرته -عليه السلام- في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته -عليه السلام- وذلك في يوم الاثنين كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: «ولد النبي ﷺ يوم الاثنين واستنبئ يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين». اهـ

من عجائب ما حصل في الهجرة النبوية الشريفة:

روى البيهقي في «دلائل النبوة»: أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله عز وجل بشجرة، فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله العنكبوت فنسجت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل، بعصيهم وهراويهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ بقدر أربعين ذراعًا، فجعل رجل منهم لينظر في الغار فرأى حمامتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له ما لك لم تنظر في الغار؟ فقال: رأيت حمامتين بفم الغار، فعلمت أنه ليس فيه أحد. اهـ

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري أن مقسمًا مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الأنفال [٣٠] قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ. وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات عليّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا عليه، فلما رأوا عليًا ردَّ الله عليهم مكرهم. فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري. فاقتفوا أثره فلمَّا بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال اهـ.

بعد أن مكث رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- في غار ثور ثلاث ليال ارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما، واستأجرا عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق، فأخذوا نحو طريق الساحل أسفل من عُسفانَ، والحق سبحانه شاغل لعدوهم عن اتباع آثارهم من تلك الجهة.

قصة سراقة بن مالك ولحاقه بالنبي ﷺ

وبلغ سُراقة بن مالك بن جُعشم المُدلِجي أن سوادًا مرّ بالساحل، فركب فرسه منتهزًا للفرصة خفية من قومه، يريد برسول الله ﷺ فتكًا أي قتلًا ليحصل على ما جعلت قريش لمن ردَّه أو قتله، وهو غير فاتك به لأن الله حماه وعصمه.

فحث في الطلب حتى أدركهما، فصُرع عن فرسه، فأخرج الأزلام فاستسقم بها فخرج ما يكره، فركب وحثَّ في الطلب، فصار أبو بكر يكثر التلفت والمصطفى يقرأ ولا يلتفت، فلما قرب منهما قال: «اللهم اكفناه كيف شئت وبما شئت»، ودعا عليه فساخت يدا فرسه إلى بطنها في أرض جَلَدٍ وخرَّ عنها فناداه بالأمان لحبسه عن لحاقه له، فدعا له فانطلق فرسه، ووقف المصطفى حتى جاءه فأخبره ما يريدُ به قومه وأنهم قد جعلوا فيه الدِّية، فقال: «أخفِ علينا» فرجع فوجدهم يلتمسونه، فقال: ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ههنا، قال: فخرجتُ وأنا أحبُّ الناس في تحصيلهما ورجعتُ وأنا أحَبُهم في أن لا يعلمَ بهما أحد، وفي ذلك يقول مخاطبًا لأبي جهل:

أبا حكمٍ لو كنتَ واللهِ شاهدًا ... لأمرِ جَوادي إذ تسيخُ قوائمُهْ

علمتَ ولم تشكُكْ بأنّ محمدًا ... رسولٌ ببرهانٍ فمَنْ ذا يقاومُهْ

عليكَ بكفِ القومِ عنه فإنني ... أرى أمرَه يومًا ستبدُو معالِمُهْ

بأمرٍ يَوَدُّ الناسُ فيه بأسرِهِمْ ... بأنّ جميعَ الناس طُرًّا تُسالِمُهْ

ويقال: إن المصطفى كتب له كتابًا بالأمان في عظم أو أَدَم، وأنه وافاه به يوم الفتح فرحب به وأمّنه، ووقع لسراقة هذا عَلَمٌ من أعلام النبوة وهو قول المصطفى: «كيف بك إذا لبست سِوارَي كسرى» فلبسهما أيام عمر.

مسح النبي على شاة أم معبد

بعد ذلك مروا على خيمة أم معبد، واسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية وهي على طريقهم مختبئة بفناء خيمتها تسقي المارة من الماء واللبن، ونظر النبي ﷺ عندها شاة، قال: ما هذه؟ قالت: «شاة أضر الجهد بها وما بها قُوى تشتد بها حتى تلحق الغنم ترعى معهم». قال: «هل بها من لبن؟» قالت: «هي أجهد من ذلك». فمسح النبي منها ظهرها وضرعها وسمَّى ودعا، فحلب ما قد كفاهم وُسعًا أي ما تحتمله طاقتهم من الرِّي، وحلب النبي بعد ذلك إناء آخر، وترك ذاك الإناء عندها مملوءًا، وسافر بعد أن بايعها على الإسلام واستمرت تلك البركة فيها.

وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو وأبو بكر ومولى أبي بكر وهو عامر بن فهيرة ودليلهما عبد الله بن أريقط، مروا على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تسقى وتطعم بفناء الكعبة، فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروه، فلم يصيبوا عندها شيئًا، وكان القوم مرملين، وفي كسر الخيمة شاة، فقال رسول الله ﷺ: يا أم معبد هل بها من لبن قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها قالت: نعم إن رأيت بها حلبًا، فمسح بيده ضرعها وسمَّى الله ودعا لها في شاتها فدرت واجترت فدعا بإناء فحلب فيه حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم، ثم حلب فيه ثانيًا ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها.

وفي لفظ: أن النبي ﷺ نزل عندها هو وأبو بكر ردفان مخرجه إلى المدينة حين خرج فأرسلت إليه شاة فرأى فيها بصرة من لبن فقربها فنظر إلى ضرعها فقال: والله إن بهذه الشاة للبنًا، وهي جالسة تحت سقيفتها، فقالت: اردد الشاة، فقال: لا ولكن ابعثي شاة ليس فيها لبن، فبعثت إليه بعناق جذعة، فقبلها.

وفي لفظ: أن النبي ﷺ نزل عليها فأرسلت إليه شاة تهديها له فأبى أن يقبلها فثقل ذلك عليها فقالوا إنما ردها لأنه رأى بها لبنًا فأرسلت إليه بجذعة فأخذها.

وذكر الواقدي في قصة أم معبد قصة الشاة التي مسح النبي ﷺ ضرعها وذكر أنها عاشت إلى عام الرمادة، قالت: فكنا نحلبها صبوحًا وغبوقًا وما في الأرض لبن قليل ولا كثير.

ثم لما رحلوا جاء زوجها أكثم بن الجون يسوق غنمًا أعنزًا عجافًا، فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين ولا حلوب في البيت؟ قالت: مر بنا رجل مبارك من حاله كذا. قال: صفيه؟

قالت: ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ أَبْلَجُ الْوَجْهِ حَسَنُ الْخُلُقِ لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ وَسِيمٌ قَسِيمٌ فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ وَفِي صَوتِهِ صَحَلٌ وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ أَحْوَرُ أَكْحَلُ أَزَجّ أَقْرَنُ شَدِيدُ سَوَادِ الشّعْرِ إِذَا صَمَتَ عَلاهُ الْوَقَارُ وَإِذَا تَكَلّمَ عَلاهُ الْبَهَاءُ أَجْمَلُ النّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلاهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ، فصل لا نَزْرٌ ولا هَذَرٌ كَأَنّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَنحدرنَ، رَبْعَةٌ لا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ ولا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثلاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفّونَ بِهِ، إن قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ، وَإن أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ، لا عَابِسٌ وَلا مُفْنِدٌ.

قولها (ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ) أي ظاهر الجمال، (أَبْلَجُ الْوَجْهِ) أي مشرق الوجه مضيئه، (حَسَنُ الْخُلُقِ) (لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَة) الثجلة عِظَمُ البطن مع استرخاء أسفله (وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَة) أي صغر الرأس (وَسِيمٌ) المشهور بالحسن كأنه صار الحسن له سمة (قَسِيمٌ) الحسن قسمة الوجه أي كل موضع منه أخذ قسمًا من الجمال فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ) اشتد سوادها وبياضها واتسعت (وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ) أي طول (وَفِي صَوتِهِ صَحَلٌ) أي شبه البُحة (وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ) أي طول العنق (وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ) (أَحْوَرُ) اشتد بياض بياض عينيه مع سواد سوادهما (أَكْحَلُ) أي ذو كحل اسودت أجفانه خلقة (أَزَجّ أَقْرَنُ) أي مَقْرُون الحاجبين (شَدِيدُ سَوَادِ الشّعْرِ) (إِذَا صَمَتَ عَلاهُ الْوَقَارُ) أي الرزانة والحِلْم (وَإِذَا تَكَلّمَ عَلاهُ الْبَهَاءُ) من الحسن، الجلال والعظمة (أَجْمَلُ النّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلاهُ مِنْ قَرِيبٍ حُلْوُ الْمَنْطِقِ) (فصْلٌ لا نَزْرٌ وَلا هَذَرٌ) أي لا قليل ولا كثير أي ليس بقليل فيدل على عِيّ ولا كثير فاسد (كَأَنّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَنحدرنَ) أي كلامه محكم بليغ (رَبْعَةٌ) (لا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ) أي لا تزدريه لقصره فتجاوزه إلى غيره بل تهابه وتقبله،(وَلا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ) أي لا يُبْغَضُ لفرط طوله (غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثّلاثَةِ مَنْظَرًا) (وَأَحْسَنُهُمْ قَدًا)أي قامة (لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفّونَ بِهِ، إِذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ) (مَحْفُودٌ) أي مخدوم (مَحْشُودٌ) الذي يجتمع الناس حوله (لا عَابِسٌ) (وَلا مُفْنِدٌ) المنسوب إلى الجهل وقلة العقل، المُفْنِد أي لا فائدة في كلامه لكبرٍ أصابه .

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره وقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلًا.

وأصبح صوت بمكة عالٍ يسمعون الصوت ولا يرون صاحبه يقول:

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقين حلا خيمتَي أم معبدِ

هما نزلا بالهدى واغتدوا به فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فعال لا يجارى وسؤدد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصدِ

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاةٍ حائلٍ فتحلبت له بصريحٍ ضرةُ الشاة مزبد

قالت أسماء: فلما سمعناه عرفنا حيث وجَّه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة.

وصول النبي إلى المدينة

لما ارتحل المصطفى قاصدًا المدينة أتاه عتبان بن مالك في رجال من بني سالم فأخذوا خطام ناقته فقالوا: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فقال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوها حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة في رجال فقالوا كالأول وأعاد مثله، حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة في رجال فقالوا مثله وأعاد مثله، حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار وهم أخواله اعترضه سليط بن قيس في رجال فقالوا: هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» حتى دانت دار بني مالك بن النجار بركت ناقته المأمورة أي التي أمرها الله تعالى أن تبرك بموضع المسجد أي مسجده -عليه السلام- وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر معاذ بن عفراء، فلما بركت وهو عليها لم ينزل وثبت فسارت غير بعيد والمصطفى واضعٌ لها زمامها لا يثنيها به ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول

فبركت به ثم تحلحلت ووضعت جرانها فنزل عنها وذلك في وقت الظهيرة أي الهاجرة، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد من بني النجار رحله وأدخل ناقته داره ونزل عنده لكونه من أخوال عبد المطلب ولما سألوه النزول عليهم قال: «المرء مع رحله» وخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار *** يا حبذا محمدٌ من جار

فخرج إليهم رسول الله فقال: «أتحبونني»، قالوا: إي والله، قال: «وأنا والله أحبكم» ثلاثًا، قال زيد بن ثابت: وأول هدية دخلت بها أنا قصعة مثرود فيها خبز وسمن ولبن فقلت: أرسلت بها أمي فقال: «بارك الله فيك» ودعا صحبه فأكلوا فلم أرم الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة بثريد وعراق لحم وما كان من ليلة إلا وعلى باب المصطفى الثلاثة والأربعة يحملون طعامًا كثيرًا ثم صار سعد بن عبادة يرسل إليه كل يوم قصعة، فأقام بدار أبي أيوب حتى ابتنى مسجده الرحيب أي الواسع بعد شرائه أرضه من قسيم مالكيه، وذلك أن المصطفى سأل عن المربد لمن هو فقال معاذ بن عفراء: لسهل وسهيل ابني عمرو يتيمان لي وأُرضيهما فيه، وقال الدمياطي: إن المصطفى ساومهما فيه ليتخذه مسجدًا فقالا: هبة لك، فأبى حتى ابتاعه بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما إياها، ثم أمر بالنخل الذي فيه والغرقد فقطع، وباللبن فضرب، وكان فيه قبور جاهلية فنبشت وغيبت العظام وسويت الحفر، وأسس المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وفي ذينك الجانبين مثل ذلك فهو مربع، وقيل كان أقل من مائة، وجعل الأساس نحو ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبِن، وجعل رسول الله ينقل معهم الحجارة ويقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة» وقال قائل:

لئن قعدنا والنبي يعمل *** لذاك منا عمل مضلل

وقال عمار بن ياسر: قتلوني يا رسول الله، حمّلوني فوق ما يتحملون، فقال: «إنما تقتلك الفئة الباغية» فقتل بصفين.

وجعل قبلته لبيت المقدس وجعل له ثلاثة أبوابٍ بابًا في مؤخره وبابًا يقال له باب الرحمة وهو الذي يسمى باب عاتكة والباب الثالث الذي يدخل منه المصطفى وهو الذي يلي آل عثمان، وجعل عمده الجذوع وسقفه الجريد وبنى بيوته باللبِن. ومن الفوائد الحسنة ما ذكره مغلطاي أن موضع المسجد كان ابتاعه تُبَّعٌ للمصطفى قبل مبعثه بألف سنة وأنه لم يزل على ملكه من ذلك العهد.

ثم إنه بنى حوله منازل أي مساكن لأهله أي نسائه ومواليه ومن يليه، وبعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة زوجته وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن، وجلس أبو العاص ابن الربيع مع بنته زينب، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر وفيهم عائشة فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان، كل ذلك وهو في بيت أبي أيوب. وكان أصحابه من المهاجرين والأنصار يبنون مساكنهم حواليه في ظله أي في كنفه، وإن من الأنصار من ترك مسكنه البعيد وسكن بقربه.

أخرج البيهقي في دلائل النبوة، باب ما جاء في المهاجرة إلى النبي ﷺ التي أحيا الله تعالى بدعائها ولدها بعد ما مات: عن أنس قال: عدنا شابًا من الأنصار، وعنده أم له عجوز عمياء، قال: فما برحنا أن فاض، يعني: مات، ومددنا على وجهه الثوب، وقلنا لأمه: يا هذه احتسبي مصابك عند الله، قالت: «أمات ابني؟» قلت: نعم، قالت: «اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك، رجاء أن تعينني عند كل شديدة، فلا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم». قال أنس: فوالله ما برحت حتى كشف الثوب عن وجهه وطعم وطعمنا معه اهـ. وأخرجه ابن عدي وابن أبي الدنيا وأبو نعيم.

روى ابن سعد عن عثمان بن القاسم أنه قال: لما هاجرت أم أيمن، (من مكة إلى المدينة) أمست بالمنصرف ودون الروحاء، فعطشت، وليس معها ماء؛ وهي صائمة، فأجهدها العطش، فدلي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض، فأخذته فشربته حتى رويت. فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر، فما عطشت.

وأخرجه ابن السكن من طريق هشام بن حسان عن عثمان بنحوه وقال في روايته: خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد. وقال فيه: فلما غابت الشمس إذ أنا بإناء معلق عند رأسي، وقالت فيه: ولقد كنت بعد ذلك أصوم في اليوم الحار ثم أطوف في الشمس كي أعطش فما عطشت بعد اهـ.

وفي بعض الروايات: فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسًا على رأسها، فرفعته فإذا دلو برشاء أبيض معلق، فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها اهـ.

روى مسلم في الصحيح، باب الدَّليل على أنَّ قاتل نفسِه لا يكفَّر: أَنَّ الطُّفَيْلَ بنَ عَمْرٍو الدَّوسِيَّ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَوُا المَدِيْنَةَ فَمَرِضَ فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ، وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ. فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ. فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ».

قوله: (فَاجْتَوَوُا المَدِيْنَةَ) أي كرهوا المقام بها لضجر ونوع من سقم. قال أبو عبيد والجوهريُّ وغيرهما: اجتويت البلد إذا كرهت المقام به، وإن كنت في نعمة. وقوله: (فَأَخَذَ مَشَاقِصَ) وهي جمع مشقص، هو سهم فيه نصل عريض. وأمَّا البراجم فهي مفاصل الأصابع، واحدتها: برجمة.وقوله: (فَشَخَبَتْ يَدَاهُ) أي: سال دمهما. أمَّا أحكام الحديث: ففيه حجَّة لقاعدة عظيمة لأهل السُّنَّة أنَّ من قتل نفسه أو ارتكب معصية غيرها، ومات من غير توبة فليس بكافر ولا يُقطع له بالنَّار بل هو في حكم المشيئة.

إخوة الإيمان والإسلام: في نهاية الدرس أُذكِّركم كما أُذكِّر نفسي بأنّ الله تعالى وعد المؤمنين بالنصر المبين وجعل لهم من الشدّة فرجًا ومن العسر يسرًا ومن الضيق سعة، وأنّ الدروس المستفادة من الهجرة النبوية كثيرة ومن جملتها ضرورة الصبر على الشدائد والبلايا وكافّة أنواع الظلم والاستبداد، والصمود في وجه الباطل، والوقوف إلى جانب الحقِّ في شجاعة وحزم وعزم، وأنّ بهجتنا بهذه الذكرى العظيمة في الظروف الحالية التي تمرّ بها الأمّة تبعثنا على مضاعفة الجهد في سبيل نشر دين الله، تبعثنا على مضاعفة الجهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله محمّد رسول الله بالتعلّم والتعليم.

والحمد لله رب العالمين

ملاحظات

الدرس الخامس عشر– أشراط الساعة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونشكره ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا شبيه ولا مثل ولا ند له، ولا حد ولا جثة ولا أعضاء له، أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا وقرة أعيننا محمدًا عبده ورسوله وصفيُّهُ وحبيبه، من بعثه الله رحمة للعالمين هاديًا ومبشرًا ونذيرًا. اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمدٍ القائل: «بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين السبابة والوسطى» مشيرًا بذلك إلى اقتراب قيام الساعة، وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين.

أما بعد: قالَ الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ القمر [١]، ويقولُ عزَّ وجلَّ أيضًا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣﴾ النازعات.

اعلم رحمَكَ الله أنَّ القيامَةَ لا تقوم حتّى تحصلَ أشراطُ السّاعةِ الصُّغرى والكُبرى، أمّا العلاماتُ الصُّغرى فمنها ما أخبرَ الرسولُ عنها في الحديثِ الذي رواهُ مسلمٌ أن جبريلَ سألهُ عن أماراتِ الساعَةِ أي علاماتها فقالَ: «أن تَلِدَ الأمةُ رَبَّتَهَا - أي سيّدتها - وأن تَرَى الحفاةَ العُراةَ العالَةَ رعاءَ الشاءِ يتطاولونَ في البنيانِ» وهذا حصل.

ومنها: زَوالُ جبالٍ عن مراسيها وكثرةُ الزَّلازِلِ وكثرةُ الأمراضِ التي ما كانَ يعرفها النّاسُ سابقًا، وكثرةُ الدَّجالينَ وخطباء السُّوءِ وقد حَصَلَ ذلكَ، ومنها ادّعاءُ أناسٍ النّبوةَ وقد حَصَلَ هذا أيضًا، وتغيُّر أحوالِ الهواءِ في الصيفِ يصيرُ كأنهُ في الشتاءِ وفي الشتاءِ يصيرُ كأنهُ في الصيف، وكذلك قِلَّةُ العلمِ وكثرةُ الجَهلِ أي الجهل بعلمِ الدينِ وهذا قد حَصَلَ، وكثرةُ القَتلِ والظُّلمِ، وتقاربُ الزَّمانِ، وتقاربُ الأسواقِ، وتداعي الأمم على أمّةِ محمّدٍ كتداعيهم على قصعةِ الطَّعَامِ يحيطونَ بهم من كُلّ صوبٍ، وهذا كُلُّه حَصَلَ أيضًا.

ومن علاماتِ الساعةِ أيضًا ما أخبرَ عنها النبيُّ في حديثِهِ الذي قالَ فيه: «صنفانِ من أمتي لم أرهما - أي سيأتون من بعدي - قومٌ مَعَهم سِيَاطٌ كأذنابِ البَقَرِ يضربونَ بها الناسَ»، ثم قال: «ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ»، أي أنهنَّ يلبسنَ ثيابًا لا تسترُ جميعَ العورةِ وأنهنَّ مائلات عن طاعةِ الله ويُمِلنَ غيرهن عن طاعةِ الله أي فاجراتٌ يرمينَ الناسَ في الزنى «رءوسُهُنَّ كَأَسنِمَة البُخْتِ المائِلَةِ» أي يرفَعنَ رؤوسهنَّ ليعجب بهنَّ الناس أو يمشينَ مِشيةً خاصّةً يميّزنَ بها عن غيرهنَّ، وهذا حَصَلَ في بعض ما مضَى من الزمنِ في بغداد وغيرِها، وليسَ هذا الحديثُ منطبقًا تمامَ الانطباقِ على مجردِ اللاتي يكشفنَ شيئًا من عوراتِهنَّ، بل أولئكَ يَزدنَ على ذلكَ أنهنَّ زانيات، أخبرَ الرسولُ ﷺ عنهنَّ في تَتِمَّةِ الحديثِ أنهن «لا يَدخُلنَ الجنةَ ولا يَجِدنَ ريحَهَا وإنَّ ريحَهَا لَيوجَدُ من مسيرةِ كَذَا وكَذَا»، وهذا أيضًا حصل. والحديث رواه مسلم والبيهقي وأحمد.

وآخرُها ظهورُ المهديّ -عليه السّلامُ-، وهو ثابتٌ في الحديثِ الصّحيحِ الذي رواه ابن حبّانَ في صحيحِهِ واللفظ له، وأبو داود في سننِهِ والترمذيُّ في جامعه والحاكمُ في المستدرك من حديث عبدِ الله بن مسعودٍ -رضي الله عنه- عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «لا تقومُ السّاعَةُ حتّى يملك الناس رجلٌ من أهلِ بيتي يواطئ اسمُهُ اسمي واسمُ أبيهِ اسم أبي فيملؤها - أي الأرض - قِسطًا وعدلًا»، فالمهديُّ -عليه السلامُ- اسمه محمّدُ بنُ عبد الله وهو حسنيٌّ أو حسينيٌّ من ولدِ فاطمةَ -رضي الله عنها-، وقد وَرَدَ في الأثرِ أنه يسيرُ معهُ في أوّلِ أمرِهِ مَلكٌ ينادي: «يا أيّها النّاسُ هذا خليفةُ الله المهديُّ فاتّبعوه»، وَوَرَدَ في الأثرِ أيضًا أن المهديَّ أوّل ما يخرجُ يخرجُ من المدينةِ ويخرجُ معه ألفٌ من الملائكةِ يمدُّونَهُ ثم يذهبُ إلى مكةَ وهناك ينتظرهُ ثلاثمائة من الأولياءِ هم أوّلُ من يبايعهُ، ثم يخرجُ جيشٌ لغزوهِ فيخسِفُ الله بذلك الجيش الأرض فيما بينَ مكةَ والمدينة، بعدَ ذلك يأتي إلى بَرّ الشامِ. وفي أيّام المهديّ تحصُلُ مجاعَةٌ، والمؤمنُ في ذلكَ الوقتِ يشبعُ بالتّسبيحِ والتّقديسِ أي بذكرِ الله وتعظيمِهِ، يعني المؤمن الكامل.

وأشراطُ السّاعَةِ الكبرى عشرةٌ وهي: خروجُ الدَّجَّالِ، ونزولُ المسيحِ، وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، وطلوعُ الشَّمس من مغربِها، وخروجُ دابَّةِ الأرضِ، بعد ذلك لا يقبلُ الله من أحدٍ توبةً، وهاتانِ العلامتانِ تحصلانِ في يومٍ واحدٍ بين الصّبحِ والضُّحى، ودابَّةُ الأرضِ هذه تكلمُ الناسَ وتميّزُ المؤمنَ من الكافرِ ولا أحد منهم يستطيعُ أن يَهرُبَ منها، ثمّ الدُّخَانُ، ينزلُ دخانٌ ينتشرُ في الأرضِ فيكادُ الكافرون يموتونَ من شدّةِ هذا الدُّخان، وأمّا المسلمُ يصيبُ عليه كالزّكامِ، وثلاثةُ خسوفٍ خسفٌ بالمشرقِ وخسفٌ بالمغربِ وخسفٌ بجزيرةِ العربِ، وهذه الخسوفُ لا تأتي إلا بعد خروجِ الدَّجَّالِ ونزولِ المسيحِ عيسى -عليه السلام- وتقعُ في أوقاتٍ متقاربةٍ، والخسوفُ معناهُ انشقاقُ الأرضِ وبَلعُ من عليها، ويحتملُ أن تقعَ هذه الخسوفُ في آنٍ واحدٍ، ونارٌ تخرُجُ من قَعرِ عدن فتسوقُ الناسَ إلى المغربِ، وعدن أرضٌ باليمنِ.

والآنَ نسردُ بعضَ تفاصيلِ بعضِ هذه العلاماتِ والتي منها خروجُ الدَّجَّال ويقالُ له المسيحُ الدجّالُ والمسيحُ الكذَّابُ، وسُمّيَ بالمسيحِ لأنّه يُكثِرُ السّياحة فهو يطوفُ الأرضَ في نحو سنةٍ ونصفٍ يسيحُ في الدنيا إلى كلّ الجهاتِ بقدرةِ الله إلا مكّة والمدينة لا يستطيعُ أن يدخلَ مكَّةَ ولا المدينة، وقد ثَبَتَ أن الدجّالَ يأتي إلى المدينةِ فيجدُ على كلّ نَقَبٍ من أنقابِها مَلكًا معه سيفٌ مُسْلَطٌ فيفرُّ.

والدجّال شأنهُ غريبٌ في تنقّلِهِ ليس مثلنا ليفتنَ الله به من شاءَ من عبادِهِ فيضلّوا معه، يسهّلُ له التّنقلَ في الأرضِ بطريقٍ غريبٍ فيُضلُّ هنا وهنا وهنا يقولُ للنّاسِ أنا ربُّكم ويظهر لهم تمويهاتٍ فيؤمن بهِ اليهودُ ثم بعضُ الذين كَتَبَ الله عليهم الشّقاوةَ من غير اليهود، فلكثرةِ سياحتِهِ يُسمَّى المسيحَ، لكنّه بما أنّهُ كافرٌ يضلّ النّاسَ يسمَّى الدَّجَّال.

ولمّا يخرجُ الدّجال الذين يؤمنونَ بهِ يشبعونَ لأنَّ الله تعالى يفتنُ بهِ بعضَ الخلقِ، فالذين يؤمنونَ به ييسّرُ الله لهم الأرزاقَ ويوسّعُ عليهم، والمؤمنونَ الذين يكذّبونَهُ ولا يتّبعونَهُ تحصُلُ لهم مجاعةٌ، فيعينهم الله بالتّسبيحِ والتّقديسِ، فهذا يقومُ مقامَ الأكلِ فلا يضرُّهُم الجوعُ، ثم لمّا ينزلُ المسيحُ عيسى -عليه السَّلامُ- يقتُلُ الدجالَ، بعدَ ذلكَ يصيرُ رخاءٌ كبيرٌ، ويلتقي المهديُّ بعيسى أوّل نزولِهِ فعيسى يُقَدِّمُ المهديَّ إمامًا إظهارًا لكرامةِ أمةِ محمّدٍ وإشارةً إلى أنهُ إنّما ينزلُ ليطبّق شريعةَ محمدٍ في الأرضِ، ثم في عهدِ المسيحِ يصيرُ رخاءٌ كثيرٌ وأَمنٌ فَتُخرجُ الأرضُ ما في داخِلِهَا من الذَّهبِ حتى إنَّهُ لا يوجدُ إنسانٌ يقبلُ الصدَقَةَ من عمومِ الغنى.

والأعورُ الدَّجالُ إنسانٌ من بني آدمَ والظّاهِرُ أنه من بني إسرائيلَ، إحدى عينيهِ طافيةٌ كالعنبةِ والأخرى ممسوحةٌ فلذلك يقالُ له الأعورُ، وهو الآنَ محبوسٌ في جزيرةٍ في البحر، الملائكةُ حبسوهُ هناكَ، وهذه الجزيرةُ ليست معروفةً، رآه واجتمعَ به الصّحابيُّ تميمُ بن أوسٍ عيانًا، ركبَ ومن معهُ السّفينةَ فتاهَت بهم السفينة شهرًا وبَعُدَت، ثمَّ وصلوا إلى جزيرةٍ فاجتمعوا بهِ مكبَّلًا بالسّلاسل، وهو رجلٌ عظيمٌ جسدُهُ، كَلَّمَهم باللسانِ العربيّ قال: أنا فلان، وسألَهم عن أشياء، هل صارَ كذا، هل صارَ كذا، وسألهم عن رسولِ الله ﷺ، هل ظهرَ النبيُّ العربيُّ، ثم نَزَلَ الوحيُ على رسولِ الله بمثلِ ما رأى هذا الصحابي من الدَّجَّال. وهذا الأعورُ الدّجالُ يُظهِرُ الله تعالى ابتلاءً منه على يديهِ خوارقَ، ومن عجائبهِ أنه يشقُّ رجلًا من المؤمنينَ يكذّبهُ في وجههِ نصفين ثم يحييه بإذنِ الله فيقولُ الرجلُ الذي فُعِلَ به ذلك: لم أَزدَد بهذا إلا تكذيبًا لكَ، ويقولُ للسَّماءِ أمطري فتمطرُ، ويقول للأرضِ أَخرجي زرعَكِ فتخرجهُ، معهُ نهرانِ واحد من نارٍ وهو بَرْدٌ على المؤمنينَ وواحدٌ من ماءٍ وهو نارٌ عليهم.

وأوّل ما يظهرُ الدّجال يكونُ يوم كسنةٍ ويوم كشهرٍ ويوم كأسبوعٍ، وقبلَ ظهورِهِ بثلاثِ سنواتٍ تُمسِكُ السماءُ ثلثَ مائها ثم بعدَ سنةٍ تمسِكُ ثلثي مائها ثم قبلَ ظهورِهِ بسنةٍ تمسِكُ كُلَّ مائِها، ثم هذا الأعورُ الدّجّالُ يصادِفُ نبيَّ الله عيسى بفلسطين فيقتُلُهُ نبيُّ الله عيسى هناكَ ببابِ لُدّ، ولُدٌّ قريةٌ من قُرَى فلسطين.

وأمّا يأجوجُ ومأجوجُ فهم في الأصلِ قبيلتانِ من بني آدم مِنَ البشرِ كُلُّهم كفّارٌ، وأمّا مكانُهم فهو محجوبٌ عن النّاسِ في طرفٍ من أطرافِ الأرضِ. الله تعالى حَجَزَهم عن البشرِ فلا يَراهم النّاسُ، فلا هم يأتونَ إلينا ولا نحنُ نذهَبُ إليهم، الصَّعبُ ذو القرنين -عليهِ السّلامُ- الذي كانَ من أكابرِ الأولياءِ حَجَزَهم عن البشرِ، بقدرةِ الله تعالى بنَى سدًّا، الله تعالى أعطاهُ من كلّ شيءٍ سببًا لأنّه وليٌّ كبيرٌ، كانت الرّيحُ تحملهُ من المشرقِ إلى المغربِ، وذو القرنين -عليهِ السّلامُ- بكرامةٍ أعطاهُ الله إيّاها بنَى سدًّا جبلًا شامخًا من حديدٍ ثمّ أذيبَ عليه النّحاسُ فصارَ أمتن، لا يستطيعُ أحدٌ من البشرِ أن يترقّاهُ بطريقِ العادةِ، وهم يحاولونَ أن يخترقوا هذا الجبلَ كلَّ يومٍ فلا يستطيعونَ، ويقولونَ كلّ يوم بعدَ طولِ عملٍ وجهدٍ غدًا نُكمِلُ، فيعودونَ في اليومِ القابِلِ فيجدونَ ما فتحوه قد سُدَّ إلى أن يقولوا: غدًا نكمِلُ إن شاءَ الله، فيعودونَ في اليومِ القابِلِ فيجدونَ ما بدأوا به قد بَقِيَ على حَالِهِ فيُكمِلونَ الحفرَ حتى يتمكنوا من الخروجِ.

ثمّ يأجوجُ ومأجوجُ لا يموتُ أحدُهم حتّى يلدَ ألفًا من صلبِهِ أو أكثر كما ذكرَ الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-، فيصيرُ عددُهم قبلَ خروجهم كبيرًا جدًّا، حتَّى إنَّ البشرَ يومَ القيامة بالنسبةِ لهم من حيثُ العددُ كواحدٍ من مائةٍ، الله أعلمُ كيف يعيشونَ الآن وماذا يأكلونَ، وما يُروَى من أنَّ آذانَهم طويلةٌ ينامونَ على واحدةٍ ويتغطّونَ بالأخرى وأنَّهم قصار القامة فغيرُ ثابتٍ.

وفي أيّامهم تحصُلُ مجاعةٌ يمرّونَ على بحيرةِ طبريَّا التي في فلسطين فيشربونَها، فيمرُّ آخرهم فيقولُ كانَ هنا ماءٌ، ثم لمّا ينزلُ المسيحُ عيسى -عليه السّلام- من السماءِ هم ينهتونَ، فلا يتجرّأُ المسلمونَ لحربهم، فيذهبُ سيّدنا عيسى -عليه السلام- والمؤمنونَ إلى جبلِ الطُّورِ يدعون الله يستغيثونَ به منهم، ويتضرّعونَ إلى الله أن يُهلِكَهم، فيُنزِلُ الله عليهم دُودًا يدخلُ رقبةَ كلّ واحدٍ منهم فيرميهِ صريعًا ميّتًا، ثم الله تعالى يرسل طيورًا فتحملهم وترميهم في البحر ثم يُنزلُ مطرًا يجرِفُ آثارهم إلى البحرِ، وهؤلاءِ بعد أن ينزلَ سيّدنا عيسى بمدّةٍ يظهرونَ.

وأمّا نزولُ المسيحِ عيسى -عليه السلام- من السّماءِ فإنّه ثابتٌ بالأحاديثِ الصّحيحةِ، فقد روى أبو داود في سننهِ وأحمدُ في مسندِهِ والبيهقيُّ وغيرُهم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ليس بيني وبينه نبيٌّ - يعني عيسى -عليه السلام- وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلٌ مربوعٌ إلى الحمرة والبياض، بين مُمَصّرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بللٌ، فيقاتل الناس على الإسلام فيدقُّ الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنةً ثمَّ يتوفى فيصلّي عليه المسلمون». ومن الأمورِ العجيبةِ التي تحصُلُ في ذلكَ الوقت أيضًا أنَّ الله يُنطِقُ الشَّجَرَ والحجرَ فيقولُ للمسلمِ: يا مسلمُ هذا يهوديٌّ خلفي تعالَ فاقتُلهُ إلا شجر الغرقَدِ فإنَّه لا يدلُّ عليهِ لأنّهُ من شَجَرِهم.

ثم إنَّ المسيحَ -عليه السّلامُ- لمَّا ينزلُ من السّماءِ ينزلُ ويداهُ على أجنحةِ مَلكينِ، ينزلُ عند المنارةِ البيضاءِ شرقيّ دمشقَ كما ذَكَر رسولُ الله ﷺ، مع أنَّه في ذلكَ الوقتِ هذه المنارة لم تكن موجودةً شرقيّ دمشق، أمَّا الآن فهي موجودةٌ كما وَصَفَها رسولُ الله ﷺ، والمنارةُ هي بمعنَى عمودِ النُّورِ وقد عُمِلَ عمود نور للمطارِ الجديدِ شرقيّ دمشق، ثمَّ إنَّ المسيحَ لمَّا ينزلُ يلتقي مع المهديّ في بلادِ الشّامِ، والشامُ ليست سوريا فقط، بل لبنان والأردن وفلسطين كلُّ هذا شَامٌ. وحدُّ الشامِ من العريشِ إلى بَالِسٍ.

وقولُهُ -عليه الصلاة والسلام-: «ثمّ يُتوفَّى فَيُصلّي عليهِ المسلمونَ» يُعلَمُ منهُ أنَّ الله لم يُمِتهُ بَعدُ إنَّما رفعَهُ حيًّا من الأرضِ إلى السّماءِ يقظان، ومن قالَ إنه قد توفيَ من غيرِ قتلٍ ولا صلبٍ فقد غَلِطَ، ثمَّ إنَّ الرسولَ وَصَفَ لونَهُ ففي روايةٍ في صحيح البخاريّ: «أنّه آدم»، الآدم معناهُ الأسمرُ، وفي روايةٍ أنّه وصفهُ بالأحمر، فمعنى الرّوايات أنّه ليس أبيض مشرقًا، بل هو أسمر سمرةً خفيفةً مع شيءٍ من الحمرة وبياضٍ خفيفَينِ، فالذي وَرَدَ في البخاري أنه أسمرُ أما في أبي داود وَرَدَ أنه أبيض.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ آل عمـــران [٥٥]

فبحسبِ اللفظِ متوفّيكَ مقدَّمٌ، أمّا بحسبِ المعنى متوفّيكَ مؤخَّرٌ ورافعُكَ مقدَّمٌ، فالتَّرتيبُ بحسبِ المعنى: إنّي رافعُكَ إليَّ أي إلى مَحلّ كرامتي أي المكان الذي هو مُشَرَّفٌ عندي وهو السَّماء، ومطهّرُكَ من الذين كفروا أي مخلّصُكَ من الذين كفروا أي اليهود، ومتوفّيكَ أي بعد إنزالِكَ إلى الأرضِ، أي مميتُكَ بعد إنزالِكَ إلى الأرضِ، هذا هو القولُ الصَّحيحُ الموافِقُ للأحاديثِ، وهكذا فَسَّرَ عبدُ الله بن عبّاسٍ ترجمان القرآنِ الآية، أي من بابِ المقدّمِ والمؤخَّرِ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ الأعلى [٤، ٥]، الغثاءُ اليابِسُ المتكسّرُ والأحوى الأخضرُ، والنّباتُ أوّلًا يكونُ أحوى أي أخضر ثمّ يكونُ غثاءً أي يابسًا متكسّرًا، ويجوزُ تفسيرُ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي قابضكَ من الأرضِ وأنت حيٌّ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي إلى محل كرامتي، كِلا التفسيرينِ جائزٌ، إنما الذي لا يجوزُ تفسيرُ متوفيكَ بمعنى مميتُكَ قبلَ رفعِكَ إلى السماءِ وإنزالِكَ إلى الأرضِ، لأنَّ هذا يعارِضُ حديث أبي داود المذكور.

وما تدَّعيه القاديانية أتباع غلام أحمد القادياني نسبة إلى قاديان من الهند وتُعَدُّ اليوم من الباكستان من أن المسيح عيسى ابن مريم مات وصُلب فهو كذب، وغلام أحمد هذا دجال لأنه قال أنا نبيٌّ وقال إني أنا المسيح الموعود وقال تمويهًا على الناس إني نبي في ظل محمد، وقد كذب على الله وعلى رسوله. قال الله تعالى ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الأحزاب [٤٠] أي آخر النبيين وقال رسول الله ﷺ: «انقطعت الرسالة والنبوة فلا نبيّ بعدي ولا رسول وبقيت المبشّرات»،وقد أخرجَ ابن أبي حاتمٍ والنسائيُّ عن ابن عبّاسٍ قالَ: «كانَ عيسى مع اثني عشرَ من أصحابهِ في بيتٍ فقال: إنَّ منكم من يكفُرُ بي بعد أن آمَنَ، ثمَّ قالَ: أيكم يُلقى عليه شَبَهي ويُقتَلُ مكاني فيكونُ رفيقي في الجنّةِ، فقامَ شابٌّ أحدثهم سنًّا فقال: أنا، قال: اجلس، ثم عادَ فعَادَ، فقال: اجلس، ثم عَادَ فَعَادَ الثالثةَ، فقال: أنتَ هُوَ، فأُلقِيَ عليهِ شبهُهُ، فأُخذَ الشابُّ فَصُلِب بعدَ أن رُفِعَ عيسى -عليه السَّلام- من رَوزنةٍ في البيتِ، وجاءَ الطلبُ من اليهود فأخذوا الشابّ»، وهذا إسنادُهُ صحيحٌ، والرّوزنةُ نافذةٌ في السطحِ يصعدُ إليها، في زاويةٍ من البيتِ تكونُ.

أمّا ما يرويه بعضُهم من أنَّ يهوديًّا جاءَ مع اليهودِ ليدلهم وَوَعدوهُ مبلغ كذا من المالِ، ثم لمَّا أدخلهم إلى البيتِ أُلقِيَ عليهِ شبهُ المسيحِ فظنّوهُ هو المسيحَ فقتلوهُ فهذا غيرُ ثابتٍ لكنه مشهورٌ عند المؤرّخينَ، والصحيحُ هو ما قالَهُ عبدُ الله بن عبّاسٍ.

وفي آخر الزّمانِ ينزوي الإيمانُ إلى المدينةِ المنوّرةِ كما تنزوي الحَيَّةُ إلى جُحرِهَا أي إلى وكرِهَا، لأنَّ آخرَ قريةٍ من قُرَى الإسلام تخربُ هي المدينة كما وَرَدَ في الحديثِ الذي رواه الترمذي: «آخرُ قريةٍ من قُرَى الإسلامِ خرابا المدينةُ»، ولا بدَّ أن تكونَ المدينة أحسن حالًا من غيرِها فيما مَضَى وفيما سيأتي.

وهذا هُوَ المرادُ بالحديثِ الذي رواهُ مسلمٌ: «إنَّ الإيمانَ ليأرِزُ إلى المدينةِ كما تَأرِزُ - أي تنزوي - الحيَّةُ إلى جُحرِهَا».

وفي آخرِ الزمانِ يُرفَعُ القرآنُ إلى السماءِ ولا تبقى آيةٌ من القرآنِ في الأرضِ، عندئذٍ يموتُ الخضرُ -عليه السلام-.

ثمّ إنَّهُ بعدَ حصولِ أشراطِ السّاعةِ الكبرى العشرة تقومُ القيامةُ على الكفَّارِ، وقبلَ ذلك بمائةِ عامٍ تأتي ريحٌ وتَدْخُلُ تحتَ إبطِ كلّ مسلمٍ فيموت كلّ المسلمينَ ويبقى الكفّارُ فتقومُ القيامَةُ عليهم، ينفخُ إسرافيلُ -عليه السلام- في الصّورِ أي في البوقِ فيفزعونَ من هذا الصّوتِ، فإن صوتَ نفخةِ إسرافيل في البوقِ هولهُ عظيمٌ تتقطَّعُ منه قلوبُ الكفارِ حتَّى يموتوا من شدَّةِ هذا الصَّوتِ، وكذلك الجِنُّ الكفَّارُ يموتونَ تلك السّاعة، فلا يبقى بشرٌ ولا جنٌّ على وجهِ الأرضِ إلا وقد ماتَ، وأمّا الذين ماتوا قبلَ ذلكَ من المسلمينَ والكافرينَ فيُغشَى عليهم تلكَ الساعة أي يُغمَى عليهم إلا الشُّهَدَاء أي شهداء المعركَةِ فلا يُغشَى عليهم تلكَ السَّاعة، قالَ -عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ-: «النَّاسُ يصعقون يومَ القيامةِ فأكون أول من يُفيق، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أَفاقَ قبلي أم جوزي بصعقة الطُّور» رواه البخاريُّ، والأنبياءُ لمّا يصعقونَ في ذلكَ الوقتِ لا يصيبهم ألمٌ وكذلك الأتقياء، ولمَّا يفيقُ رسولُ الله ﷺ من تلكَ الصّعقةِ يجدُ موسى وهو ماسكٌ بقائمةٍ من قوائمِ العرشِ، ولم يتبيَّن له أمرهُ هل أُعفِيَ من الصعقَةِ فلم يُصعَق، أم صُعِقَ فأفَاقَ قَبلَهُ.

ثمّ بعدَ موتِ البَشَرِ يموتُ الملائِكَةُ، وآخرهم موتًا عزرائيلُ، قالَ بعضُ العلماءِ: يُستثنى خَزَنَةُ الجنةِ وَخَزَنَةُ جهنَّمَ وحملةُ العرشِ والحُورُ والولدان، ثمّ بعدَ ذلكَ يُحيي الله إسرافيل الذي كانَ نَفَخَ في الصُّورِ المرّةَ الأولى، ثمّ ينفخُ مرّةً ثانيةً وذلكَ بعدَ أربعينَ عامًا فيقومُ الأمواتُ من قبورِهِم وبعدَ ذلكَ السُّؤالُ والحِسَابُ.

والحمد لله رب العالمين

أذكار الصباح والمساء

أدعية وأذكار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تُقال صباحاً ومساءً: يُحفظ قائِلها ولا يَضره شيء بإذن الله.

١

إنَّ ربِّي اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْـتُ وَهُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ، ما شـآء الله كان وما لـم يشـأ لَم يَكن لا حَول ولا قُـوة إلا باللهِ العليّ العَظيم. أشهد أن الله على كُل شيء قَدير، وأن الله قَد أحاطَ بِكلِ شيءٍ عِلما، أعوذُ باللهِ الذي يُمسكُ السّماءَ أن تَقعَ على الأرضِ إلاّ بإذنه ومن شِرِ كُلِ دَآبةٍ ربي آخذٌ بِنَاصِيَتِها، إنَّ ربي على صِراطٍ مُسَتَقِيم.

(مرة واحدة صباحًا ومرة واحدة مساءً)

٢

بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

٣

رَضيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمدٍ نبيًا.

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً) (في الثالثة يزيد قول صلّى الله عليهِ وسلم)

٤

حَسْبِيَ اللّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظيم.

(سبع مرات صباحًا، سبع مرات مساءً)

٥

يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

٦

أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

٧

أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

٨

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وأَنَّ اللَّهَ قد أحاط بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا

(مرة واحدة صباحاً ومرة واحدة مساءً)

٩

آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

(تقرأ عقب كل صلاة)

١٠

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ

١١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾ البقـــرة [٢٨٥، ٢٨٦]

آخر آيتين من سورة البقرة (تقرأ مساء مرة واحدة

١٢

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (ثلاث مرات)

١٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ الحشر [٢٣، ٢٤]

ثلاث آيات من آخر سورة الحشر (تقرأ صباحًا ومساء مرة واحدة)

المعوذات الثلاث تقرأ صباحًا ومساءً ثلاث مرات:

١٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الإخلاص

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

١٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ سورة الفلق

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

١٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾ سورة الناس

(ثلاث مرات صباحًا، ثلاث مرات مساءً)

والحمد لله رب العالمين

تم بحمد الله وتوفيقه

إلى اللقاء في الإصدارات القادمة إن شاء الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤ ﴾ الجمعة [٤]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أتشرف بإعداد وجمع هذا الكتاب الذي تضمن منهج أهل السنة والجماعة.

واضعًا نفسي في خدمة ديني ووطني.

للتواصل

TR.Hussamedeen / (المستشار حسام الدين محيسن)

hussamedeen@paltrainer.com

موقع المدرب الفلسطين Paltrainer.com

والله نسأل أن يتقبل هذا العمل ويجعل فيه النفع العظيم وهو الوليّ والوكيل وعليه الاعتماد والتكلان.

حرره الفقير إلى الله

حسام الدّين عبد الله مُحَيْسِن

غزة- فلسطين

رمضان ١٤٤٣هـ

إبريل (نيسان) ٢٠٢٢م

تم بحمد الله

إنّ علم التبين من مبادئ الإسلام

من أصوله فهو دعامة صالح يعمل مع كل زمان

العامل كالقائد في وسط الصحراء بلا دليل لا يدري متى يغلب

من منصور أو يهزم، وكذا العامل لا يضمن سلامته ولا سعادة عياله

ولا سعادة نفسه فيعلم التبين تميز الكافر من الإيمان والضلال من الصراط، ويعلم

التبين تميز الحق من الباطل والحسن من القبيح، ويعلم التبين تعرف كيف

تتكلم ومتى تتكلم ولماذا تتكلم ولا تسكت ولا تسكت، يعلم التبين تعرف كيف

تبيع وكيف تشتري وكيف تجري عقد النكاح لك أو لابنتك أو لولدك، يعلم

التبين تعرف كيف تكون بارًا بوالديك وكيف تحسن لأحدهما والعياذ بالله فتأمل

معي أيها الولد أنّ شريعة الإسلام التي تحتاج إليها لتعرف

هذا وستجد هذا الوازع الشرعي الذي أشرنا

من يعلم التبين كيف ستكون الحال